التوأمان
(أمي وسورية)

سهام يوسف

التوأمان
(أمي وسورية)

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة — دمشق ٢٠١٦م

التوأمـان (أمـي وسـورية) / سـهام يوسـف. - دمـشق: الهيئـة العامـة السورية للكتاب، ٢٠١٦م .- ٢٨٠ص؛٢٤سم.

١- ٩٢٠: يوسف، سهام ي ٢- العنوان ٣- يوسف

مكتبة الأسد

الإهداء

إلى روح أمي..

جهدت واجتهدت واستنفدت كل فرصة..

حاولت أن أجعل المستحيل طيّعاً بين يدي

لأهديك الشفاء والانتصار على مرضك..

كسبتُ جولاتٍ وخسرتُ أخرى

مكسبي أنك والدتي..

وانتصاري.. أنك عشتِ كريمة وفارقتِ مُكرّمة

إلى أمهات شهداء سورية..

أنجبتم فرساناً قضوا نحبهم دفاعاً عن

تراب سورية الذي ارتوى بنجيعهم

لتبقى أمنا الخالدة سورية مرفوعة الجبين

لترفعنّ بيرق النصر القادم

إلى عائلتي الصغيرة..

(زوجي: شابو، ابنتي: يلدا - مليسيا)

كنتم ذخيرتي وذخري.. ومازلتم رصيدي

الذي أباهي وأفتخر به.. فأرتقي

ذرى المجد وسَنَمَ الكبرياء

أقدم هذه الصفحات لتبقى همسةُ حب

وعبارة وفاء والتزام وتشبث بترابي وهويتي

فإن طوتني الأيام فلن تطويني ذاكرتكم

كلمات ومشاعر

أمي... وعينيَّ تغرقهما الدموع حين أنظر إلى صورتك أو أسمع صوتك فيبتهل قلبي بالرحمة لك يا أمي..

ماأعظمها من صفة وقيمة منحها الخالق للأم، فكم هي سامية هذه الأحرف الثلاثة التي تهز مشاعرنا وتحركها بلطف كما هزت يداها سرير طفولتنا لننعم بنوم هادئ، وكم تنعمت مسامعنا بدفء صوتها حين كانت تغني برقة وحنان مع كل حركة تلامس فيها السرير.. أو تدفع بهدوء أرجوحة بسيطة مدت حبالها بين ساموكين في بيتٍ عتيق.. سقفهُ تراب.. مطروشة جدرانه بتربة بيضاء.. أو بين جذعي شجرتين في فسحة الديار... وكم أرهقها التعب والعناء.. وهي كنحلة معطاء.. تنظم الأوقات.. ترتب الأشياء.. تغمرها سعادة الحياة.

وكم نسج خيالها لنا مستقبل الأحلام.. وعمّرت لنا القصور.. وضمدت جراحنا.. وسكّنت أوجاعنا بالصوم والصلاة.. وكم.. وكم تبسّمت.. وقدمت بحديثها مع نفسها أو أخّرت.. وهي تلف مهدنا.. وتلفنا أحلامها.. فكم رأت.. فينا المعلم والطبيب.. أو قاضياً أو حاكماً.. وهي تشد قماط مهدنا بزنار القماش أهدته جدتها لها في عرسها.. أو أنه هدية لقدومنا.. جاء بها عم لنا أو خال.. أو أحد كرام جيراننا.. أو أنه كان علامة العروس لابن عمٍ أو قريب، إن كان المولود أنثى.. وليست هذه العادات عنّا بالزمن البعيد.

تعجز الألفاظ والكلمات نثراً إن قيلت أو نظمت شعراً.. أن تحيط بمقامك أو تعطيك بعضاً من حقك.. أو توفّيك فضلك.. أو ترد جميلك.. يا أمي يا جميلتي.

كتاب
«التوأمان أمي وسورية»
تجربةٌ واقعيةٌ تظهرُ تلازمَ القيم الأخلاقية الفردية معَ القيمِ الوطنَية

أضافت الكاتبة سهام يوسف إلى مكتبتنا السورية والعربية كتاباً تربوياً جديداً روت فيه معاناتها الشخصية، وهي في بلد الاغتراب، من محنتين جاءتا معاً، الأولى قضية شخصية هي مرض والدتها التي فارقت الحياة، رحمها الله، والثانية قضيةٌ وطنية هي المأساة التي ألمت بوطنها سورية، وأصابت نسيجه الاجتماعي وبنيته التحتية وهويته الحضارية بضررٍ كبيرٍ، وقد تداخلت هاتان المحنتان معاً وكأنهما توأمان لا ينفصلان من وجهة نظرها.

وتروي لنا الكاتبة الأحداث الواقعية التي مرت عليها في هذه المواجهة، وسمات الأشخاص الحقيقيين الذين قابلتهم وسلوكهم، وذلك بأسلوب واقعي عاطفي يجعل القارئ يعيش الحدث معها ويذرف الدمع متأثراً في عدد من المواقف. مثل هذا الأسلوب في التركيز على كل ما هو مضيء يجعل القارئ يرغب في تبني كل ما هو إيجابيٌ وصحيحٌ في هذه الرواية، وهذا هو بيت القصيد من كتابة الرواية الواقعية وفق المنهج التاريخي الاجتماعي الذي يعد من أفضل المناهج التربوية المتبعة في كتابة الرواية، لأن هدفه هو تمثل شخصية المواطن القدوة الذي يحب أسرته وأقرباءه وأصدقاءه وموطنه ويضحي من أجلهم إذا ما تطلب الموقف ذلك .

وليست هذه هي المرة الأولى التي أتحفتنا فيها الكاتبة في اختيار هذا المنهج وهذا الأسلوب الواقعي في الكتابة، فقد استخدمته عدة مرات في مقالاتها ورواياتها، وكانت أبرزها الرواية التي نشرتها في موقع «الرأي السوري» بعنوان «جدتي خاتون... حكاية الشجون»، والتي ضربت رقماً قياسياً في عدد زوار الموقع الإلكتروني «الرأي السوري»، حيث وصل عدد هؤلاء إلى خمسين ألف زائر مع تعليقاتهم ، وبهذه المناسبة يهدي الموقع الحضور الكرام نسخة من هذه المقالة مع التعليقات عليها.

ففي كتابها الحالي «التوأمان أمي وسورية» قدمت لنا الكاتبة والدتها المرحومة كما كانت تراها بسمات الكمال «سيدة الأناقة، وملكة النظافة، وأميرة المطبخ... هي كنحلة معطاء.. تنظّم الأوقات... ترتّب الأشياء.. تغمرها سعادة الحياة»، وهي بهذا الوصف الجميل تفجّر في ذات كل امرأة تقرأها رغبة كامنة في أن تكون أماً بالصفات نفسها، وهكذا تكون الكاتبة قد حققت غرضها التربوي الشخصي.

وفي التوجه الواقعي نفسه قدمت لنا إخوتها الستة، وهم، على الرغم من ظروف الحياة الصعبة التي جعلتهم موزعين على ثلاث قارات في أمريكا وأوروبا وآسيا، على تواصل دائم وتعاون وتآزر وطيدين وكأنهم لا يزالون في أسرة واحدة، مولّدة في نفس القراء رغبة الاقتداء بهؤلاء الإخوة، وبذلك تكون الرواية قد حققت غرضها التربوي العائلي.

كما قدمت لنا أصدقاءها الحقيقيين بسمات التعاون والإخلاص إلى حد اعتبارهم إخوة لها، وذكرت على سبيل المثال أختها د. بثينة شعبان، وأخاها أبو نورس الذي وصفه أخوها الأكبر بقوله «نحن ستة إخوة وسابعنا أبو نورس سمير وسوف»، وهذا الأسلوب في التعامل مع الأصدقاء يحرض فينا نحن القراء الرغبة الكامنة في الحفاظ على أصدقائنا وتمتين صداقتنا معهم، وبذلك تكون الرواية قد حققت أيضاً غرضها التربوي الاجتماعي.

ومن خلال سلوك المؤلفة، كما جاء في صفحات الكتاب، رأينا فيها الابنة المحبة والوفية والمطيعة لوالدتها، فهي تقبّل يدها، وتنفذ لها رغبتها من دون نقاش، وتقدم لها كل مساعدة شخصية ممكنة، وتسعى إلى تنفيذ وصيتها، وهكذا حرضت فينا نحن القراء رغبة الاقتداء بها.

أما عن وطنها سورية فقد قدمت لنا صورة ارتباط المواطن بوطنه كما العاشق الذي يتغنى بحبيبته.. فعشق سورية، كما تقول، يسري في الدماء وهو موروث تتناقله الأجيال.. وبسبب أحداث الأم سورية لم تعد الكاتبة تتحدث مع الإخوة والأصدقاء بشؤون عائلية، ولم يعد يخطر لها أن تذهب في إجازة للاستجمام والراحة، فقد صادر وضعُ أمها والحربُ في بلدها تفكيرها تماماً، فهما محور اهتمامها وأفق خيالها حتى أصبحت تحلم بهما.. فسورية العظيمة، كما تقول، يجب أن تبقى حيةً تؤدي رسالتها الإنسانية لجميع البشر.. ألم يدفع هذا القول من يقرأه إلى الاعتزاز بالانتماء إلى وطنه سورية والتضحية بكل غال ورخيص من أجلها، وهذه قيمة وطنية أخلاقية عليا تحاول الكاتبة غرسها في النفوس.

وختمت الكاتبة كتابها بضرورة الاستعانة بالله في المحن بقولها: «رحمك الله يا أمي وحماك الله يا سورية».

أما معارف الكاتبة سهام يوسف فيقولون عنها «إن ما تكتبُه تعيشُه، مجسدةً إياه على أرض الواقع، فهي كالوردة الشامية يفوح عبق أريجها في البستان الذي تنبت فيه».

د. رزق الياس

رحلة العائلة من المالكية إلى أوروبا

لقد منَّ الله عليّ بأبوين صالحين... فوالدي أيشوع رحمة الرب تغمر روحه بالراحة والسلام، وأمي (ليَّا) وهذا الاسم يعرفها به الأقارب والجيران واسمها جميلة في القيود والعنوان ..ليّا.. هذا الاسم الذي ارتسم حباً في قلب كل من عرفها فكانت ليَّا في الذاكرة والوجدان.. وجميلة الخصال بين الأهل والجيران.. لطيفة ذكية.. كريمة وفيّة.

معاناة العائلة مع السفر

أمضت حياتها في الحل والترحال.. فمن قرية آذخ داخل الأراضي التركية حالياً– وكانت تلك الديار قبل الاحتلال العثماني لبلاد العرب امتداداً لأراضي سورية الطبيعية– جاءت طفلة مع أهلها وأقاربها هرباً من المذابح العثمانية بحق السريان وفراراً من ظلم وفرمان السلطان.

واستقر المقام بهم في المالكية قرب نهر دجلة وكان اسمها (ديريك) وهذا الاسم بقي في ذاكرتها إلى يوم فارقت روحها الجسد في أرض الشام.

هناك في المالكية عاشت طفولتها وكبرت بين أهلها وأقرانها وترعرعت، ولست هنا في صدد كتابة ما أعرفه عنها من خلال إقامتي في المالكية والقامشلي والأماكن الأخرى التي عشنا فيها، بل سأكتب بأمانة ما سمعته منها في سنواتها الأربع الأخيرة التي أمضتها من عمرها في سورية توءم روحها التي احتضنت جسدها الطاهر وارتقت روحها في سمائها.

فقد عاشت العائلة متنقلة ما بين القامشلي وبيروت والشام، وبعد زواجي بنهاية المرحلة الثانوية وسفري إلى السويد بدأت بقية العائلة بالتوافد إليها، فمنهم من استقر فيها بضع سنين ثم انتقل إلى البرازيل، ومن بين إخوتي الذين أقاموا في السويد أخي المرحوم نبيل وأخي ميشيل ثم تبعهما والدي ووالدتي وأخي

الصغير ممتاز، ومنها كانوا يسافرون ويعودون إليها ليستقر بهم المقام أخيراً في البرازيل حيث تنقلوا ما بين البرازيل والسويد وسورية.. وكثيراً ما رافقت والدي ووالدتي إلى سورية..

وفي تلك الفترة سافر أخي نبيل إلى ألمانيا لعملٍ ينجزهُ حيث تعرض لعملية غدر وقُتل في ظروف غامضة، وقيل حينها إنه تعرض لحادث سير، بينما الحقيقة أن أحد أصدقائه قتله غدراً داخل السيارة طمعاً بما كان يحمله من نقود وقطعة من الذهب (بلاك)، كان يضعه في معصمه دائماً ليستخدمه عند الحاجة في البلد الذي يسافر إليه فيما لو اضطرته الظروف لذلك أو انقطع من المال.

وكان رحمه الله شاباً رياضياً وسيماً جداً ويحمل عدة أحزمة في رياضة الكاراتيه، فذهبت برفقة زوجي (شابو) إلى ألمانيا واستلمت جثمانه الطاهر وعدنا به إلى السويد حيث واريناه الثرى بعد حضور أفراد العائلة من سورية والبرازيل.

بعد وفاة أخي توالت الأحداث المؤسفة فقد مرض والدي مرضاً شديداً أثناء وجوده في سورية، بعد تحمله الألم والصبر عدة سنوات من فقدان نبيل، ما اضطرني لإحضار فريق طبي إلى دمشق، وعدنا به إلى السويد حيث أخذه أخي حنا إلى البرازيل وأجرى له عملية قلب في أكثر المشافي البرازيلية تقدماً، وعاد بعد تماثله للشفاء وبعد عدة أشهر تعرض لانتكاسة فارق على أثرها الحياة.

اجتمعت العائلة مجدداً لنواريه الثرى بجوار قبر أخي نبيل وبقيت والدتي تتابع حياتها متنقلة بيننا نحن الأخوة الثمانية، أما والدتي فكانت آخر زيارة لها إلى البرازيل عام ٢٠٠٨ حيث بدأت تعاني من خلل في ذاكرتها القريبة فجاء بها أخي ممتاز من البرازيل إلى السويد وهنا بيت القصيد..

أمي تُعاني..

عندما وصلت أمي قادمة من البرازيل لفت انتباهي بداية الأمر أنها أصبحت سريعة النسيان، فزاد قلقي وانتابني الخوف عليها فيما لو خرجت من بيتها ألا تتذكر طريق العودة إليه فقررت ملازمتها وخدمتها، فكنت أنقلها ما بين بيتها وبيتي بحيث أتمكن من الذهاب إلى عملي، وشعرت أنه لا يمكنني الاستمرار طويلاً على هذه الحال فقد نصبح كلانا مريضتين، فأحضرت لها امرأة براتبٍ شهري لترافقها إن أحبت الذهاب للأسواق وتسليتها في البيت ريثما أعود من عملي، فكنت أحضر لهما الطعام وأرافقها إلى المشفى وأهتم بنظافة البيت ونظافة ملابسها لأنها كانت سيدة الأناقة وملكة النظافة وأميرة المطبخ.

كانت تجيد اللغة العربية والسريانية وتلم بالبرازيلية والكردية والتركية وتحفظ عن ظهر قلب أسماء معظم دول العالم وعواصمها، وكثيراً ما كنت أمتحن معلوماتها حيث أذكر لها اسم دولة ما فتذكر هي عاصمتها.

وهكذا مضت عدة أشهر ونحن على هذه الحال إلى أن فاجأني أحد الأقارب والكثير من الأصدقاء بما اقترحوه عليّ بأن أضعها في أحد دور أو مراكز الرعاية للمسنين، فقلت لهم لنفكر في الأمر وسألتهم! هل كانت أمي ستضعني وإخوتي في دار رعاية الأيتام أو أحد مراكز رعاية الأطفال فيما لو كان وضعها يقتضي التغيب عن البيت لعدة ساعات، أو هل كانت ستضعنا في هذه الأماكن فيما لو تعرض أحدنا لمرضٍ أو عجز لأي سبب كان؟

وبعد أن عدت من عملي فكرت عميقاً بحالتي وبوضع أمي فقمت مباشرة وذهبت لعندها برفقة زوجي وابنتي يلدا ومليسيا، حيث كان زوجي يدير مطعماً، وابنتي يلدا متفرغة لبيتها وأطفالها وتساعد زوجها، وأما مليسيا فكانت مخطوبة وتتابع تجهيز متطلبات عرسها وبيتها الجديد، فالعائلة موزعة طيلة النهار خارج البيت. وعندما رأتني أمي فرحت كثيراً قائلة بلهجتها:

«أين كنت- أشو تساوين- وإيش تعملين- أنا ما شفتوكي من يومين- وأنا اشتقتولكي»، وغمرتها مقبلة يديها ورأسها قائلة لها أمي: «هأنا جئتوك وكمان أنا اشتقتولكي».

وصية والدتي بالعيش في سورية

وخلال حديثنا اعتدلت في جلوسها وشبكت بين أصابع يديها ونظرت إلي بجدية نظرة لن أنساها وقالت سأقول لك أمراً ولي عندك مطلب وسأوصيك وصية فإن عجزت عما سأقوله فاطلبيه من أخيك حنا، فأجبتها «أنت تأمرين وأنا خادمتك» ما عشتُ وعشتِ، وبهذه اللحظات تسلل الخوف إلى داخلي فأكملت قائلة:

«أنا من سورية وأريد أن أمضي بقية أيامي فيها وعندما أموت وصيتي لك أن يكون قبري بجوار قبر والدي ووالدتي في ديريك».

لقد أبكتني هذه العبارات التي تلفظت بها وارتميت على حضنها أذرف دموعي فوق ثيابها، فوضعت يدها على رأسي وأخرى تُربت بها على كتفي وكأنها كانت تريد تهدئة روعي وشعرت أنني طفلة تضع رأسها في حضن أمها الحنون.

فمسحتُ دمعاً وأخفيت حزناً ورفعتُ رأسي بعزةٍ وكبرياء واحترام لما قالته وما سمعته منها، فعشق سورية يسري في الدماء وهو موروث تتناقله الأجيال عند سريان سورية، وأكبرتُ فيها هذا الوفاء لأرض درجت فوق ترابها صغيرةً وأكلت من خيراتها وأورثتنا هذا الحب وهذا العشق لسورية، وقلت لها كل ما تطلبينه ستجدينه وما تتمنينه سنلبيه وأقسمت لها أن كل ما أوصت به سيكون إن شاءت الأقدار وسنحت لتنفيذه الأعمار.

أمضيت ليلتي عندها وفي الصباح فكرت ملياً في الأمر فاتصلت إلى البرازيل بأخي الكبير حنا وأطلعته على ما سمعته منها، فقال لي: «وليكن لها

ذلك ويمكننا أن نشتري لها بيتاً في الشام أو نستأجره لها وأن نوظف أي سيدة ترغب في الإقامة معها لتعتني بها». فقلت له «وأنا بدوري يمكنني أن أسافر كل ثلاثة أو أربعة أشهر لعندها وأنسق ما بين عملي وسفري عندها وأمضي شهراً كاملاً معها». وهكذا أطلعت بقية إخوتي واتفقت الآراء على تلبية رغبتها وتنفيذ وصيتها.

البحث عن شقة في دمشق

بدأت أرتب أفكاري ماذا عساي أن أفعل لأضع رغبة أمي على سكة التنفيذ، وكما يقول المثل (الصديق وقت الضيق)، بدأت أقلب أوراقي القديمة وأفتش في دفتر هواتفي وأعملت ذاكرتي، وطلبت من ربي أن يهديني ويلهمني الصواب في خطوتي الأولى ويتمم بالنجاح ما نويت عليه لأنال رضى أمي وأحقق لها ما طلبته مني، فاتصلت هاتفياً بصديق قال عنه أخي حنا يوماً نحن ستة أخوة شباب وسابعنا هو (أبو نورس) سمير وسوف وشرحت له ما نحن بصدده فلم يتردد. وقال إنه جاهز للمساعدة في هذا الأمر. فطلبت منه البحث عن بيت بدمشق مناسب سواء أكان ذلك شراء أم استئجاراً، وأن تتوافر فيه الشروط اللازمة لسكن أمي من حيث المكان والقرب من الأسواق بحيث تجد البقالية والصيدلية والطبيب والسيارة في كل لحظة تحتاجها، وقلت له إضافة للبيت فمن المهم والضروري تأمين سيدة ذات خبرة في التعامل مع كبار السن وأفضل أن تكون لها خبرة في التمريض وألا تكون من ربات البيوت أو لديها عائلة كبيرة، وأن تكون متفرغة لخدمة أمي ومرافقتها والإقامة معها بشكل دائم. فأبدى استعداده للمساعدة في تأمين المطلوب ووعدني أن يبحث عن أفضل الخيارات المناسبة. بعد أن شرحت له الكثير حول مجمل هذا الموضوع عاد وأكد استعداده أن يبذل ما بوسعه.

وبعد ذلك اتصلت بالأخت المحترمة والصديقة الوفية الدكتورة بثينة شعبان وشرحت لها واقع أمري وحالة أمي وأخبرتها أنني طلبت من (أبو نورس) البحث عن بيتٍ في الشام لهذه الغاية.. أجابتني حرفياً:

«اسمعي يا سهام أنا فقدت والدتي وأن في بيتي متسعاً وأن الغرفة التي كانت أمي تنام فيها ستكون لأمك، وستلقى عندي العناية الكاملة فلا تعقدي الأمور فكل الخدمات التي تحتاجها موجودة ومتوفرة، إضافة لأنها في حالتها هذه لا تحتاج لأية قضايا معقدة فهي بحاجة فقط أن ترى شخصاً يبتسم لها ويحدثها ويسألها، فهي تفرح لما يُفرح الأطفال في سنينهم الأولى، وأن تعتاد على وجود هذا الشخص وتراه دائماً يهتم بها فتألفه، ولا تتشوش ذاكرتها إلا إذا رأت أشخاصاً متعددين، لأن ذاكرتها القريبة تكون ضعيفة وأما ذاكرتها البعيدة فهي وثائقية وتفصيلية ودقيقة، وثقي أنها ستكون عندي بمقام أمي». هكذا قالت وعلى هذا أكدت.

فقلت لها: «لم يفاجئني قولك ومحبتك واحترامك ونحن في العائلة نعتبره رصيداً وكنزاً كبيراً نعتز به»، وأوضحت قصدي من شراء البيت أو استئجاره وأنه في حال جئت أو أحد إخوتي وعائلته فلا يشعرون بالحرج من جهة، ومن جهة ثانية فإن البيت يبقى للمستقبل وللعائلة فمن يأتي إلى سورية يجد بيتاً بدلاً من الفندق.

المهم أنني لمست تضامنها وتشجيعها لفكرتنا، وكذلك (أبو نورس) الذي لم يتأخر في الرد فبعد عدة أيام من اتصالي معه اتصل معي هاتفياً لكنه بدلاً من أن يترك الهاتف لأكثر من رنتين فإنه أشّر برنة واحدة وفصل الهاتف، وكنت حينها في إحدى المشافي أترجم لفريق طبي يجري عملية قلب مفتوح وزراعة شبكة لأحد المهاجرين العراقيين في السويد، وبعد نصف ساعة عاد وأشّر ثانية فكتبت له رسالة بأنني سأتصل به عندما أفرغ من عملي.

وعندما انتهت العملية الجراحية لذلك المريض خرجت من المشفى ونظرت لحديقته المليئة بالمقاعد والورود، فشاهدت الكثير من المرضى في طور النقاهة يجلسون على تلك المقاعد بصمت ولا يوجد قريب لهم يؤنس وحدتهم..

وذهبت بي الأفكار إلى وضع أمي وماذا عساه أن ينتظرها في سورية فيما إذا تعرضت لأي نكسة صحية واستدعت حالتها إدخالها المشفى.. ومن سيعتني بها ومن سيطعمها.. الخ، حتى وصلت إلى سيارتي وانطلقت بها عائدة إلى بيتي، وفي طريقي اتصلت هاتفياً معه حيث أجاب مباشرة قبل أن تنتهي الرنة الأولى، فسألته ما هي الأخبار واستفسرت منه عن عائلته وأولاده وأهله وعن الجو العام بدمشق، وكان سريعاً في الإجابة وكأنه كان يريد الدخول مباشرة في الموضوع الذي طلبته منه.. أخبرني بأنه راجع عدة مكاتب عقارية بدمشق وأن أفضل الخيارات هي منطقة المزة لكن أسعار البيوت مرتفعة وكذلك إيجارها، وأضاف أنه لم يذهب بمفرده وإنما برفقة المحامي نضال النقري، وأرسل صور الشقق الشاغرة التي شاهداها وكانت متنوعة المواصفات، فالشقة التي كانت تعجبني تكون في الطوابق الأخيرة فلا تتناسب ووضع أمي في حال انقطعت الكهرباء والشقة التي في الطابق الأول أو الثاني تبدو صورة أثاثها مهترئة..

ودخلنا يومياً في هذه الدوامة من البحث وإرسال الصور وكنت أشعر أحياناً أنه يريد أن أعتمد وأستقر على رأي.. وأعتقد أنه في تلك الفترة تسبب في رفع آجار المنازل بتلك المنطقة لكثرة ما شاهد من شقق فارغة وأرسل صوراً لها فكان يترك أمر إقناعي بصلاحية الشقة إلى المحامي نضال، ولأكثر من شهرين بقيت الأمور على هذا المنوال إلى أن أخبرني ذات مساء بأنه وجد شقة فارغة بالطابق الثالث من بناء مواجه القصر العدلي بمنطقة المزة ولا يبعد سوى

بضع أمتار عن فندق الروتانا، وأنه يوجد عدة عيادات طبية قريبة منها ومؤسسة للخضار والفواكه وصيدلية، ويوجد أمامها رصيف عريض يمكن أن تمشي عليه أمي إذا نزلت منها دون أن تتعرض لأي خطر مروري، وأرسل صورة الشقة في الطابق الثالث، وقد بدت من خلال شرفتها كامل المنطقة الجنوبية من دمشق وملاعب الجلاء وحديقة الطلائع وأوتستراد المزة. وقال: إنه دفع عربوناً لصاحبها من خلال المكتب العقاري، وإن صاحبها ومن محاسن الصدف –هكذا قال– شقيق صديقه صاحب مكتبة النوري بدمشق، وإن آجارها السنوي ستمائة وخمسون ألف ليرة سورية، وأعلمني أن صاحبها لا يؤجرها إلا إذا قبض سلفاً أجرة سنة كاملة، وأكمل الحديث هاتفياً معي المحامي نضال الذي أكد لي أنها أفضل الخيارات. فقلت: «ليكن ذلك ونتوكل على الله».

بعد أن أنهيت تلك المكالمة الماراتونية اتصلت بأخي حنا وأعلمته بما سمعته، فقال «أنا جاهز لتغطية هذا الموضوع مالياً والمهم أن نضمن راحتها، وربما وجود أخيك جميل وعائلته بدمشق يشكل عامل أمان إضافياً لها». هنا شعرت بحجم مسؤوليتي وبأنني بلا أدنى شك سأتحمل نتائج هذا القرار.

في اليوم التالي اتصلت معه وطلبت منه تأمين امرأة لتبقى برفقة أمي على مدار الساعة، وخلال عدة أيام قدم لي عدة خيارات أحلاها مُرّ: فالمرأة التي قبلت أن تقيم مع أمي في النهار لا يمكنها البقاء ليلاً، والتي قبلت أن تبقى ليلاً لا يمكنها البقاء نهاراً، والتي لديها أولاد ستحضرهم معها.. فقلت له: لماذا لا نبحث عن فتاة أجنبية ممن حضرنَ إلى سورية عن طريق مكاتب استقدام الخادمات مهما كلف الأمر.. فأوضح لي بأن أجور الخادمة الأجنبية تصل إلى مائة وخمسة وعشرين دولاراً شهرياً في تلك الأيام.. وتحتاج إلى إجراءات وطلبات وموافقات من الدوائر الرسمية. فقلت له: أرجو أن تحاول..

ولا أنكر القول إنني أوضحت له بشكل صريح أنه من الأفضل أن تكون مسيحية لأنني خشيت فيما إذا كانت مسلمة أن تصوم في شهر رمضان الكريم وهذا سيشكل عبئاً عليها وعلى أمي التي تحتاج إلى الطعام والدواء يومياً، فوعدني أنه سيبذل جهده وشعرت أنه (بلع ريقه أكثر من مرة أثناء حديثنا الهاتفي عندما أبديت رغبتي التي ذكرتها).

هذا ولم يطل الأمر كثيراً وخلال خمسة أيام اتصل معي وأخبرني أنه سأل أحد معارفه الذي كان يدير مكتباً لاستقدام الخادمات –مازلت أذكر اسمه «باهر الجعفري»– حيث أخبره بوجود فتاة أثيوبية مسيحية كانت تعمل عند عائلة في حلب، وأنها كانت تعتني برجل عاجز (مشلول) وبعد موته لم تقبل الاستمرار بالعمل عند تلك العائلة وعادت إلى المكتب الذي استقدمها إلى حلب، وأن صاحب المكتب حاول إجبارها على العمل عند عائلة أخرى لكنها رفضت لأنه لم يدفع لها أجورها وحجز لها جواز سفرها، فتركت المكتب وجاءت إلى دمشق لمراجعة الدوائر المسؤولة عن مثل هذه الحالات، وأن صاحب المكتب بحلب اتصل معه وطلب منه مساعدتها في العودة إلى بلدها بعد تجديد جواز سفرها أو تمديده... وأنه عرض عليها العمل في خدمة والده الكبير بالسن في دمشق ريثما يتم تأمين جواز سفرها فوافقت على ذلك مقابل مبلغ مائة دولار شهرياً.

وأوضح لي (أبو نورس) أنه سأله إن كان يمكنه الاستغناء عنها للعمل والإقامة مع امرأة كبيرة بالسن وتحتاج للرعاية والاهتمام، وبخاصة فيما يتعلق بإعطائها أدويتها في المواعيد المحددة ومرافقتها إلى الأسواق أو السير معها في الحديقة مقابل مائة وخمسين دولاراً شهرياً.

في اليوم التالي علمت منه بأن الفتاة هذه وافقت على البقاء سنة أخرى في سورية، واشترطت مساعدتها في استعادة جواز سفرها وتحصيل رواتبها من حلب مقابل بقائها في خدمة أمي لسنة كاملة وبالراتب الذي ذكرته (١٥٠

دولاراً). فقلت له إنني موافقة من حيث المبدأ ولكن لا تتعهد للفتاة أنه بالإمكان استعادة جواز سفرها ورواتبها وليكن جوابك أننا سنبذل جهدنا في هذا الموضوع كي لا نعدها بشيء أو نلتزم به ولا نستطيع تحقيقه فهذا حرام.

ثم اتصلت مع أخي حنا وأطلعته بشكل مفصل على هذه المستجدات فقال لي «اسمعي يا أختي هذه أمنا ومهما قدمنا لها لتأمين وتوفير سعادتها وتلبية رغبتها وتنفيذ وصيتها لا نفيها حقها، وأنا جاهز ومستعد لتغطية جميع متطلبات هذا الأمر، وقولي لـ (أبو نورس) ألا يتردد بشيء فهو الأخ السادس لنا، وسأرسل له آجار الشقة ورواتب الفتاة التي ستخدم أمنا مباشرة أو أودعها بأحد البنوك وأرسل له توكيلاً بسحب المبلغ وتسديد جميع الالتزامات المالية المطلوبة وبلغيه سلامي وأنا سأتصل به هاتفياً».

وفي مساء ذلك اليوم أخبرت (أبو نورس) بأن يتفق مع هذا الشخص ومع الفتاة بشكل نهائي وألا يورطنا بالمجيء إلى دمشق دون وجود الفتاة لأنه لا يمكنني البقاء سوى شهر واحد في حال أحضرت أمي إلى دمشق.

تحضيرات السفر

في الصباح التالي ذهبت إلى عملي وأعلمت الدوائر التي أعمل معها أنني سأتغيب عن العمل لمدة شهر وربما شهرين أو ثلاثة حيث سأرافق أمي إلى سورية للإقامة فيها، وكذلك أعلمت زوجي وابنتيَّ وأقاربي وبعض الأصدقاء، فاشتعلت النيران عند بعض الأقارب المقربين وقال بعضهم لماذا لا تضعينها بدار العجزة خلال النهار وتأخذينها ليلاً، أو لماذا لا تعيدينها إلى البرازيل وأن بإمكان (حنا) أن يوظف لها ملكات جمال البرازيل لخدمتها، وتنوعت الاقتراحات وتكررت الاتصالات، فأجبت على كل ذلك بأنني أعمل على تنفيذ وصية أمي ورغبتها لأنها كانت في كل لحظة أشاهدها تقول لي «ايمتا نروح لسورية» وكأنها كانت تستشعر بأن قطار العمر اقترب من محطته الأخيرة.

وبدأت بتحضير وتجهيز مستلزمات والدتي من أدوية وملابس وكرسي متحرك وعربة صغيرة تدفعها أمامها وتستند عليها عندما تريد المشي في الشارع أو الحديقة، وبالوقت نفسه يمكن تحويلها إلى كرسي ثابت في حال أتعبها المشي أو أرادت الجلوس، إضافة إلى الأغطية والمخدات الصحية ومراهم وكريمات الاعتناء بالبشرة وتغذية الجلد والكثير الكثير من حاجاتها ومتطلباتها الشخصية.

أثناء فترة التحضير لهذه الرحلة شاع الخبر بين جميع معارفنا وأقاربنا، والجميع أصبح لديهم علم بذلك.

كان العام ٢٠١٠ يقترب من نهايته وأذكر أن هذه الأمور كلها تمت في النصف الثاني من شهر تشرين الثاني ٢٠١٠، وقمت بشراء بطاقتي الطائرة من استوكهولهم إلى دمشق، وكان موعد وصولنا إلى مطار دمشق بالساعة ١٠.٠٠ صباح ٢٠١٠/١٢/٤.

وفي ساعة متأخرة من ليل ٢٠١٠/١٢/٣ انطلقنا من بيتي في استوكهولم إلى المطار لأن الطائرة السورية كانت تصل ليلاً وتعود إلى دمشق مع الفجر، وخلال الطريق إلى المطار سألتني أمي (ايمتا نوصل سورية) وأضافت (وديني ديريك أشوف أخي شكرو وأزور قبور أهلي)، فقلت لها: «سنكون في سورية قبل ظهر الغد ووعدتها أن ألبي جميع طلباتها».

وهكذا استمر الحديث إلى أن وصلنا المطار. وانتهت إجراءات السفر وصعدنا الطائرة السورية حيث قالت: «إيش كويسة هالطيارة». وأجلستها في مقعدها بالدرجة الأولى وجلست بجانبها إلى أن أقلعت الطائرة. فتناولنا طعام الإفطار وكانت حريصة ألا تشرب الكثير من السوائل حتى لا تضطر لدخول حمام الطائرة، وعندما كانت المضيفة تقدم لها الماء أو العصير تقول لها «لا ما بدي.. شكراً... يعمر بيتك اكتفيتو».

الوصول إلى دمشق

بعد حوالي الخمس ساعات أعلن قائد الطائرة عن دخولنا الأجواء السورية وطلب ربط الأحزمة استعداداً للهبوط وقمت بوضع الحزام لها. فقالت: «سهام ليش تربطين الحزام». فقلت لها وصلنا سورية. وبصدق أقول لقد انفرجت أساريرها وابتسمت. وقالت: «ما فيه أحلى من سورية».

وعندما لامست عجلات الطائرة مدرج المطار لم تشعر أمي بها فقلت لها: لقد وصلنا مطار الشام. فهمت أن تقوم من مقعدها قائلة: «يالله خفيف خفيف خلينا نروح البيت، إيش طيبة سورية».

بعد نزولنا من الطائرة واستلام حقائبنا بمساعدة أحد الموظفين باعتبار أن أمي كبيرة السن أجلستها على كرسيها المتحرك ورافقنا ذلك الشخص بالحقائب خارج المطار، حيث وجدت (أبو نورس) بانتظارنا، وبعدما وضعنا حقائبنا في سيارة الجيب العائدة للمحامي نضال انطلقنا باتجاه دمشق إلى أن وصلنا حي المزة وصعدنا إلى الشقة..

للوهلة الأولى لاحظت أن أثاثها غير لائق ومطبخها ضيق، لكن إطلالتها جيدة وأشعة الشمس تدخلها طيلة النهار وشرفتها جميلة واسعة وتبدو معالم النظافة واضحة عليها، وعلمت بأن ورشة تنظيف عملت ليوم كامل في تنظيفها، فشكرت لهما تعبهما لكن في قرارة نفسي لم يعجبني عمل ورشة التنظيف تلك، وبعد أن استقرت أمي على أحد الكراسي صممت على تحسين وضع الشقة ما استطعت وقمت بتغيير موقع الكراسي والطربيزات وبدأت العمل ثانية في شطفها ومسح جدرانها.

(ماريا) تصل البيت

كان (أبو نورس) يجري الاتصالات الهاتفية مع الشخص الذي وعده بإحضار الفتاة الأثيوبية وما هي إلا نصف ساعة حتى نزل من الشقة وعاد

وبرفقته الفتاة فاستقبلتها وسألتها عن اسمها فقالت (تغست)، فقلت لها: «أمي لن تحفظ هذا الاسم وسأسميك (ماريا) ليسهل لفظه عليها فضحكت»، ورددتُ اسمها هذا مراراً فشعرت أمي بالراحة وسلمت عليها، وكانت تلك الفتاة قصيرة القامة ضعيفة البنية، فقلت في نفسي لن تستطيع بمفردها الاعتناء بأمي التي يزيد وزنها عن الثمانين كغ إضافة لقصر قامتها، ولكن عندما شاهدتها تحمل الحقيبة الكبيرة من الصالون إلى الغرفة شعرت بالاطمئنان بعض الشيء، فالحقيبة كبيرة وثقيلة الوزن بينما هي بعكس الحقيبة تماماً.

في هذه اللحظات اتصل أخي حنا هاتفياً وكأنه كان يحتسب الوقت بدقة وأعطيته رقم الهاتف الأرضي، فاتصل عليه ثانية وتحدث مع أمي التي قالت له: «حنا الله يوفقك إن شاء الله تمسك التراب يقلب دهب بيديك» وسألته عن زوجته فيوليت وعن أولاده الثلاثة، وبعد أن انتهت مكالمته سألتني (سهام أين صور أولاد حنا حطيهم قبالي على الطاولة)، وكنت قد أحضرت صورتهم ثلاثتهم مع بعضهم في حقيبة يدي، لأنه عندما انطلقنا من بيتنا في السويد توجهت أمي وأخذت تلك الصورة بيدها قائلة: «يلا خفيف نروح هذه بدي آخدها معي حتى أبقى دايماً أريهم».

وكانت تحفظ أسماءهم (موريسيو ومارسيو ومارسيلو) وتضع سبابتها على وجه أحدهم إن سألتها عن اسمه وتضحك وهي تقول «تفكرين نسيتهم، قولي لحنا يجوزهم أو يجوز واحد منهم ليشوف ولادهم ونفرح فيهم».

بعد استراحة قصيرة ذهبت إلى مجمع شام سنتر التجاري في كفرسوسه واشتريت ما كان ينقص المطبخ من طناجر وصحون وسكاكين وشوك وملاعق والكثير من المواد الغذائية، وبخاصة منها السريعة التحضير والمفيدة لها.. وعدت بما أحضرته لها، فقامت معي إلى المطبخ وتفحصت جميع تلك المواد وكانت تعلق بسعادة (هاد يلزم وهاد مو يلزم ولأيش تكترين غراض)، فقلت لها:

«كل ذلك لأجلك»، فقالت: «هاد مو بيتنا إيش صابك تجيبين غراض لبيوت الناس» فشرحت لها كي تستقر مشاعرها قائلة: «إن أخي حنا اشترى هذا البيت لك لتقيمين فيه كما طلبت». هذا الكلام أفرحها كثيراً وقالت: «كويس كتير حنا اشتراه لي وأنا بكرا بدي أعطيه لك».

وأمضينا تلك الليلة نرتب أغراضنا والخادمة تجتهد في إظهار الاهتمام والعناية بوالدتي التي أحبتها كثيراً، وقد فاجأني ذلك حتى أنها نادتها وقالت لها: «تعالي اقعدي جنبي لا تشتغلين خلي سهام تشتغل وحدها» فجئت قربها وقلت لها: «ليش يا أمي بدك تقعد جنبك». أجابتني: «خليها ترتاح حرام مانك شايفتيها زغيرونة».

زيارة الطبيب

صباح اليوم التالي قلت في نفسي لن أتأخر سأصطحب أمي لعند الطبيب أو المشفى لأطمئن عليها وأجري لها التحاليل من باب الاطمئنان فصحتها جيدة وعندها زيادة في وزنها. وصادف ذلك أن اتصل معي أحد أصدقاء أخي كبرائيل وعلمت منه بأن أخي اتصل به وأعلمه بقدومنا لدمشق، وخلال الحديث سألته عن أفضل مشفى وأفضل طبيب من أجل إجراء كشف طبي شامل لوالدتي، فأجابني مشكوراً: «لا تتعذبي وتأخذيها سيأتي دكتور يفحصها في البيت».

وبعد ساعتين تقريباً اتصل معي الدكتور وسألني عن عنوان البيت وبسبب عدم وجود (أبو نورس) قلت للدكتور: بعد قليل أعطيك العنوان لأنني أعرف أنني في حي المزة ولكن لا أعرف العنوان بالتفصيل الدقيق. فاتصلت مع (أبو نورس) الذي حضر لعندنا باعتباره يقيم بمنزل قريب بالآجار، وفعلاً حضر بعد أقل من عشر دقائق، واتصل مع الدكتور وذكر له عنوان البيت، ومباشرة خرج إلى الشرفة حيث كان يتحدث من مكان لا يبعد إلا مائتي متر

عن البيت وبقي يحدثه حتى رآه ينزل من سيارته، وهكذا وصل عندنا حيث عرفنا باسمه (الدكتور هيثم بشارة). وبدأ مباشرة بإجراء الفحص الأولي من قياس الضغط والحرارة والتنفس وبعد أن أنهى عمله قال لي: «إنه يفضل أن نأخذها إلى المشفى في اليوم التالي لإجراء صور شعاعية زيادة في الاطمئنان» وكانت الساعة تقارب الرابعة بعد الظهر، فسألته هل يمكن قبولها في المشفى بهذا الوقت؟

وبناء على طلبي اتصل مع مشفى دار الشفاء حيث يعمل وأجابني أنه بالإمكان إدخالها المشفى مباشرة وهذا بالضبط ما حصل، حيث قمت بتحضيرها وتحضير ما تحتاجه من أشياء أولية وأنزلناها إلى السيارة حيث سبقنا الدكتور هيثم إلى المشفى ولحقنا به، وما إن وصلنا المشفى في منطقة العدوي بدمشق حتى بدأت الإجراءات الطبية مباشرة فسارعت الممرضات لخدمتها وقمن بتوضيب سريرها ومنهن من سحبت لها عينة من الدماء وأحضرن جهاز تصوير الإيكو لغرفتها، ثم تم إنزالها إلى غرفة الأشعة وأخذوا لها الصور المطلوبة كما قاموا بإجراء تخطيط لقلبها، وقد ضحكت قليلاً عندما نادتني بقولها «سهام ايش يعملون لي كل هالفحص ليش إيش فيني أنا»، فأجبتها أنني أريد الاطمئنان على صحتها ولا شيء آخر.

وخلال ساعة أو أقل أجمع رأي الأطباء على ضرورة بقائها في المشفى لأنها تعاني من احتباس السوائل بكميات كبيرة، وهكذا وضعوا لها القثطرة البولية، وفي ذلك الوقت اقترح أحد الأطباء أن أعيدها للبيت وبأنه يمكن للممرضة أن تذهب عندها مرتين في اليوم فلم أوافقه الرأي وطلبت بقاءها بالمشفى زيادة في الحرص على صحتها.

بقيت ومعي الخادمة برفقة أمي في مشفى دار الشفاء، حيث استغرب الأطباء الذين قاموا بالفحوص والتحاليل الطبية عندما أخبرتهم أنني وصلت

برفقة والدتي من السويد قبل عدة ساعات، وكان استغرابهم بسبب كمية السوائل المحتبسة في جسدها لأنني أخبرتهم بأنها خضعت لفحوص طبية كاملة في المشفى بالسويد. لقد كانت العناية الطبية والتمريضية أفضل بكثير مما يلقاه المريض في مشافي السويد وهذا أمر لا أنكره فقد رأيته بأم عيني.

في صباح اليوم التالي طلب الدكتور إعادة بعض أنواع التحاليل وكشف عليها وأعطى تعليماته للممرضات اللواتي قدمن أفضل خدمة وبكل محبة واحترام، وكنّ يحدثن أمي ويسألنها عن أولادها وعن البلاد التي سافرت إليها وكن يضحكن عندما تجيبهن بلهجتها (الاسخينية) وعفويتها، وكثيراً ما كنت أفسر لهن بعض المفردات التي لا يعرفن معناها أو التي لم يسمعن بها سابقاً لقد تعاملن معها وكأنها والدة إحداهن – فلهن شكري الدائم –.

إضافة لذلك كن يقدمن لها وجبات الطعام بمواعيدها مع وجبة إضافية لـ (ماريا)، وفي المساء جاء عدد من الأصدقاء الذين علموا بوجودنا في المشفى، وكان الدكتور هيثم يعيد فحصها صباحاً ومساءً للاطمئنان عليها.

وهكذا بدأت حالتها بالتحسن ومرت الساعات والأيام سريعة ولن أنسى حضور شخص محترم عرفته من خلال (أبو نورس) وأعني محمد الأحمد (أبو رامي)، الذي جاء لزيارتنا في المشفى مع ابنه ربيع وأحضرا معهما حوض نبات زينة مزروعاً فيه أحد أنواع نبات الصالون (وقد نقلته إلى الشقة، والعجيب أن هذه النبتة بقيت خضراء عند أمي في الصالون حتى آخر يوم بقيت فيه أمي في ذلك البيت).

وبنهاية الأيام الأربعة تحسنت حالة أمي الصحية كثيراً وانخفض وزنها أربعة عشر كيلو غراماً، وهذه الكمية هي كمية السوائل التي كانت محتبسة في جسدها، فأعدتها إلى البيت وكانت بكامل نشاطها حتى أنها كانت تنزل الدرج من الطابق الثالث وتذهب إلى السوبر ماركت القريب مع (ماريا) وتشتريان

الأغراض، وكثيراً ما كانت تحب أن تشتري اللبن وتعودان للبيت، وكنت ألحق بهما حيث كانت تسلم على النساء اللواتي تشاهدهن في الطريق وتدعوهن لزيارتها في البيت. وكثيراً ما كانت تفتح باب الشقة عندما يقرع أحد عمال النظافة الباب ليأخذ كيس النفايات أو يجلب أحد الأشخاص جرة الغاز.

في اليوم الذي خرجنا به من المشفى حضرت الدكتورة بثينة للاطمئنان علينا، ولن أنسى عندما سألتُ أمي هل تعرفينها.. أجابت: «أعرفها أشوفها على التلفزيون لولا أنها تحبنا ما تجي عندنا»، وقلت لها إن اسمها (الدكتورة بثينة)، فقالت: «عرفتوها هي بتعمل وظيفتها عند الرئيس حافظ الأسد»، فقامت الدكتورة وقبلتها قائلة أنا كمان أحبك.

وعندما غادرت قالت لها أمي: «تبقوا عيدوها أنا كتير أحبك وأحب الرئيس حافظ الأسد».

وفي المساء اجتمع الأصدقاء واطمأنوا على أمي التي نامت باكراً، حيث اتصل أخي حنا ثانية بتلك الليلة وتحدث مع (أبو نورس) ومع (أبو نزيه) وبعده اتصل زوجي شابو وتحدث معهما كذلك الأمر، وهكذا في كل يوم لم يكن البيت ليخلو من الأصدقاء، وكنت قبل قدومنا لدمشق اتفقت مع زوجي شابو على أن يلحق بنا لنمضي أعياد الميلاد ورأس السنة معاً في سورية.

وهكذا كنت أمضي تلك الأيام وفي كل يوم شيء جديد فقد اصطحبتها إلى الأسواق في مدينة دمشق وبعض مطاعمها. وكان من بين الأصدقاء الذين يترددون لزيارتنا الدكتور حسين أوغلو الذي كان كثيراً ما يُحضر معه جهاز قياس الضغط لمراقبة ضغطها وتقديم النصائح الطبية اللازمة لها كمريضة ضغط.

والأمر اللطيف أنه عندما كان يأتي لعندنا كان يأخذ قياس الضغط لكافة الموجودين من الضيوف في البيت، والشيء الذي أقدره له وأكبره فيه هو رفضه

رفضاً قاطعاً قبول أي مبلغ عرضته عليه لقاء أتعابه، وغالباً ما كان يحضر بناء على اتصالنا معه، وكان يتحدث معها أحياناً باللغة التركية وهذا ما جعلها ترتاح كثيراً له وهذا شيء مهم للغاية عند مرضى الزهايمر.

وأشكر الرب على نعمائه فقد كانت أمي سعيدة ومرتاحة جداً وتعيش أحلى أيام في حياتها.. (طبعاً بعد وفاة والدي أما حياتها معه فكانت شيئاً من الخيال، فقد كانا كطائرين يرتحلان شرقاً وغرباً في مواسم الهجرة) وكثيراً ما كانت تساعدني في (لف ورق العريش وتحضير المحاشي كما أشرفت أكثر من مرة على طبخة المدفونية التي كانت تحبها كثيراً).

الاحتفال بعيد الميلاد المجيد

ولم تطل الأيام لتصل بنا إلى عيد الميلاد المجيد حيث ذهبنا إلى منطقتي القصاع وباب توما واشتريت مغارة الميلاد، وكانت كبيرة الحجم، مع كافة مستلزماتها من أشياء رمزية وأشياء الزينة من الورود الطبيعية والصنعية وإنارة الكهرباء الخاصة بها، ثم عدنا إلى البيت ووضعتها في إحدى زوايا الصالون وأشعلنا الإنارة والشموع.

وكانت والدتي تحتفظ بمسبحة بنية اللون يتوّجها صليب خشبي صغير فبدأت تصلي وتقرأ وأقرأ معها (سلام لك يا مريم). وقد توقدت ذاكرتها وتجلت كأفضل ما يكون حتى أنها قرأت قداديس الصلاة كاملة عن ظهر قلب، (وأعترف أنني لا أحفظ كل ما كانت تقرؤه) ووزعنا الشموع المختلفة الألوان والأحجام التي أحضرتها لها من السويد واشتريت كمية منها من أسواق دمشق في أرجاء البيت..

وفي صباح العيد اصطحبتها إلى كنيسة الزيتون، وكان القائمون على تنظيم الدخول يقفون في أول الحارة المؤدية إلى الكنيسة، وعندما شاهدوها كالأميرة تجلس في المقعد الأمامي سمحوا لنا بإدخالها بالسيارة إلى أمام باب

الكنيسة، وحضرنا القداس وتجولنا في ساحة الكنيسة ثم عدنا إلى البيت وبدأنا بتحضير طعام العشاء وقد دعوت غالبية الأصدقاء، وفي المساء حضر الجميع وأمضينا تلك السهرة الجميلة حيث كانت والدتي في غاية السعادة بوجود هؤلاء الأصدقاء.

أثناء السهرة وضعت لها بجهاز الفيديو شريط عرس ابنتي مليسيا وبعده شريط عرس يلدا وكانت هي موجودة فيهما، وكانت تسمي الأشخاص الموجودين في العرس ممن تعرفهم وبدت السعادة تغمرها، وقالت: «في عرس يلدا كانوا الأتراك كتيرين»، وعندما عرضت الكاميرا صورة حنا وزوجته وباقي إخوتي قالت: «شوفي إخوتك إيش كواس»، وحين شاهدت صورة أخي الصغير ممتاز نادته وأشارت بإصبعها إليه قائلةً (منتاز)، وأعتقد أنها ظنت للوهلة الأولى أنه أمامها لأن الشاشة التي اشتريتها ووضعتها في الصالون كانت قريبة منها بعض الشيء.

أمضينا سهرة ممتعة وهادئة حتى منتصف الليل، والشيء الذي لاحظته هو اهتمامها الزائد بخادمتها، لأنها ولأكثر من مرة كانت تناديها (ماريا اعبري يمي) وتجلسها قربها وتحضها على تناول الطعام بقولها «ليش موتاكلين»، وقد سألتها مرةً (إيش اسم أبوك)، فقالت لها: (ملسّا)، فضحكت كثيراً وأخذت تردده وتقول «قال مَلّسا يعني يملس»، ووضعت كفها اليمين فوق الكف الشمال في حركة مضحكة ومحببة كثيراً.

وفي اليوم التالي اصطحبتها إلى كافتريا بحي المالكي بعد الغداء وتناولنا البوظة حيث كانت تقول: «ماريا خليك جنبي».

وفي المساء حضر لزيارتنا الدكتور مروان ديب والدكتور رياض المدني (طبيب أسنان) وكانت تعرفهما سابقاً حين دعانا الدكتور مروان في سنوات سابقة على طعام الإفطار بشهر رمضان المبارك، وهو صديق وأخ محترم

وتربطه علاقة طيبة بأخي كبرييل كونه سافر سابقاً إلى البرازيل حيث استضافه كبرييل.

ثم تلقيت اتصالاً من زوجي شابو وكان يتهيأ للذهاب إلى مطار استوكهولم للقدوم إلى دمشق، وكما ذكرت سابقاً فإن موعد الطائرة السورية كان دائماً عند الفجر، فقلت له نحن في انتظارك. وبعده اتصل أخي حنا وتحدث معي ومعها لمدة تزيد عن النصف ساعة وكانت تسأله عن أولاده وعن إخوته وعن زوجته فيوليت، وكانت تحبها كثيراً وتصفها كثيراً وبخاصة في مجال الطبخ وتحضير المائدة، وكانت تقول «زوجة حنا فيوليت تعمل أكل لمئة شخص وما في أشطر منها بالطبخ وشو أكلها كويس وطيب».

شابو إلى دمشق

في اليوم التالي اتصلت مع الأخ (أبو نورس) وأخبرته بأن زوجي شابو سيصل مطار دمشق ظهراً قادماً من السويد، ثم نزلت من البيت برفقة أمي و(ماريا) وذهبنا إلى مؤسسة الخضار والفواكه واشترينا ما نحتاجه من أغراض، ثم عدنا إلى السوبر ماركت واستكملنا شراء ما نحتاجه من مواد تنظيف للأرض والملابس وعدنا إلى البيت، واتصلت مع (أبو نورس) لأذكره بموعد المطار فقال إنه بالطريق إلى المطار ولم أعد أذكر من الشخص الذي كان برفقته. ولن يكون سوى أحد اثنين (أخي جميل أو المحامي نضال) وليس هذا محل خلاف فعلى موعد الغداء وصل شابو، وأذكر أنه عندما دخل البيت كانت أمي تجلس مقابل الباب في الصالون، فقالت: «سهام ها إجا شابو».

وصادف حينها وجود الدكتور حسين أوغلو الذي كان يأخذ الضغط لها حيث دار حديث بينه وبين شابو باللغة التركية، باعتبار الدكتور حسين من لواء اسكندرون وزوجي سرياني تركي، وأخذ قياس ضغط شابو وقال له «ضغطك مرتفع ولازمك فوراً دواء خافض للضغط»، فارتفع على ما يبدو

ضغطي وطلبت منه قياسه فتبين أنه مرتفع كذلك الأمر، فضحك شابو قائلاً «جينا ما فينا شي... جينا هون تمرضنا» فرد عليه الدكتور حسين بأن هذا الارتفاع ليس طارئاً وإنما منذ فترة ليست بالقصيرة معه، وطلب منه الذهاب صباح اليوم التالي لإجراء تحاليل لأنه شك بأنه يعاني من ارتفاع السكر بالدم، بينما أمي كانت تسأل شابو عن الأولاد وعن السويد وعن أخيه عزيز وأخيه مراد.

ومن الظريف أنها استشبهت بالدكتور حسين بأنه أحد أبناء جيراننا سابقاً في المالكية، فكانت تقول عندما يدخل من الباب «جاء ابن بولسكي» حتى أنها سألته في أول مرة شاهدته فيها عن أهله وإخوته على أنه من عائلة بولس.

وكذلك الحال بالنسبة للمحامي نضال فقد استشبهت به أنه من عائلة (موسى شمو) في المالكية، وكانت في كل مرة تشاهد أحدهما يشتبه عليها هذا الأمر حتى أنهما اجتمعا عندها أكثر من مرة وكان يضحكان، فيقول لها المحامي نضال أنا ابن موسى شمو وهذا ابن بولسكي، وبشكل لا يلفت انتباههما كانت تؤشر للخادمة أن تأتي بالفواكه أو تحضر القهوة لهما أو للضيوف الذين كانوا يأتون لزيارتها، وأحياناً تناديها وتسألها (أشو قلتين اسم أبوك –مَلَسّا– وتضحك وتضع كف يدها اليمنى فوق يدها اليسرى وتحركها فوقها وتقول مَلسّا.. ملسّا وتضحك من صميم قلبها)، وكانت هذه الحركة التي تقوم بها تزعج (ماريا) أحياناً وهذا كان واضحاً بردها عليها حين كانت تقول لها «وشو يعني هو عندنا في أثيوبيا اسم حلو» فتعود وتقول «ملسَّا.. ملسا.. وتضحك».

في صباح اليوم التالي ذهب شابو إلى (مخبر القطرنجي) وأجرى تحليلاً تبين بموجبه ارتفاع نسبة السكر لديه، وعندما شاهده الدكتور حسين ظهراً كتب له على الدواء اللازم (خافض ضغط وخافض سكر)، وكذلك الحال بالنسبة لي حيث بدأت بتناول الدواء الذي وصفه ومازالت حتى الآن.

كنت حريصةً أثناء مرافقتها خارج البيت على أن ترتدي أفخم أنواع الثياب وأرقاها، حتى أن المعطف التي كانت ترتديه عندما تنزل من البيت لتمشي في الحديقة أو على الرصيف، كان يلفت نظر النساء اللواتي يلتقينها في الطريق، وقد أخبرتني أن بعض النسوة كن يستوقفنها ويسألنها عن المعطف وكم ثمنه ومن أي محل اشترته.

وكان شابو في تلك الزيارة يلعب أحياناً بطاولة الزهر التي أحضرها أخي جميل (الذي كان مقيماً في دمشق في ذلك الوقت وغادر إلى البرازيل لاحقاً) وكنت أنزل مع شابو كل صباح باكراً إلى مدينة الجلاء الرياضية التي لا تبعد إلا مائتي متر عن البيت. ولم يبخل علينا الأصدقاء الذين ذكرتهم في زياراتهم لنا وفي حال عدم مجيء أحدهم كان يتصل بنا هاتفياً. ولا أذكر أن يوماً مرّ علينا دون أن أرافق فيه أمي إما إلى السوبر ماركت أو المطعم، وأحياناً ما كانت تأتي لعندنا هبة شقيقة الكابتن مهاب ووالدتها (أم مهاب) صباحاً أو مساءً وهما بطريقهما إلى مدينة الجلاء أو بطريق عودتهما، وكانت أمي تفرح بهما جداً.

وفي إحدى المرات كنت أستعرض مع هبة بعض الصور الشخصية التي كنت ألتقطها في أي مكان أرافقها إليه، وصوراً في البيت والمطعم والحديقة والمشفى فتركت جهاز (الآيباد) بيد هبة وذهبت إلى المطبخ لإعداد القهوة، وعندما شاهدتها أمي تمسك بالجهاز قالت لها: «هذا لسهام ايشو تعملين فيه»، وبعدما غادرت هبة البيت نادتني أمي وقالت: «سهام لا تبقين تعطيها هذا وتتركيها وحدها خاف تكون تفتش فيه متل المخابرات (البوليس)، بعدين تتّضرّين، أو أقلّك نحنا بنحب الرئيس حافظ الأسد وبنحب سورية يعني شو بدها تلاقي فيه»، فضحكنا وقلت لها: «لا تفكرين ولا تخافين هبة بنت كويسة وتحبنا».. فقالت: «شو فيها إذا نخطبها لأخوك أو لواحد من أولاد حنا».

عشاء رأس السنة

في ليلة ٢٠١٠/١٢/٢٩ التي تصادف عيد ميلادي دعانا (أبو نزيه) و(أم نزيه) ودعا معنا (أبو نورس) و(أم نورس) على الغداء في المطعم التركي، وقد فاجأني بذلك عندما قدموا على الطاولة بعد الغداء قالب الكاتو مع الشموع وأدار شيف المطعم الموسيقا والأغنية الخاصة بعيد الميلاد، وكانت بحق دعوة رائعة أحتفظ بذكراها في نفسي وأقدرها دائماً.

وفي اليوم التالي بدأت بالتحضير لسهرة رأس السنة وكنت قد اتصلت مع (أبو إبراهيم وزوجته) إلى مشتى الحلو قبل يومين من نهاية العام ودعوتهما للحضور.

وفي ليلة رأس السنة بدأ الأصدقاء بالحضور حتى اكتملنا قرابة العاشرة ليلاً «..(أبو نورس) وزوجته وأولاده وأخي (جميل) وعائلته و(أم مهاب) وأولادها و(أبو إبراهيم) وعائلته..» أمضينا سهرة لطيفة فكان عشاءً مميزاً وكانت أمي فرحة ومرتاحة ومبتسمة ومرحبة بالضيوف كعادتها، وزادت سعادتها بالاتصالات الهاتفية من بعض إخوتي في البرازيل حتى أنها رقصت وتمايلت مع الشباب والصبايا وبخاصة أشقاء هبة فكم كانوا ممتعين بحضورهم مميزين بغنائهم وانسجامهم.

في اليوم التالي اتصلت مع ابنتيّ يلدا ومليسيا واطمأنيت عليهما وكانت مليسيا قد أوصت والدها أن يشتري له بعض الأغراض الخاصة بتصفيف وتزيين الشعر، لأنها افتتحت غرفة في منزلها وأتقنت هذه المهنة حتى أصبح لها شهرة كبيرة في استوكهولم، فأوصتني أن أشتري لها (الحباسات الخاصة لعملها «الشكلات»).

وفي اليوم التالي اصطحبت أمي إلى الكنيسة الكائنة في الحارات القديمة بباب توما (كنيسة حارة الزيتون) بينما ذهب شابو و(أبو نورس) إلى منطقة الحريقة وسوق الحميدية ليتسوق بعض الأغراض.

في المساء ذهبنا جميعاً إلى المول الكبير الكائن خارج دمشق على طريق دمشق درعا (تاون سنتر) وتجولنا بداخله وتناولنا العشاء في أحد المطاعم بالطابق الثالث أو الرابع منه، كانت أمي سعيدة ورشيقة في مرافقتنا، وبخاصة عندما دخلنا إلى أفران شمسين وبعدها أفران تفاحة وشاهدنا من إحدى نوافذ البلور كيف تتم عملية تحضير الخبز، ولفت نظرها شكل الرغيف منتفخاً يتوالى مروره فوق السير المعدني الآلي، حيث لاحظ أحد العاملين أنها تنظر إلى الأرغفة متتابعة وراء بعضها بعضاً فتناول من إحدى النوافذ رغيفاً طازجاً أعطاه لها، وكان ساخناً لم تستطع الإبقاء عليه في يدها فأخذته منها ولم يطل عمره في يدي فقد وزعته مباشرة بينها وبين شابو وماريا و(أبو نورس) فأعطانا رغيفاً آخر، فشعرت بالإحراج وتوجهت إلى مكان البيع واشتريت عدة ربطات مختلفة الأحجام ثم عدنا إلى البيت، وقد قالت أمي: «أعطِني من هذا الخبز أيشو طيب».

في اليوم الثاني دعوت (أبو نورس) وعائلته إلى الغداء في المطعم التركي قرب حديقة الجاحظ، وكان هذا المطعم مشهوراً في دمشق لأنه عندما كان يجلس رواده حول الطاولة كان العاملون فيه يضعون علم الدولة التي يكون الحضور من رعاياها عرباً كانوا أو أجانب، حينها وضعوا على طاولتنا العلم السوري والعلم السويدي، فقال (أبو نورس) لهم إن (أم حنا) تحمل جنسية برازيلية فأحضروا لها العلم البرازيلي.

وكما يقال فالأيام لا تنتظرنا وهي سريعة في تواليها وقد لاحظت بذلك الوقت أن الخادمة ستكون متعبة لوحدها فطلبت من (أبو نورس) تأمين فتاة ثانية تساعدها وتبقى معها فالبيت يتسع لهما وقلت لأجرب هذا الأمر بوجودي، وذلك بسبب ما كنت أفكر به (إن اتفقتا مع بعضهما أو اختلفتا فهذا بلا أدنى شك سيؤثر سلباً على أمي).

كما أنني اتصلت مع أصدقاء في القامشلي والمالكية وحصلت على رقم هاتف شخص من أكراد القامشلي يقيم في ريف دمشق قرب قدسيا، وعلمت أنه لا يمانع بأن تعمل إحدى بناته وتنام عند أمي فأعطيت رقم الهاتف لـ (أبو نورس) الذي تواصل معه، ولم يطل الأمر فقد جاء هذا الشخص ومعه ابنته في العشرينيات من عمرها، واتفقنا مع والدها حينها أن تعمل عندنا لمدة شهر فإما تستمر وإما تترك. فلما رأتها (ماريا) لم يرق لها الأمر، (وقد أقدمت على ذلك بعدما عبّرت أكثر من مرة بأنها تشعر بالتعب، فقلت لها سأحضر فتاة ثانية) ووضعت في حسباني أنه فيما لو قالت ستترك العمل ستكون البنت الثانية قد تعلمت ما تحتاجه أمي من أطعمة ودواء، والغريب في الأمر أنه عندما جاءت هذه الفتاة شعرت بالامتعاض وكأنها ضرة لها.

ومنذ اليوم الأول لوجودها بدأت ألاحظ التقاعس في عملهما فكل واحدة تحاول أن تترك شيئاً للثانية، وبدأت أدربهما على طريقة تنظيف البيت ومواعيد إعطاء الدواء وأنواع الطعام الذي يناسب أمي، وكل ذلك كان مقبولاً وقد بدأتا بالتقاط هذه التعليمات، لكن المفاجأة أن الفتاة الجديدة لا تنام حتى يبزغ الفجر وهي متابعة جيدة لكل مسلسلات وأفلام الشاشات الفضائية، ويمكنها توليف المحطات والتبديل بين الأقنية والبحث عن القنوات الجديدة والربط مع أقمار البث الفضائي، ولا تأكل الكثير حتى كنت أخاف أن يصيبها مكروه لقلة طعامها الذي اقتصر على اللبن، وهذا ما كان يزعج (ماريا) كثيراً.

وبعد أسبوع قلت لـ (أبو نورس) ما هذه البلية التي وقعنا بها؟ ولم يتأخر حتى أخبرني بعد يومين أنه اتصل مع والدها وأحد أقاربها ليعرف شيئاً عن طباعها، حيث أخبره أحد أقاربها بأنها تعاني من مشكلة نفسية وأنها حاولت الانتحار مرتين، وعلى أثر ذلك قلت له اتصل مع أبيها يأتي ليأخذها، وعندما حضر والدها في اليوم التالي سأله عن حالتها النفسية

والصحية معاتباً له لماذا لم يخبرنا بحالتها، وأفهمه أنها إذا انتحرت عند (أم حنا) أو ألقت بنفسها من الشرفة فسنتحمل مسؤولية جزائية؟ والمفاجأة الأكبر! أن والدها أجابه قائلاً: «لا لا حتى لو انتحرت عندي غيرها وما بدنا شي وقال غداً آتي وآخذها».

فقلت له لن تمشي خطوة خارج البيت إلا وهي معك فأخذت أغراضها وأعطيتها أجرة أسبوعين وذهبت برفقة والدها وكفانا الرب شرها.

في هذه المرحلة أخذت أمي لمراجعة الطبيب أكثر من مرة وكانت والشكر للرب بأفضل حالاتها، حتى أن أحد موظفي مخبر القطرنجي للتحاليل الطبية كان يحضر مرتين في الشهر إلى البيت ويسحب لها عيّنة من الدم ويأخذها للتحليل، ثم يأتي الدكتور حسين أو الدكتور هيثم لقراءة نتيجة تلك التحاليل، وكثيراً ما كان أحدهما يُعدل بنوع الدواء الذي تأخذه إما بتقليل أو بزيادة أو إلغاء، ولا أنسى أنها كانت تنزل إلى الصيدلية القريبة من البيت (صيدلية سلمى) لشراء الدواء، فسألتها إحدى المرات (أين تروحين مع (ماريا) فقالت رايحين عند سلمى نشتري الدوا ونشم الهوى).

وبعد مغادرة تلك الفتاة الكردية شعرت (ماريا) بالاستقلال واجتهدت كأحسن ما يكون بل وبرعت في حفظ أنواع الأدوية التي كانت تتناولها المرحومة، وتعلمت الكثير من فنون الطبخ وتجهيز وتحضير المائدة، وفي هذا الوقت بدأت تكرر تذكيرها لنا بأن أغراضها بقيت في حلب مع جواز سفرها وراتبها عند صاحب المكتب الذي استقدمها وكانت تبكي أحياناً فشعرت بالشفقة عليها، وقلت لشابو ولـ (أبو نورس) يجب أن نذهب إلى حلب ونحاول أن نأتي لها بأغراضها وبجواز سفرها وإن أمكننا تحصيل أجورها ووعدتها بذلك، فقال شابو: «شو عليه بنروح لكن هيك عم نتعّب (أبو نورس)».

الرحلة إلى حلب

لقد تفاجأ الجميع بأنني سأذهب إلى حلب من أجل الخادمة فقلت لهم إنها إنسانة طيبة وهي ستكون وفية وصادقة في خدمة أمي عندما ترى أننا عملنا ما بوسعنا لمساعدتها، وقد وعدتني أن تبقى لنهاية العام إذا أحضرنا لها جواز السفر وأغراضها وهذا ما شجعني على القيام بهذه الخطوة في ذلك الوقت.

وكما يقول المثل (لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد) عرضت فكرة الذهاب إلى حلب على هبة أخت الكابتن مهاب فقالت: «وأنا أذهب معك ويذهب معنا أخي محمد»، ثم أخبرت (أبو نورس) فقال: «بنروح لكن ليش هالعذاب ويمكن أن ننظم لها ضبطاً بفقدان جواز سفرها وتأخذ بدلاً من ضائع من سفارة بلدها في بيروت»، فأجبته نحن وعدناها أن نذهب ونحاول إحضار جواز سفرها، فوافق على الذهاب معنا وشجعه شابو الذي كان يحب أن يشاهد حلب وحمص وحماة وهكذا تم الاتفاق على السفر صباح اليوم التالي، حيث جاءت هبة وشقيقها محمد بسيارتهم وانطلقنا باكراً باتجاه حلب وبقيت (ماريا) مع أمي في البيت، وصلناها قرابة الحادية عشرة صباحاً وتوجهنا مباشرة إلى المكتب بعد أن أجرينا عدة اتصالات هاتفية. حيث وجدنا عاملين اثنين في المكتب فعرفناهما على أنفسنا وتحدثنا معهما فقال أحدهما إن صاحب المكتب (هربان) من وجه الناس ومن الشرطة، فأكد عليه أن يتصل به وبأننا لن نبرح المكتب حتى نأخذ حقيبتها ورواتبها المتبقية بذمته، وبعد أكثر من ساعة أحضروا لنا حقيبة فقلت الحمد لله هذه واحدة، وبعد أخذ ورد واتصالات متكررة بين العاملين في المكتب دفعوا لنا مبلغ مائة دولار لكن جواز سفرها لم يظهر معهم وقدموا وعداً أنهم سيرسلونه في حال عثروا عليه إلى دمشق، وتعهد الشخص الذي أحضر (ماريا) بدمشق (هاتفياً) أن يأتي بجواز سفرها من صاحب مكتب حلب، وقال إنه تكلم معه وأكد له أن جواز سفرها بحوزته وليس مع عمال المكتب لكنه موجود خارج حلب وسيرسله إليه لاحقاً.

صادف وجودنا في حلب أن بطريرك السريان (زكاعيواظ) بطريرك السريان وصل إليها في زيارة رعوية فقلت للمجموعة: ما رأيكم بالذهاب إلى الكنيسة لنسلم على البطريرك... فلم يعترضوا على الفكرة، واتجهنا إلى الكنيسة حيث وجدنا المئات من البشر يتحلقون حولها ويتسابقون لداخلها، وكانت الأجراس تقرع والشموع في أيدي النسوة والأطفال والصلوات التهليلية قائمة، فدخلنا بين الجموع حتى تمكنا من الوصول للساحة الرئيسية ثم عبرنا الباب ووقفنا بين الناس، وعندما حملوا البطريرك على الكرسي ارتفعت تراتيل وترانيم القداديس وقرع الأجراس توجهنا إلى القاعة الكبيرة في الطابق الثاني حيث جلس البطريرك وبجانبه المطران يوحنا إبراهيم، وبالرغم من الازدحام الشديد فقد نجح المنظمون لهذا الاستقبال من ترتيب الأمر وانتظمت الجموع بالدور حتى دخلنا القاعة وأخذنا مقاعدنا، وبدأت النساء والرجال بالسلام عليه حتى جاء دورنا فسلمنا عليه وأكلنا المناولة المقدسة، وكانت هبة أكثرنا سعادة وحماسة واندفاعاً للسلام على البطريرك.

وقد دعانا المطران يوحنا إبراهيم (ربنا يكون معه ويساعده في الخلاص من أيدي المجرمين الإرهابيين) فاعتذرت له ثم غادرنا الكنيسة، وكنت قبل دخولنا مدينة حلب قد اتصلت مع الصديقة ليلى جمعة وأخبرتها أننا في حلب من أجل جواز سفر (ماريا) وأغراضها، فأكدت دعوتها لنا على الغداء في المطعم، وبعد مغادرتنا الكنيسة اتصلت بها وكان الوقت عصراً وقاربت الساعة الخامسة بعد الظهر، فالتقينا بها وكانت ابنتاها ريحان وفايا وشقيقها ثائر وزوجته حيث تناولنا طعام الغداء... كنا في عجلة من أمرنا لأننا نريد العودة إلى دمشق وهذا ما حصل حيث ودعناهم واتجهنا إلى دمشق، وفي الطريق توقفنا بعد حمص بقليل ودخلنا المول (مجمع تجاري) وتجولنا فيه لأكثر من ساعة واشتريت بعض الأغراض وتناولنا القهوة ثم أكملنا الطريق إلى دمشق التي وصلناها قرابة منتصف الليل.

العودة مع الحقيبة

بوصولنا البيت شاهدت (ماريا) حقيبة ثيابها بعد طول غياب فتبسمت لها وتناولتها بحرص وكأن بداخلها كنزاً ثميناً ودخلت غرفتها لتطمئن على محتوياتها، فقلت لها «طلعيها على البلكون أحسن يكون فيها شي فارة لأنها كانت بالمستودع»، فاستيقظت أمي عند دخولنا البيت ونادت (سهام تعالي عندي فدخلت غرفتها وجلست قربها على السرير وقبلتها لأنها قالت سهام تعالي أبوسكي)، وسألتني: (أين كنت ما رأيتوك اليوم أنا اشتقتولكي.. فأخبرتها أننا ذهبنا إلى حلب واستعدنا حقيبة ملابسها و١٠٠ دولار)، فقالت: «الله يوفقك ويحميك كتير كويسو كتير كويسو».

بعد ثلاثة أيام من رحلة حلب قال شابو إنه سيعود إلى السويد، وكان قد أتم شراء ما يحتاجه من أسواق دمشق..

كان موعد طائرته حوالي منتصف الليل فأوصلناه إلى المطار، بينما بقيت عند أمي لمدة أسبوع بعد سفره، وخلال ذلك الأسبوع أخذتها عدة مرات إلى المجمع التجاري تاون سنتر وشام سنتر وإلى الكنائس بمنطقة باب توما وإلى شارع الحمراء بدمشق وشارع أبو رمانة ومنطقة الشعلان التجارية وباب توما والقصاع، وأتممت لها شراء ما تحتاجه من ملابس شخصية، وأدوات للمطبخ ومواد تموينية أخرى، وكان من اللازم أن نأخذ أمي إلى صالون الحلاقة لحلاقة وصبغ شعرها القصير، فقال (أبو نورس): «ولماذا نأخذها إلى الصالون خلينا نجلب الصالون لعندها». وهذا ما حصل حيث اتصل بالحلاق مصطفى الذي يستثمر صالوناً لحلاقة السيدات في فندق الميريديان بدمشق (داما روز حالياً)، الذي حضر وبرفقته فتاة تساعده وبقي لمدة ساعتين مع الفتاة حيث قام بقص شعرها وتولت الفتاة صباغته، وكانت أمي تحدثهما عن البلاد التي سافرت إليها وعن أولادها، وقالت لتلك الفتاة: «أنت كويسة وشغلك

حلو لازم تجين عندي دايماً تساويلي شعري وتصبغيه ولا تخافين أنا بخير وبصحة جيدة ومعي مصاري بعطيك أجرتك»، وضحكت معهما، وبعد أن أنهيا عملهما أرادا المغادرة ولم يقبل مصطفى أن يأخذ أجرة الحلاقة والصباغ لولا أنني وقفت أمام الباب ومنعته ومعه الفتاة من الخروج حتى دفعت له أجرته، والحق يقال إنه من الأشخاص المهذبين اللطفاء الذين عرفتهم بدمشق فكنت أذهب لقص شعري عنده في كل مرة آتي بها إلى سورية.

وصولي إلى السويد واطمئناني على أمي

بعد أن أمضيت الأسبوع الأخير مع أمي اتصلت بالسيد إياد الذي يعمل في شركة الطيران السورية ومن خلاله أكدت موعد سفري إلى السويد، وغادرت دمشق بالموعد المحدد حيث وصلت السويد عند الفجر.. حيث كان شابو بانتظاري، وبالطريق إلى البيت قلت له: «ليتني بقيت مع أمي أسبوعاً آخر» فضحك وقال «بعدنا عند المطار أرجوك ترجعين».

لم يغب عن ذهني للحظة واحدة كيف سيكون المستقبل وما يمكن أن يحدث معها في غيابي، فكنت أشعر أحياناً بضيق النفس من هذه الحالة، بالرغم من أنني أشعر بقرارة نفسي أنني جهدت ما أمكنني لتلبية رغبتها وتنفيذ وصيتها.

بعد أن أمضيت عدة ساعات في البيت اتصلت بالهاتف الأرضي وتحدثت مع أمي التي كانت تتناول طعام الغداء حيث قالت لي: «سهام لا تتأخرين عني كتير تعالي لعندي خفيف»، فبكيت ووعدتها أن أعود لعندها وقلت لها: «أمي أنا وصلتو السويد ولازم أشتغل وروح للعمل حتى أطلّع مصاري وآجي عندك»، فقالت: «لا تقلقي أنا معي مصاري وهلق اتصل مع حنا يبعتلك مصاري وضحكت».

والأمر الذي أحب أن أذكره ولا أغفله أبداً هو أنها في كل مرة كنت أرافقها إلى الأسواق أو الطبيب أو المشفى أو المطعم، وعندما أقدم لها ما كنت

أشتريه لها كانت ترفع يديها وتقول «الله يوفقك يا حنا إن شاء الله التراب يصير بإيدك دهب»، فأقول لها «أمي أنا أتعذب وأروح عندك واشتريلك كل شي وأنا دفعتو مصاري أكثر من حنا وأنت أول شيء تدعين»، فقالت: «حنا هو – الكبيروي– لولا حنا كلكم ما بتسوو شي».

وبعد أن اطمأنيت عليها عدت لتذكير الخادمة مراراً بالدواء حيث سمعت جرس البيت فاستأذنت لترى من يدق الجرس وأوصيتها أن تنظر من العين الساحرة أولاً، وسمعتها تضحك وعادت إلى الهاتف وقالت: «ماما ماما هادا عمو»، وبعد أن أوصيتها أن تنتبه على مواعيد الدواء أكملت الحديث معه ولكثرة ما أوصيته قال لي: «لا تخافي لن أتركها وكل يوم سأكون عندها وهي بمثابة أمي»، فقلت له سائلة: «هل يمكن أن تصنع معروفاً وتبحث إمكانية تركيب كاميرا داخل البيت ووصلها باللابتوب وأن تؤمن اشتراك أنترنيت وبذلك يمكنني أن أراها وتراني»، فأجابني: «وهل الأمر يتطلب كل ذلك ولماذا بدك تعملين غرفة عمليات». أزعجني جوابه فقلت له: «لو كانت أمك ما كنت بتقول هالكلام». فرد عليّ ويبدو أن المهنة التي كان يعمل بها قد أعطته وأكسبته مهارة لإيجاد الحلول والتخلص من الإحراج ليجعل من يحاوره يشعر أنه المخطئ، حيث قال: «وكأنك لا تثقين أنني سأهتم بها ولا تثقين أنها ستلقى الرعاية والاحترام»، فقلت له أنا لم أعنِك وإنما القصد مراقبة عمل الخادمة. فأجابني «طيب إذا قامت الخادمة بإغلاق اللابتوب أو قطع شريط الكاميرا أو قالت لك الكهرباء مقطوعة»، وتخلص من هذا الحديث بأن قال: «لا يهمك سأعمل على تأمين الأنترنيت ويمكن أن تشاهديها وتحدثيها وتعلميها استخدام اللابتوب». فأجبته ليش عم تسخر من الفكرة، هذه الفكرة جيدة ويمكن أن أراها وتراني إذا فتحت برنامج سكايب. وهكذا تم الاتفاق على الاشتراك بالانترنيت.

وبعد أن أقفلت الهاتف عدت واتصلت معه وطلبت منه أن يشتري خط هاتف أرضي باسمي وألا يكون اشتراك الانترنيت على خط صاحب البيت. فقال: «ليش بدك تعذبينا بهاتف أرضي والهاتف موجود والهاتف الأرضي بحاجة لأن يكون صاحب الطلب موجود شخصياً بمركز الهاتف ويلزم صورة هوية وتوقيع وبصمة»، فقلت له: «عندما أحضر إلى دمشق سأتقدم بالطلب». وأخبرته أن ابنتي (مليسيا وابنة عمها اسيريا) ستأتيان إلى دمشق في مطلع الشهر الثاني وطلبت منه السؤال عن مركز تعليم وتدريب لتصفيف الشعر والحلاقة النسائية لأن مليسيا كانت تريد أن تزيد من خبرتها في هذا المجال، هذا من جانب ومن جانب آخر لا نغيب كثيراً عن أمي فهما ستمضيان قرابة الشهر عندها وبعدهما سيأتي دوري للعودة لعندها في عيد الفصح.

في اليوم التالي عدت إلى عملي كالمعتاد وأحياناً كنت أستغل فرصة الغداء أو يوم العطلة لأشتري بعض الأغراض والملابس لها، والحقيقة عندما كنت أشتري لها الملابس من السويد كانت قناعتي (أنني لو اشتريت لها كنوز الدنيا وألبستها الحرير والديباج فلن تكون مرتاحة كما لو أننا قربها ومعها أو أن أحد إخوتي عندها، أو أنها عند أحدنا)، إضافة لما كنت أشتريه لها فقد اشتريت الكثير من الثياب والهدايا للخادمة ومن حقائب اليد والأحذية، فكنت أرغب أن أعطيها كل شيء كي لا تقصر بخدمتها في غيابنا، وهي كانت تستحق ما حملته لها من هدايا لأنها كانت وفية وصادقة في خدمتها.

مليسيا واسيريا إلى دمشق

أما بالنسبة للأغراض التي اشتريتها لأمي ولماريا فقد أعطيتها لابنتي مليسيا التي كانت تحضر ما تحتاجه لسفرها مع ابنة عمها اسيريا وأعلمتني أنهما حجزتا بطاقتي الطائرة. وفي النصف الأول من شهر شباط من عام ٢٠١١ سافرتا معاً من مطار استوكهولم وقد تم التنسيق مع (أبو نورس) الذي

استقبلهما بمطار دمشق، وبوصولهما عند أمي اتصلت مع مليسيا إلى البيت فأخبرتني بأن جدتها فرحت كثيراً عندما شاهدتها وكذلك رحبت بابنة عمها اسيريا، وسألتها عن أهلها وقالت لمليسيا: «كويس إنك تجي عندي». وكانت (ماريا) قد أعدت طعام الغداء على المائدة لأنني أخبرتها بأن مليسيا وابنة عمها ستأتيان لمدة شهر وحينها قالت مليسيا: «لقد أعدت طعام الغداء والمائدة وكأنك أنت من أعدها»...

في اليوم التالي ذهبت مليسيا وابنة عمها لزيارة أحد الأطباء حيث كانتا تريدان إجراء عملية إزالة غضروف من الأنف وبحينها تبين عدم إمكانية إجراء العملية لاسيريا بذلك الوقت، بينما كانت الحالة الصحية لمليسيا تسمح بذلك. وبدأت مليسيا تذهب يومياً لمركز تصفيف وحلاقة للسيدات كما ذهبت لعند الحلاق مصطفى في فندق الميريديان لزيادة خبرتها في هذا المجال. وعندما كانت تنهي هذا التدريب كانت تذهب إلى الأسواق وبخاصة في منطقة الحميدية والشعلان والحريقة –كما أخبرتني–وكانت تعود مباشرة بعد إنهاء أي عمل لعند جدتها، حيث تحضر لها الطعام وتهتم بها وتلاطفها وتغني معها.

وقد أخبرتني بأن جدتها حدثتها عن فرسها وقالت لها كان اسمها (سعدى) كانت تحبها كثيراً، وقد أرسلت لي الكثير من الصور مع جدتها وفي الأماكن التي تذهب إليها. ولم تغفل زيارة المتحف الحربي قرب جسر فكتوريا حيث التقطت صوراً تذكارية بداخله، وعند المساء تجلس مع جدتها تستمع إلى حكاياتها الشيّقة.. وتتحدث معها كثيراً كي تساعدها على تذكر بعض القصص والنوادر التي عايشتها في حياتها. وتلعب معها بورق الشدة (لعبة أوغلان).

بداية المشاكل في سورية

بعد أسبوع من وصولهما دمشق عادت اسيريا إلى السويد وبقيت مليسيا عند جدتها تتابع عملها وتدريبها.

وبتاريخ ٢٠١١/٢/١٧ ذهبت كما أخبرتني برفقة (أبو نورس) إلى منطقة الحريقة من أجل شراء مستلزمات عملها، وكان ذلك بحدود العاشرة والنصف صباحاً وبوصولهما مدخل الحريقة لاحظت حصول مشادة واشتباك بالأيدي بين أحد عناصر شرطة المرور وأحد الشباب الذي نزل من سيارته بمدخل الشارع، فتوقف السير ما أدى إلى ازدحام مروري.

ولم يستغرق الأمر خمس دقائق حتى تجمع الناس بأعداد كبيرة –كما أخبرتني– وبدؤوا يلتقطون الصور، حيث حضرت دورية لشرطة المرور لتسوية الإشكال الذي افتعله ذلك الشاب مع زميلهم وكما فهمت بلحظة الحدث عندما اتصلت مع (أبو نورس) لأطمئن عن مليسيا، وسمعت حينها الهتافات التي كانت بأصوات عالية، فأخبرني أن هذا الحادث مفتعل ومدبّر، وبعد أقل من ساعة تناقلت وسائل الإعلام الدولية صور هذا التجمع وتلك الهتافات، وقد حضر إلى المكان وزير الداخلية السوري لاحتواء الموقف.

وقد عبّرت مليسيا عن رأيها بقولها: «عمو هذه المشكلة هي بداية للمشاكل التي ستحصل في سورية». والغريب أنها لم تلتقط أي صورة لهذا التجمع والحادث الذي شهدته حيث أضافت «عمو لا داعي للصور وما رأيناه هو عنوان وبداية الأحداث في سورية»، ولكونها قد أنهت دراستها التخصصية كمدرسة للإعلام، فقد أدركت أن وسائل الاتصال والكاميرات الحديثة ستوزع الصور بعدما شاهدت أشخاصاً قاموا باعتلاء أسطح الأبنية المشرفة على المكان يلتقطون الصور ويسجلون بكاميرات حديثة هذا الحادث.

وأخبرتني بأنها أكملت طريقها إلى المحلات التجارية واشترت ما تحتاجه لعملها ثم عادت إلى البيت فكررت اتصالي معهما وقلت له لا تستهينوا بما حصل وأنا أعتبره الشرارة الأولى لما سيحدث لاحقاً وستتسارع مثل هذه الحوادث لتوفير الجو العام والمناخ اللازم لاشتعال النار كما حصل في تونس وليبيا.

وخلال وجود مليسيا عند جدتها أجرت عملية جراحية لإزالة غضروف من أنفها وسافرت إلى مشتى الحلو مع (أبو نورس) وزوجته وعادوا إلى دمشق باليوم نفسه، وقد تحسنت لغتها العربية المحكية خلال تلك الفترة وهذا ما كنت ألاحظه عندما أتحدث معها.

بقيت قرابة الشهر عند جدتها وبعدما استكملت تدريباتها ذهبت إلى محل لبيع أدوات الحلاقة في الشعلان وأوصت على كرسي كبير تم إرساله لاحقاً إلى السويد. وبعد ذلك بعدة أيام توجهت إلى المطار وبعد دخولها إلى قاعة الميزان والتشييك على أغراضها سألها أحد الموظفين عن العلب التي معها وفتح إحداها، فقالت له: «عمو هذه حباسات اشتريتهم من سوق الحميدية». فقال لها: «ليش ما فيه شكلات بالسويد». فأجابته: «أنا أحببت أن أشتريها من سورية وإذا عجبوك يمكنك أن تأخذ واحدة». وفعلاً كما حدثتني أخذ علبة من الحباسات فبدت علائم الدهشة والاستغراب عليها ولم تصدق أنه سيأخذ العلبة، وقالت لي: «إنها مشت قليلاً» والتفتت إليه ليعيدها فقال لها: «ياالله امشي عجبتني بدي آخدها» فتركته وأكملت طريقها إلى الطائرة وهي تحتفظ بذاكرتها بهذه الحادثة للتندر والضحك لكنها وبلا أدنى شك ساءها هذا التصرف كثيراً.

بعد عودتها إلى السويد بدأت بدوري أعُد عدتي للسفر لعند أمي حبيبتي ولم أنقطع عن الاتصال الهاتفي بها ثلاث أو أربع مرات يومياً، وكانت بمجرد سماعها صوتي تناديني: (سهام تعالي عندي)، فأقول لها: «أمي أنا عم أشتغل حتى أحوّش شوية مصاري وبعدين أجي عندك»، فتقول: «الرب يحميك والعدرا معاك». وخططت حينها بأنني سأكون في سورية بمناسبة العيد الكبير عيد الفصح.

وكنت أكرر الاتصال عندما أسمع عن أعمال العنف التي حصلت بذلك الوقت حيث بدأت الأحداث تأخذ منحى تصاعدياً ودموياً وهذا ما زاد من قلقي، وكان أخي (حنا) يتصل معي عند سماعه أي خبر عن الأحداث التي تقع في

بعض المناطق من سورية وبخاصة في دمشق، ثم يعود ويتصل مع أمي و(ماريا) ليطمئن، وكذلك يفعل أخي كبرييل. وكنت في كل اتصال أذكّر (أبو نورس) بضرورة تأمين اشتراك بالانترنيت وأشرح له فوائد ذلك لأنه يبسط ويسهل اتصالي مع أمي، وأقول له إنه يمكن أن أفتح صفحة فيسبوك ونضع برنامج (سكايب).

كانت الخادمة في كل مرة أتصل معها تخبرني بالتفصيل ماذا عملت وحضّرت من طعام وماذا سمعت من أخبار بالتلفزيون، وكنت أسمع عبر الهاتف أصوات مسيرات التأييد للسيد الرئيس بشار الأسد والهتافات وأبواق السيارات، باعتبار أن البيت مشرف على اوتستراد المزة وتخبرني بالأصدقاء الذين يتصلون بها للاطمئنان عن أمي، حتى أنها إذا رأت أحدهم يمشي على الرصيف كانت تذكر اسمه لأنها تعرفت على أغلب الأصدقاء الذين جاؤوا لزيارتنا في مشفى دار الشفاء أو حضروا إلى البيت.

زيارة الأصدقاء في عيد الأم

في صباح ٢٠١١/٣/٢١ اتصلت صباحاً وهنأتُ والدتي بمناسبة عيد الأم ثم عدت واتصلت معها ظهراً حيث أجابني (أبو نورس) وأخبرني أنه أحضر لها باقة ورد بهذه المناسبة، وقال لها «هذا الورد أرسله لك حنا وسهام»، وأنها فرحت كثيراً، والتقط لها عدة صور وهي تمسك بتلك الباقة، وقال حينها «إنه وأم حنا يشربان القهوة وهي ستقرأ له الفنجان».

كما تحدثت معها ثم عدت واتصلت معها عند المساء حيث وجدت الدكتورة بثينة التي جاءت لزيارتها بمناسبة عيد الأم، فتحدثت معها وشكرتها، فأجابتني: «أليس نحن أهل وأمك كما قلت لك بمقام أمي»، وسألتني عن زوجي وبناتي وإخوتي وكعادتها أشعرتني بالراحة والسعادة والطمأنينة، فكررت شكري فأنا أعلم حجم مشاغلها والتزاماتها، ورغم كل ذلك جاءت في ذلك اليوم

لتسلم وتهنئ أمي بمناسبة عيد الأم، وأنا أشكرها ما حييت على كل ما قدمته من محبة واحترام.

واستمريت أنفّذ هذا البرنامج اليومي بالرغم مما أعانيه بسبب الغياب الطويل عن عملي، لأن الدوائر التي أتعامل معها كانت تقوم بتأمين البديل عني نتيجة انقطاعي عن العمل في الأشهر التي أسافر فيها إلى سورية، وكنت أقول لنفسي «إن أمي أهم من عملي وأكلي وشربي فهي كبيرة في السن والأعمار بيد الله ويجب ألا يطول غيابي عنها».

وبعد أقل من شهر أعلمت المكاتب والدوائر التي أعمل معها أنني سأسافر إلى سورية، وقبل موعد سفري بعدة أيام اجتمعت عائلتي في البيت (زوجي شابو وجاءت ابنتي يلدا وزوجها وأولادها ومليسيا وزوجها) على الغداء، وحينها قال صهري فادي زوج يلدا موجهاً كلامه لعمه شابو «عمو ليش تسمح لحماتي تروح لسورية فقد أصبح السفر إليها خطراً وفيها أحداث والوضع هناك غير آمن»، فقلت لهم مجيبة على ما قاله صهري «اسمعوا إن أمي خط أحمر، ولا أقبل أن أسمع هذا الكلام وأنا أعرف أكثر منكم عن الأوضاع في سورية ومن يريد الذهاب معي أهلاً وسهلاً، وأما أن يخطر في بالكم أن ما نسمعه من أخبار يمنعني من السفر إليها فهذا لن يحصل. أمي أولاً، أمي ثانياً، وأمي ثالثاً». وقد تقصدت حينها تكرار هذا الكلام ليكون درساً لهم في المستقبل.. طبعاً لم يقل صهري ما قاله إلا محبة وحرصاً على سلامتي فهو شاب نبيل بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.. كريم النفس وكريم الأخلاق يضفي المرح والسعادة على الجو الذي يتواجد فيه وهو يحب والدتي ويحترمها كثيراً (كيف لا وهي والدة حماته).

إجازة قبل عيد الفصح

أتممت خلال أيام قليلة كافة تجهيزات سفري ووصلت دمشق بتاريخ ٢٠١١/٤/١٦ قبل يومين من العيد الكبير (عيد الفصح) على ما أذكر، وعندما

وصلت إلى البيت شاهدتني الخادمة من الشرفة فأخبرت أمي التي وجدتها واقفة بباب البيت فسلمت عليها بكل شوق ومحبة، فقالت: «أهلاً وسهلاً والحمد لله على سلامتك وليش كل هالأغراض تجيبينها»، وطلبت أن تضع طعام الغداء على الطاولة قائلة: «حطي الأكل سهام تكون جوعانة»، وبعد الغداء اصطحبتهما إلى مجمع شام سنتر وتجولنا في أسواقه وشربنا العصير والقهوة في الكافتريا المشرفة على جبل قاسيون بالطابق الأخير منه.

وفي اليوم التالي ذهبت صباحاً إلى مركز هاتف المزة وتقدمت بطلب اشتراك بالانترنيت، فأخبرني الموظف المسؤول أن الأمر يحتاج لبعض الوقت لحين توفر بوابات ولم أستوعب الأمر كثيراً، فقلت لـ (أبو نورس) هذا الأمر مزعج وإننا في السويد نطلب الاشتراك بالهاتف فتأتينا هذه الخدمة مباشرة بمجرد إغلاقنا سماعة الهاتف، فضحك من كلامي قائلاً: «عندنا في سورية أفضل بكثير من السويد، فإذا كنتم تتحدثون بالهاتف لتحصلوا على خدمة النت فنحن هنا يأتيك الموظف ومعه جهاز الراوتر والمهندس الذي يتولى توليف الجهاز ويعطيك كلمة السر خلال نصف ساعة ولا نذهب للأسواق لشراء الراوتر، بالرغم من الظروف الحالية التي تمر بها سورية»، فاستغربت هذا الكلام وقلت له: وكيف ذلك؟ فأجابني «قليلاً من الصبر» ثم أجرى عدة اتصالات هاتفية.

وبعودتنا إلى البيت الذي لم يكن يبعد عن مركز الهاتف أكثر من /٥٠٠/ متر تقريباً طرق الباب أحد الأشخاص سائلاً «هل هذا منزل السيدة أم حنا» فأجبته نعم، قال معي رفيقي ونريد التأكد من العنوان ورقم الهاتف الأرضي عندكم فسألته ولماذا؟ فأجاب من أجل تركيب خط هاتف جديد وتفعيل خدمة النت، ففتحت الباب وإذا به يحمل جهاز الراوتر وشريطاً سلكياً وخلال ربع ساعة قام ورفيقه بوصل الشريط بالعلبة الهاتفية المخصصة للبناء وتأكدا من تفعيل الخط ووصلا الهاتف بجهاز الراوتر. وفي هذا الوقت حضر

(أبو نورس) ومعه جهاز اللابتوب الخاص بأحد أبنائه لتجريب خدمة النت وكنت أنظر للأمر وكأنه شيء من السحر، فأنا أعرف الروتين والإجراءات اللازمة لمثل هذه الخدمة. وقلت لأتأكد فعلاً مما أراه وبعد أن أعطياني الرمز اللازم فتحت اللابتوب وإذا به يعمل والتقط إشارة الراوتر ففتحت على صفحتي الشخصية بالفيسبوك واطلعت على بريدي الإلكتروني، وحينها نادتني أمي «سهام أشو تشتغلين». فقلت لها أشوف النت. فقالت: «وشو هاد النط». فوضعت اللابتوب أمامها وعرضت لها صور إخوتي وصور يلدا ومليسيا وأولاد يلدا والأقارب المشتركين معي بالصفحة، فكانت تسمي كل واحد باسمه وكانت مسرورة كثيراً بما تشاهده.

وبعد أن اطمأنيت على هذه الخدمة ذهبت إلى منطقة باب توما وبرج الروس واشتريت الشموع والورود اللازمة لتزيين البيت، كما اشتريت كمية من البيض للتحضير لليوم التالي والاحتفال مع أمي في عيد الفصح –وكنت قد أحضرت معي من السويد عدة ألوان لتلوين البيض– كما اشتريت ما نحتاجه من الفواكه والمواد التموينية، وكانت أمي برفقتي حيث اختارت بنفسها بعض أنواع الورود التي أعجبتها، وكانت تحدثني عن العادات التي كانت سائدة أيام طفولتها وكيف كانوا يحتفلون بهذه المناسبة وأنهم كانوا يذهبون إلى البِيعة (الكنيسة) لحضور القداس ثم يذهبون لزيارة الأقارب والأصدقاء أو يستقبلونهم، وترحّمت على تلك الأيام.

وبعد أن أتممنا كافة ما نحتاجه عدنا مساءً وبدأت بسلق البيض وعندما بدأنا بتلوينه وضعت كمية أمامها ولن أنسى قولها «يرحم هديك الأيام كنا نلون البيض بقشاري البصل»، ثم بدأت تلون كمية البيض مع (ماريا) وهي تضحك وتغني:

«بكرا العيد وبنعيد

وندبح بقرة السيد

والسيد ما عندو بقرا

عندو مرتو هالشقرا»

ولم تكن الخادمة تفهم الكثير من كلماتها فقالت لها: «ليش مرتو بقرا»، فتضحك من صميم فؤادها، فقلت لها: «كنا من زمان نغني ونقول (ندبح مرتو هالشقرا)»، فأجابتني: «خطية ندبح مرتو لكن السيد ما عندو بقرا عندو مرتو الشقرا» وتتبعها بالضحك.

في اليوم التالي رافقتها إلى الكنيسة وحضرنا القداس وكانت حريصة على غطاء رأسها ومسبحتها في يدها تردد ترانيم الصلاة ثم عدنا إلى البيت، وبدأ الأصدقاء بالحضور واجتمعنا على الغداء حيث غنت لهم أغنية (بقرة السيد) ووضعت سلة البيض الملون على الطاولة أمامها فكانت تقول لمن يأتي عندنا «هات بيضة نتكاسر ويلي يربح ياخد معاه». لقد غمرتها الفرحة والسعادة بشكل كبير وتذكرت وترحمت على والدي.

في صباح اليوم التالي ارتديت ملابس الرياضة وذهبت إلى ملاعب الجلاء لمدة نصف ساعة وأكملت مشياً حتى ساحة الأمويين ثم عدت وبطريقي دخلت إلى سوبر ماركت العائلة واشتريت بعض الأغراض، وبوصولي إلى البيت كانتا تجلسان على الشرفة تراقبان الطريق وتستمتعان بشمس الصباح، وعندما شاهدتني من الشرفة نادتني «سهام تعالي خفيف نفطر أنا ناطرتك». وقد تناولنا طعام الإفطار على الشرفة ثم اتصلت مع صديقنا وقلت له: إنني أريد أن نذهب إلى منطقة الزبداني وبلودان عند الظهر لنتغدى بأحد المطاعم، وبالثانية عشرة ظهراً حضر بسيارة المحامي نضال الذي تركها معه من أجلنا.

ذهبنا إلى بلودان وصعدنا ذلك الجبل المرتفع إلى مطعم أذكر بأن اسمه «مانويلا» حيث جلسنا حول طاولة مشرفة على منطقة الزبداني وسهلها وتناولنا الغداء، وكانت أمي في منتهى السرور وكذلك خادمتها التي أتقنت استخدام الشوكة

والسكين بشكل كبير، وكذلك أمي التي أحبت الخبز الطازج الساخن الذي قدموه لنا، وخلال الغداء قلت: «غداً سنذهب إلى صيدنايا لزيارة البطركية السريانية ودير الشيروبيم ونتغدى في فندق شيراتون صيدنايا. وبالتأكيد فإن أمي سترتاح وتكون فرصة لها لتغيير الجو» وخلال الغداء في مطعم مانويلا تحدثت أمي عن المرحوم والدي وعن عادات السريان في الأعراس والخطبة وتجهيز العروس والأغاني التي كانت شائعة في تلك الأيام ثم عدنا إلى دمشق وقبل وصولنا إلى البيت ذهبنا إلى المجمع التجاري في كفرسوسه واشتريت من السوبر ماركت بعض الأغراض اللازمة.

زيارة صيدنايا

في اليوم التالي وكان على ما أذكر يوم الأحد ذهبنا إلى صيدنايا حيث زرنا بطركية السريان وصعدنا إلى قمة جبل شاهق يتوجهُ الدير المقدس (دير الشيروبيم)، حيث سمعنا ترانيم الصلاة داخل كنيسة الدير فدخلناها وأدينا الصلاة فيها ثم تجولنا في أرجاء الدير، وبعد ذلك نزلنا عن قمة الجبل إلى فندق شيراتون صيدنايا على موعد الغداء حيث وجدنا بوفيه مفتوحاً وازدحاماً كبيراً داخل صالات المطاعم في الطابق الأرضي، حيث قمت برفقتها وأحضرنا أطباق الطعام.. أما (ماريا) فقد أدهشها ازدحام الناس وتنوع الطعام.. وبالرغم من صغر حجمها فإنها قامت عدة مرات تنوع في إحضار ما تشتهيه من أنواع الطعام والحلويات والفواكه..

أمضينا أكثر من ثلاث ساعات في صالة المطعم وكانت بغاية السعادة والسرور، وقد حدثتنا كثيراً عن أيام زمان وعن جدها وجدتها ووالدها –رحمهم الله– ومما قالته في حديثها: (إن أمها خاتون كانت في مثل هذه المناسبة تقوم بإعداد المواقد في الشارع أمام الدار بجوار الحائط، وتضع عليها القدور والطناجر الكبيرة (دست– جعيلة)، ثم يأتي لها جدي بالخراف والدجاج فتطهي الطعام

على قارعة الطريق وتوزع لأهل القرية ولا تترك أي شخص تراه إلا وتعزمه، حتى أن أهل القرية وجيرانها كانوا يعرفون عادتها هذه لأنها كانت تقوم بشكل دائم بهذه العملية.

وفي الشتاء كانت تعد الطعام داخل البيت وتقدمه للناس حتى أُشتهرت وضُربت بها الأمثال. ثم قالت: «في تلك الأيام كنت أنا صغيرة وكان أبي مختار القرية بعد جدي (والختم والصطمبه) معه والناس يأتون إليه من مختلف القرى لحل مشاكلهم، وكانوا يسهرون عندنا في البيت وفي المناسبات يفرحون ويغنون، وكنت أنا المدللة عند أبي وأجلس مع الكبار وحفظت منهم الكثير من الأغاني والأشعار والحكايات.. وقد نسيت الآن الكثير منها».

فقال لها (أبو نورس): «احكيلنا كيف كانت العادات في تلك الأيام الأعراس –الخطبة– علاقة الناس مع بعضهم»، فضحكت.. وقالت لي: «أعطني تفاحة آكلها» والتفتت قائلة له: «حفظت أغنية ومازلت أحفظها عن البنت أيشو تقول للشب يلي تحبه إذا كانت تدبك بالعرس أو تكون وحدها بالبيت»، كانت تقول:

أهلا وسهلا دلال..

جاني عزيز الروح..

لا أقدر أقلو تعا..

ولا أقدر أقلو روح– إذا قلتولو تعا..

إمكِ عالي السطوح– وإذ قلتو يروح..

روحي معو تروح

وكنت أول مرة أسمع منها هذه الكلمات وقصت علينا كيف كانوا يتعاونون في أيام الحصاد ورددت عدة أغانٍ لم أعد أذكرها تخلد تلك الأيام.. وقالت: «هديك الأيام أحلى من هالأيام لأنه لما كان شخص يسافر ويرجع

لبيتو كانت كل الضيعة تجي تسلم عليه وبالأيام هذه الأخ مو يشوف أخوه والابن مو يشوف أبوه» وترحمت على أولئك الأشخاص الذين عايشتهم.

وبعد أن أنهينا غداءنا تجولنا أمام الفندق قليلاً ثم عدنا إلى دمشق.. لقد كان يوماً رائعاً لأنها كانت في أعلى درجات نشاطها الذهني وحيويتها في الحركة وشهيتها في الطعام وكنت مسرورة جداً لأجل ذلك.

وخلال الطريق كانت تمسك بيدي وتقول لي «قربي يمي امسكي يدي» وبخاصة عندما صعدنا إلى دير الشيروبيم، حيث قالت: «أين رايحين وين مودينا هادا» فنضحك معها، وقلت لها: «أمي لا تخافي رايحين نصلي»، فتجيب (كويسو)، وقبل وصولنا إلى البيت وعندما شاهدت أضواء دمشق قالت لي: «يعني لو بقينا في بيتنا وأكلنا رز وفاصوليا مو كان أحسن من هالسفر»، فكم كانت تحب الراحة في البيت والجلوس على الشرفة تراقب الطريق والسيارات والناس الذين يمشون على الأرصفة، وأذكر أنها استشبهت إحدى المرات بأحد الأشخاص الذي كان يسير على الرصيف ويرتدي كنزة شبيهة بالكنزة التي يرتديها أخي ممتاز حينها نادتني وقالت: «سهام تعالي هادا منتاز نادي عليه يجي البيت»، وبقيت حتى وقت نومها بالتاسعة ليلاً وهي تلومني على عدم مناداتي ممتاز قائلة: «اجا الليل هلق منتاز يضيع ومو يعرف يجي البيت»، وبجهد حقيقي أقنعتها أن الشخص الذي رأته لم يكن أخي ممتاز حيث قمت بوضع شريط عرس يلدا ومليسيا لتشاهد صورته في العرس فقالت: «إيش فيه ناس تشبه بعضها».

وبسبب رغبتي الدائمة بالاطمئنان عليها أخذتها في اليوم التالي إلى مخبر القطرنجي لإجراء تحاليل كان قد طلبها الدكتور هيثم، وكانت تحب حديثه معها وهو الوحيد الذي لم تشبهه بأي شخص تعرفه، وقالت في إحدى زياراته لها: «إيش هالدكتور كويسو يضحك كتير».

وبعد أن سحبوا منها كمية الدماء اللازمة للتحليل اصطحبتها إلى محل حلويات لم أعد أذكر اسمه قرب البرلمان في شارع الصالحية وأكلنا النابلسية (كنافة) وتجولنا بين عدة محلات، حيث طلبت شراء كنزة خفيفة واحدة لها وواحدة لخادمتها مع كلاش أحمر، ورجعنا إلى البيت. وبينما خلدت هي إلى النوم قمت بإعداد طعام الغداء و(النمورة) التي أعطيت منها للأصدقاء الذين يترددون دائماً لزيارتنا.

وفي تلك الإجازة رافقتها إلى باب توما أكثر من مرة وإلى المحال التجارية بمختلف أسواق دمشق، كما اصطحبتها إلى معلولا للصلاة في كنيستها.. لقد كانت مؤمنة بشكل كبير ولا أنكر أنها نسيت الكثير من الأحداث في سنواتها الأخيرة لكنها لم تنسَ أبداً صلاتها فقد استطاعت تعليم الخادمة (سلام لك يا مريم وأبانا الذي).

كانت أيام إجازتي تمر سريعة وكلما اقترب موعد عودتي إلى السويد كنت أشعر بالتوتر والقلق لأنني لم أكن أريد مفارقتها، وبالمقابل كنت ألاحظ شدة تعلقها بوجودي معها حيث ترتفع معنوياتها ويعتدل مزاجها وتفرض شروطها وأوامرها، وكانت والدتي لا تحتاج الكثير ولا تطلب إلا القليل، وكان أهم ما تطلبه أن تنزل من الشقة لتمشي على الرصيف معها أو أن تعد لها طعامها أو تعطيها الدواء، ولا أعتقد أنني سمعت عن امرأة في مثل سنها ووضعها قد حافظت على نظافتها ونظافة ملابسها ومظهرها كما كانت تفعله خلال حياتها التي عاشتها متنقلة بين البرازيل والسويد.

وعندما أحضرت نتيجة التحاليل من مخبر القطرنجي وأجرى الدكتور مقارنة بين التحاليل السابقة والجديدة وصف أدوية جديدة وأوقف أخرى. وفي المساء جاء الدكتور وتحدث معها باللغة التركية فقالت له: «أعرف كمان احكي كردي» وغنت لنا أغنية باللغة الكردية. وبعد مغادرته أمضينا السهرة

نتابع الأخبار كما شاهدت معها إحدى حلقات مسلسل تركي كانت تتابعه مع (ماريا).

في اليوم التالي ذهبت إلى سوق الحميدية ومحلات الحريقة وأكملت شراء بعض الأغراض والهدايا لأحفادي، وحينها قلت في نفسي من باب التمني لو أن كل واحد من إخوتي يأتي ويمضي معها شهراً واحداً فإنه لن يعود إلا بعد سبعة أشهر وبذلك يبقى أحد أولادها برفقتها ولكن كما يقول الشاعر:

«ما كلُ ما يتمـنى المـرءُ يدركــهُ

تجري الرياحُ بما لا تشتهي السفنُ»

تصاعد حدة الأحداث في سورية

وخلال تلك الأيام كانت الأحداث المؤسفة التي اندلعت في سورية قد أخذت المنحى التصعيدي العنيف وكنت أسمع أحياناً إطلاق نار وأشاهد خلال النهار أعمدة دخان سوداء في أماكن عدة، حتى أمي عندما كانت تشاهد الأخبار وصور ما تعرضه الفضائيات تسألني «إيش بدهم من سورية– الرئيس حافظ الأسد ما فيه أحسن منه بالعالم»، فأصحح لها قائلة: أمي هلق الرئيس اسمه بشار الأسد، فتقول: «فهمتو فهمتو بس اسم حافظ الأسد على لساني» وتكمل بصيغة السؤال «ليش هالعرب يكرهونو هو أحسن منهم كليتهم– رمادي براسهم».

وكنت أحرص دائماً خلال وجودي معها أن أجلس ملاصقة لها أمسك بيدها وأقبلها وأصلي معها وأغني معها الأغاني القديمة التي تعرف بعضها، وكنت أعتبر ذلك تنشيطاً لذاكرتها وأسلوباً لتسليتها وإدخال السرور إلى قلبها.

وسألتها أكثر من مرة: «أمي هل أنت مرتاحة في سورية؟ وإذا تريدين نعود إلى السويد، أو احكي مع حنا تروحين البرازيل» فأجابتني: «سورية طيبة

ما في أحسن منها نروح وين ما بدنا ونجي ساعة ما بدنا، خليني هون وروحي انت وارجعي ساعة تحبين- العيشة هون طيبة... بالسويد والبرازيل الوحدة بالبيت تبقى متل بقرة مربوطة.. سورية عشتو فيها وبموت فيها أنا ختيارة وين تاخديني»، فقلت لها أمي أنا لازم أرجع السويد أشتغل كم شهر حتى أرجع عندك أجلب مصروف... وبالصيف نذهب بعيد السيدة لبيت المشتى ونصلي بكنيسة جبل السيدة نقطف عنباً وتيناً من الكروم بضيعة (أبو نورس)، فقالت: «كتير كويسو أنا أحب العنب والتين كتير.. يالله.. روحي خفيف.. ولا تتأخري بالرجعة عندي». وحينها اتصلت أختي فيوليت من الدنمارك وزوجها يوهانس وتحدثا معها. وقلت لأمي: في المرة القادمة سأشتري برادي جديدة للصالون وبرادي لشباك المطبخ، فقالت: «كويسو بكرا أعطيك البيت إذا متو لا تعطيه لحدا ما حدا بيستاهل غيرك».

هكذا اطمأنيت أنها ستكون بخير وأوصيت (ماريا) كثيراً أن تتكلم معها دائماً ولا تتركها أمام التلفزيون فقط لأن مريض الزهايمر بحاجة لمن يتحدث معه كي لا ينسى الكلام، وهنا خطر لي أن أشتري لها (ورق لعبة الشدة) لأن الأرقام والأعداد تساعد في المحافظة على ذاكرتها... وتكرار اللعبة ينشطها... فقمت مباشرة وذهبت إلى السوبر ماركت حيث نصحني صاحبه أن أذهب إلى سوق الشيخ سعد لأجد طلبي فأكملت طريقي إلى هذا السوق الذي لا يبعد أكثر من (١٥٠٠) متر عن البيت، وسألت عدة محلات حتى وجدته واشتريت كمية من الموالح والفواكه ورجعت مباشرة إلى البيت، ووضعت علبة ورق اللعب في يدها فنظرت إليها وعرفت مباشرة أنها أوراق لعبة الشدة فضحكت قائلة: «الله يسلم ايديك كويسو هالشدة هيك أتسلى وألعب لعبة الأوغلان».

وكانت (ماريا) تقف أمامها وتنظر ماذا تفعل وسألتها «وشوهاد أوكلان» وهي تضحك لعدم تمكنها من لفظ الكلمة بشكل صحيح، فقالت لها: «اقعدي

جنبي أعلمكي أوغلان»، وبدأت تشرح لها عملياً طريقة هذه اللعبة التي يعرفها غالبية كبار السن من السريان وهي لعبة قريبة من «لعبة الباصرة»، وكنت أستمع وأنظر إليها وهي تشرح لماريا وتعلمها هذه اللعبة، وكنت مندهشة من سرعتها في توضيح طريقة اللعبة وخلط الورق وتسمية كل ورقة باسمها، «حينها شعرت بشيء من الارتياح أنني وجدت طريقة تساعدها في التسلية وبالوقت نفسه في تنشيط ذاكرتها، وبعد أن شرحت لماريا الكثير عن اللعبة جلست معها ولعبنا ثلاثتنا لعبة الأوغلان وكانت تعيدني إن لعبت بشكل خاطئ حتى أتقنت هذه اللعبة وكذلك ماريا».

وكررنا في اليوم التالي لعبة الأوغلان وكم كانت تفرح حين تكسب اللعبة.. وبعد الظهر اصطحبتهما إلى المول في كفرسوسه (شام سنتر) واشتريت لهما ما يكفيهما لمدة شهرين من مواد تموينية وقد وضعت في حسباني مجيء كبرييل وكميل بعد أسبوعين.

إضافة لذلك فإنه اليوم الأخير من إجازتي هذه وبعدما تناولنا طعام الغداء عدنا إلى البيت، حيث حضر الأصدقاء المعروفون وأمضينا سهرة جميلة، وبعد مغادرتهم قمت بتحضير حقائب السفر ولم أغادر البيت فبقيت طيلة النهار معها لقناعتي أن ما أقوم به تجاهها يرضي ربنا ويرضيها، ولم يكن بيدي ما أفعله وأقدمه لها أكثر مما قدمته حتى تلك اللحظة، وكنت عندما أنظر إليها يغالبني البكاء لكنني كنت دائماً أحاول إخفاء دموعي عن ناظريها، وكم افتعلت حركات أمامها لإسعادها وإضحاكها بينما الحزن يحرق أحشائي والهم يتلف أعصابي، وكنت أشكر ربي أن حالتها الصحية جيدة وذاكرتها مازالت مقبولة، فكان اليوم الأخير فرصة إضافية لي لإشباع نظري منها وسمعي من صوتها وذاكرتي من كلماتها وصلواتها.

ومضت ساعات النهار سريعة ليأتي موعد مغادرتي إلى المطار ليلاً بتاريخ ٢٠١١/٥/٢ فودعتها وحين قبلت يديها ووجهها قالت لي: «ديري بالك

على روحك ولا تغيبين كتير يكفيك شهرين وتعودين عندي»، فوعدتها على وعد مني إليها أن أعود لعندها في مطلع شهر تموز من العام ٢٠١١، وكان موعد مغادرة الطائرة الساعة الواحدة بعد منتصف الليل متوجهة إلى مطار حلب حيث تزودت بالوقود وصعد إليها بعض المسافرين إلى السويد من حلب ثم أقلعت بعد ساعة تقريباً حيث وصلت مطار السويد صباحاً وكان شابو بانتظاري، وكما هي العادة اتصلت مع الخادمة لحظة وصولي إلى البيت واطمأنيت عليها وكانت أمي مازالت نائمة فقلت لها اتركيها نائمة وسأعود للاتصال ظهراً.

اهتمامي بالأخبار الخاصة بسورية

خلال إجازتي الربيعية هذه التي امتدت من تاريخ ٢٠١١/٤/١٦ إلى ٢٠١١/٥/٢ لم أنقطع يوماً عن متابعة الأخبار السياسية وأخبار الحوادث الإرهابية التي كانت تتناقلها وسائل الإعلام وأحاديث الناس في الشارع، فأي حادث يحصل يتم تناقله وتداوله بشيء من الخوف والحذر الذي كان يرتسم على الوجوه، ليصبح من المواضيع والقضايا التي كانت مثار بحث وجدل في جميع الجلسات واللقاءات التي كنت أحضرها سواء كان ذلك خلال تناول الطعام في البيت أم المطعم أم أثناء التسوق من المحلات، حيث كانت اللقاءات التي يجريها السيد الرئيس بشار الأسد مع الوفود الشعبية من مختلف المناطق ومختلف الشرائح مادة للإعلام ومادة لنقاشات فئات المجتمع السوري كافة، وكان من حسن حظي أنني استمعت إلى خطابه الذي ألقاه بتاريخ ٢٠١١/٤/١٦ يوم وصولي إلى دمشق، وتحدث فيه بكل شفافية عن الواقع السياسي الراهن وعن كل ما يحصل في بعض المحافظات السورية، وأفصح بلهجة صادقة ومؤثرة بأن اللقاءات مع الوفود الشعبية «بينت له وجود فجوة بين الدولة والمواطن»، وقال «علينا أن نؤسس شفافية مع المواطن لردم الفجوة الحاصلة»، وهو لم يدخر جهداً في تلبية المطالب التي تُشيع أجواء الهدوء

والطمأنينة في النفوس وتحقن الدماء، لكن الأحداث أخذت تتوسع وتتزايد فأصحاب المشروع لم يعيروا اهتماماً لكل ما بادرت به القيادة السورية فكانت أخبار المظاهرات في بعض أحياء درعا وحمص وبانياس ودوما... الخ تنتشر انتشار النار في الهشيم، مع أن الحكومة السورية أقرت بتاريخ ٢٠١١/٤/١٩ مشروع مرسوم يقضي بإنهاء حالة الطوارئ، كما أقرت مشروع مرسوم تشريعي يقضي بإلغاء محكمة أمن الدولة العليا، إضافة إلى إقرار مشروع مرسوم آخر يقضي بتنظيم حق التظاهر السلمي وفق قواعد إجرائية تقتضي حصول من يرغب بتنظيم مظاهرة على موافقة وزارة الداخلية، وتم إصدار المراسيم المشار إليها من قبل السيد الرئيس بتاريخ ٢٠١١/٤/٢١.

والشيء العجيب والأمر الغريب هو أن حكومات العالم والمنظمات التي تسمي نفسها بالمنظمات الإنسانية والدفاع عن الحريات ومجلس حقوق الإنسان في الأمم المتحدة وبعض حكام دول الجوار السوري، أغمضوا العيون وصموا الآذان عن الجرائم التي كانت تحصل في سورية بل على العكس تماماً فإنهم كانوا يشيرون بأصابع الاتهام إلى السلطات السورية بارتكابها أو أنها تقف وراء مرتكبيها. لقد كان الألم كبيراً والقلق أكبر من تصاعد وتيرة العنف ومن انزلاق الأحداث باتجاه الأسوأ. وفي هذه المرحلة من عمر الأحداث ابتكر المشغلون والمحرضون لأعمال العنف تسميات كانوا يطلقونها على أيام الجمع، وغالباً ما كانوا يستغلون خروج المصلين من الجوامع بعد صلاة الظهر من يوم الجمعة لرفع الشعارات التحريضية أو الاعتداء على رجال الأمن والشرطة الذين كانوا ينتشرون قرب الجوامع لحفظ الأمن ومنع أعمال العنف والفوضى.

وأثناء إجازتي هذه تابعت أحداث ما سموه الجمعة العظيمة بتاريخ ٢٠١١/٤/٢٢ وأسبوع رفع الحصار الذي دعوا إليه في ٢٠١١/٥/١، ولا أنكر القول إنني ذهبت أكثر من مرة برفقة بعض الأصدقاء وتجولت قرب الجوامع عند خروج المصلين منها، وشاهدت بأم العين كيف كان البعض يبدأ بالصراخ

والتصفيق ورفع الشعارات، فكانت غالبية جموع المصلين تغادر مسرعة من المكان ما كان يؤدي لفوضى وازدحام مروري، وبالتالي كان لابد من تدخل عناصر قوى الأمن الداخلي المتواجدة بالمكان شأنها في ذلك شأن القوى المكلفة بالحفاظ على الاستقرار والأمن وسلامة المجتمع في كافة دول العالم، فكان بعض الأشخاص يلقي بالحجارة وقضبان الحديد على العناصر وفي أماكن أخرى كانوا يطلقون النار عليهم فيستشهد بعضهم ويصاب بعضهم الآخر بالجروح.

كل هذه الحوادث كانت عناوين ومؤشرات بالغة الوضوح بأن القوى المعادية لسورية لن تتوقف عن تقديم كافة أشكال الدعم المالي والإعلامي والأسلحة لتلك المجموعات التي بدأت تتجرأ على مهاجمة المقرات الأمنية ومؤسسات الدولة، حيث بثت المحطات الفضائية السورية مئات الأخبار المصورة عن حالات تم ضبطها لتهريب السلاح والذخائر عبر الحدود وداخل المدن.

إضافة لذلك فقد تزايدت في هذه الفترة حالات استهداف واختطاف الأطفال والنساء لتضاف بذلك حلقة جديدة من حلقات العنف والتي كان من شأنها زيادة الضغط على السلطات الرسمية من جهة، ومن جهة ثانية يتم استغلالها إعلامياً وتصويرها على أنها من ارتكابات عناصر النظام لترويع شعبه وإخافته لمنعه من المطالبة بحقوقه، هكذا كانت تستغلها القنوات الفضائية التي لعبت دوراً خطيراً جداً في مسار الأحداث لسورية.

إنني على يقين كامل بأنه لا يوجد حالة أصعب من حالة الأم التي تشاهد أولادها وأحفادها مذبوحين مقطعي الرؤوس والأوصال بأيدي إرهابيين بدؤوا يتقاطرون إلى سورية من كل حدبٍ وصوب.

وكانت وسائل الإعلام السورية جاهدة في إيضاح ذلك للرأي العام الداخلي المضطرب والقلق والخائف مما قد يحمله المستقبل... وفي كشف دور الغرب (الدول الأوروبية) الذي تعامى بشكل مريب عن هذه الأحداث، بل

وصل الأمر عند الأغلبية المرتبطة بالمال الخليجي إلى تحميل السلطات السورية المسؤولية المباشرة عنها.

فكنت أعود إلى البيت وأشعل الشموع وأشارك أمي الصلاة والدعاء لحماية سورية من الفتن ومن كل سوء، وكان يؤلمني جداً هذا الواقع الذي كنت أعيشه حين أنظر إلى أمي التي تحتاج لكل رعاية واهتمام على مدار الساعة، وأنظر إلى سورية الأم التي احتضنت أبناءها منذ أكثر من عشرة آلاف سنة وكيف بدأ مرض الإرهاب ينتشر في بعض مفاصلها.

كبرييل وكميل في دمشق

بعد ثلاثة أسابيع من عودتي وصل أخي كبرييل وأخي كميل لزيارة أمي وكنت أتحدث بمعدل ثلاث مرات يومياً مع أمي وماريا وإخوتي، وكما هي عادة أخي كبرييل فقد تواصل بالهاتف مع أصدقائه الذين يعرفهم وكان بعضهم يأتي لزيارته في البيت، وخلال وجودهما في سورية سافر أخي كميل إلى القامشلي من أجل تسوية وضعه التجنيدي ثم عاد لدمشق.

واستمرت زيارة كميل وكبرييل عند أمي لمدة شهر تقريباً وكانا خلال فترة وجودهما عندها يذهبان إلى الأسواق وزيارة الأصدقاء، وقد أعجبا بعمل الخادمة كثيراً وشعرا بالاطمئنان لوجودها معها في البيت. وبسبب تفاعل الأحداث الأمنية التي تصاعدت حدتها والأحاديث التي تدور في البيت على مسمع أمي وما تشاهده بالتلفزيون، وكما حدثاني، أنهما كانا يريدان الخروج أحد الأيام من البيت وكان معهما أخي جميل حيث نادتهما لتوصيهما، وكانت وصيتها لهم الثلاثة في تلك اللحظة أكبر مفاجأة سمعتها حين قالت لهما: «كميل كبرييل تعالا هون عندي، هلق تنزلون من البيت إذا أي أحد سألكم شو أساميكم انت يا كبرييل تقول اسمي (أبو محمد) وأنت يا كميل تقول

اسمي (أبو أحمد) وأنت يا جميل تقول اسمي (أبو خالد) أحسن هدول الإرهابيين يدبحوكم».

لقد كانت تستوعب كل ما يدور حولها وما تسمعه وتشاهده وهذا ما فاجأهم لأنهم كانوا يعتقدون بأن مرضها يمنعها من إدراك القضايا المعقدة أو أن ذاكرتها لا تلتقط الكثير من الأخبار والصور التي تشاهدها. وبدأت أفكر منذ وصولي إلى بيتي في السويد بالوقت المناسب لعودتي إلى سورية وأخذت أنظم التزاماتي المهنية والعائلية لتكون عودتي إلى سورية في النصف الأول من شهر تموز ٢٠١١ وللحقيقة كانت أياماً صعبة لم أعرف فيها طعم الراحة.

الاتصال عبر برنامج سكايب

خلال تلك الفترة تم تحميل برنامج سكايب على اللابتوب واستطاعت الخادمة إتقان تشغيله وفتح السكايب بشكل مباشر، وحين كانت تضعه أمام أمي وأتحدث معها بالصوت والصورة فإنها كانت تشعر أنني معها وكانت تصلي أحياناً وأصلي معها عبر السكايب، وأحياناً أخرى تغني فأغني معها وقد دفعت هذه الحالة بإخوتي في البرازيل لتفعيل خدمة السكايب عندهم وكانوا يتحدثون معها ويطمئنون عليها.

لقد أحدث هذا الأمر تحولاً هاماً في حياتها وكثيراً ما كانت تقبل أحدنا على الشاشة أو تمد يدها لتتحسس وجه أحدهم. لقد هدّأت هذه الخدمة الكثير من قلقي عليها فكنت ألاحظ التغير الطارئ على حالتها الصحية لحظة بلحظة، وأعتقد أن هذا الموضوع شكل عبئاً إضافياً علي (ماريا) التي كانت تحرص على أن تظهر مع أمي بغاية الأناقة، فكنت أراها وهي تسرح لها شعرها وأراها حين تطعمها وكثيراً ما تناولت طعامها وأنا معها على الشاشة حتى أنها دعتني لتناول الطعام حين قالت: «ليش مو تاكلين مدي ايدك»، لقد استفدت من هذا البرنامج في محادثة الأصدقاء الذين كانوا يأتون لزيارتهم ممن أعرفهم فأتحدث

إليهم ولعدة مرات تحدثت مع الدكتور هيثم والدكتور حسين أثناء وجود أحدهما عندها في البيت.

وكنت أتابع عبر الفضائيات والمواقع الإلكترونية وصفحات التواصل الاجتماعي الأحداث المؤسفة التي لم تخفِ هويتها فظهرت جلية واضحة بأنها حرب على سورية لتدمير جيشها وتخريب اقتصادها وتفتيت وحدتها الوطنية وتقسيم جغرافيتها، فكتبت الكثير من المقالات في هذا الاتجاه نُشرت في الموقع الإلكتروني «الرأي السوري» وبعضها في جريدة (الوطن) السورية.

لقد سمعت مرتين وأنا أتحدث على الهاتف أو السكايب مع أمي وماريا أصوات التفجيرات الإرهابية التي حصلت في منطقة المزة والتي كان يصل صداها إلى مسامعي، فأسألها ما هذا الصوت فتقول "ماما هادا انفجار ما بعرف وين"، ويتملكها الرعب والخوف وتسألني متى ستأتين وتبدي رغبتها بالسفر إلى أثيوبيا (وكانت تخبرني بأنها تتحدث مع والدها فهي يتيمة الأم)... كنت أشفق عليها وأعاملها كما لو أنها ابنتي، حتى أنني اشتريت لها هاتفاً جوال مع شريحة هاتف وأهديتها لها لتبقى على تواصل مع والدها والاتصال مع الأصدقاء في حال كانت تمشي مع أمي في الشارع واحتاجت للاتصال.

التحضير للعودة إلى دمشق

بتلك المرحلة تلقيت الكثير من النصائح بعدم السفر إلى سورية نتيجة الأخبار التي يواكبها الإخوة والأصدقاء، فقلت لمن نصحني بأن حياتي ليست أغلى من حياة أمي والأعمار بيد الله، وأنا أسافر لغاية نبيلة وأقوم بخدمة جليلة وأطلب الجنة من تحت قدمي أمي.. أليس القول المأثور يقول «الجنة تحت أقدام الأمهات». ولم أتردد لحظة في عزمي على السفر لعندها خلال الشهر السابع، وكنت من خلال الاتصالات الهاتفية والسكايب أعرف ما يجري في سورية وفي دمشق تحديداً، وأعرف كذلك احتياجات أمي وبدأت أشتري ما

يلزمها لفصل الصيف، لأنني عقدت العزم أن أصطحبها عندما أعود لعندها إلى مشتى الحلو باعتبارها كانت معي عندما اشتريت البيت هناك قبل عدة سنوات.

واستمر الحال على هذا المنوال من الاتصالات والعمل والتحضير لرحلة الصيف حتى نهاية الشهر السادس، حيث اشتريت بطاقة الطائرة وأكدت الحجز للقدوم إلى دمشق بتاريخ ٢٠١١/٧/١ وأعلمت المكتب التي أعمل معه بأنني سأنقطع عن العمل لمدة شهرين تقريباً بسبب سفري إلى سورية، وهذا ما أثار استغراب الأجانب السويديين لأن الضخ الإعلامي الكبير في الغرب كان يقدم صورة للمشاهد بأن سورية مشتعلة في كل شبر فيها.

كما هي العادة فقد استوفيت وقتي في التجهيز للرحلة الجديدة، وقلت لمن نصحوني بعدم المجيء إلى سورية إذا أحببتم ورغبتهم بالسفر إلى سورية فأنا على استعداد أن أحجز لكم بطاقة للسفر برفقتي. وفي الموعد المحدد غادرت السويد إلى دمشق التي وصلتها ظهراً وعند وصولي البيت فتحت أمي الباب ضاحكة كعادتها قائلة: «أهلاً أهلاً حبيبتي كيف وصلتي خفيف عندي». غمرتها وبعد أن تناولنا طعام الغداء قدمت لهما ما حملته لهما من هدايا وفي المساء فتحت اللابتوب وتحدثت عبر السكايب مع يلدا ومليسيا ومع إخوتي في البرازيل، وكعادتهم جاء الأصدقاء لزيارتنا.

طاولة الشرفة والكراسي الجديدة

وبدأت أكرر البرنامج في كل زيارة حيث أخذتهما في اليوم التالي إلى منطقة باب توما ومنها رجعنا إلى المول التجاري في كفرسوسة (شام سنتر)، وبعد تناولنا طعام الغداء قامت أمي تمشي أمام المحلات مع (ماريا) بينما ذهبت إلى المجمع التجاري (دامسكينو) الملاصق لشام سنتر واشتريت حاجيات ولوازم ومناشف، كنت قد رأيتها في زيارتي السابقة من أجل رحلتنا إلى بيت

المشتى ثم عدنا إلى البيت، حيث قالت أمي: «خلينا نعبر عالبرندا» نلعب (أوغلان)، فقلت لها: «تأمرين يا أمي على راسي». وكان لا يوجد سوى طربيزة صغيرة بعض الشيء وكراسي الصالون المرتفعة قليلاً، فاتصلت مع (أبو نورس) وقلت له: أريد شراء طاولة مستديرة (بلاس) مع كراسيها، وأذكر أن هذا الحديث كان بحدود الخامسة مساءً، فأجابني: غداً نذهب السوق ولم أدعه يكمل وقلت له: «أرجو أن أشتريها اليوم فالوقت مازال باكراً والأسواق كلها تعمل». وبناء على هذا الكلام قال «أنا بالطريق لعندكم». فوجدت أنها مناسبة لترافقني أمي بعدما فهمت منه أنه يعرف محلاً لبيع مثل هذه الأشياء قرب شارع أبو رمانة، وبوصوله أمام البناية المقيمين فيها وجدنا ثلاثتنا نمشي على الرصيف، وبرفقته توجهنا إلى محل لبيع طاولات (البلاس) يقع في شارع جانبي قريب من مبنى رابطة المحاربين القدماء، حيث رأيت الطاولات بألوان وأشكال مختلفة وكراسي ملونة فاخترت طاولة صفراء اللون وخمسة كراسي كل كرسي بلون مختلف (أخضر . أزرق . أحمر . أصفر . بني)، ولفت نظري واجهة محل قريب من محل بيع الطاولات يضع خلف زجاج الواجهة أشكالاً وألواناً مختلفة من الزجاجيات والورود فدخلت إليه، بينما بائع الطاولة والكراسي أحضر شاحنة صغيرة لتنقلها لنا إلى المزة، واشتريت من ذلك المحل حاجتي من الزجاجيات (كؤوس– صحون– فناجين قهوة).

وبعودتي سمعت أمي تسأل عني: «أين سهام راحت تكون ضاعت روحي هوري (نادي) عليها»، فقلت لها: «أمي لا تخافين جيتوكي»، ولم أنسَ أنني شاهدت في ساحة قريبة قبل وصولنا إلى المحل ازدحام الناس بعضهم جالسين حول الطاولات ومنهم يقفون قربهم في ساحة دائرية، قال حينها (أبو نورس) هذه ساحة الروضة والناس تعرفها باسم ساحة أبو رمانة فسألت بائع الطاولة: «هل يمكن أن ترسل لنا الطاولة والكراسي إلى البيت بالمزة بعد ساعة» فوافق على الفور بسبب معرفته بـ (أبو نورس) الذي قلت له: «أتعبناك

اليوم لكن أريد الذهاب إلى أبو رمانة»، قال: «نحن في المنطقة». فأوضحت بالقول «أعرف أعرف بدي أشوف الساحة يلي شفناها والناس قاعدين على الأرصفة وسألته ليش هذه الزحمة»، فقال إنهم يأكلون تين الصبر أو (الصبار)، فقلت له «ومين أغلى عندي من أمي يأكل تين الصبر» اصبر علينا شوي وخلينا نطعميها تين الصبر، وهذا ما حصل حيث توجهنا إلى الساحة.

وكان أحد باعة الصبار بارعاً في استقبال الزبائن وما أن شاهده بالسيارة حتى رحب بنا وهيأ لنا طاولة على الرصيف فوق النهر الذي يمر تحت الساحة ووضع عليها «تنكة صغيرة مزروع فيها نبات الحبق»، فكانت أمي تلامسها لتعبق رائحتها في أنوفنا وتنتشر في المحيط، وقالت: «أيشو نعمل هون». أفهمتها أننا سنأكل تين الصبر، فقالت: «تين صبر... كويسو كتير... يفيد المعدة».

وقد تجاوزت استراحتنا هذه مدة ساعة واشتريت صحناً من حبات الصبر وعدنا إلى البيت لتصل بعدنا بقليل الطاولة والكراسي فوضعتها على شرفة البيت، وأخذت أمي تتلمسها قائلة: «يعمر بيتك يا سهام أيشو تعرفين تشترين كراسي كويسة». وأمضينا تلك السهرة على الشرفة حيث وضعت اللابتوب أمامها وتحدثت عبر السكايب مع بعض إخوتي وبناتي.

وفي اليوم التالي زارتنا صديقتي الغالية الدكتوره وأمضينا وقتاً جميلاً فأعلمتها أنني بصدد السفر إلى مشتى الحلو لتمضية إجازتي مع أمي وماريا في تلك المناطق الجميلة، وبخاصة أن الطقس هنا بدمشق حار وقد تستفيد من تغيير الجو فنبهتني على موضوع يتعلق بمرضى الزهايمر بقولها: «إذا تم تغيير مكان نومهم والأشياء الخاصة بهم والتي اعتادوا رؤيتها وألفوا استعمالها يصيبهم اضطراب في التركيز ويضطرب نومهم لعدة أيام حتى يستأنسوا للوضع الجديد الذي ينقلون إليه».

زيارة مشتى الحلو

في صباح اليوم التالي غادرنا دمشق متوجهين إلى مشتى الحلو حيث لاحظت بعض آثار التخريب الذي لحق في بعض الأماكن، على جانب الطريق من خلال بعض المشاهدات، وبالرغم من ذلك فقد دخلنا إلى إحدى الاستراحات بمنطقة النبك واشترينا الكعك والنمورة والخبز السياحي من أحد الأفران بمكان يسمى (تحويلة حمص وأذكر بأن اسمه «الفانوس»).

كان وصولنا إلى البيت في مشتى الحلو قرابة الثالثة بعد الظهر حيث وجدت (أبو إبراهيم) وزوجته (أم إبراهيم) بانتظارنا. وعندما دخلت أمي إلى البيت أخرجت مسبحتها وتلت صلاتها وتجولت في البيت وهي تسألني (ايمتا عملتين كل هالشغل الحلو - كتير حلو - شو طيب الهوى هون).

وكان الهواء قوياً بعض الشيء لأنها عندما خرجت إلى الشرفة المطلة على جبل السيدة ومنتجع مشتى الحلو نادتني «سهام خلينا نعبر جوا انقفلتوا من البرد»، فضحكت ولم يعرف (أبو إبراهيم) وزوجته معنى ما قالته فأوضحت لهما أنها قالت «انقفلتوا من البرد» كما لو أنها قالت (متُ من البرد).

وفي تلك الليلة استيقظت أمي عدة مرات، وجلست على الكنبة المواجهة للشرفة تتأمل الجبال المقابلة التي تنتشر في أحضانها تلك القرى الجميلة الهادئة والتي تزينها إنارة الكهرباء، فتبدو كالنجوم المعلقة في الأفق القريب.

كنت قد وضعت في ذهني أن أستغل كل دقيقة نقضيها في بيت المشتى لإسعادها والاهتمام بها، لذلك وضعت برنامجاً يومياً لتنفيذ ذلك، حيث اصطحبتها بعد الإفطار إلى قمة جبل السيدة وأدينا الصلاة في كنيسة السيدة التي تتربع قمة الجبل المشرفة على تجمع قرى الكفرون، والمطلة من الجهة الغربية على البحر الأبيض المتوسط، ومن الجهة الشرقية على قمة جبل القصير التي تزينها غابة الكستناء. وبعد أداء الصلاة أشعلت أمي الشموع مع

الدعوات لأولادها، وأشعلت شمعتين، وقالت: «هذه عن الرئيس وهذه عن سورية الله يحميها». وانتقلنا بعد ذلك إلى الكافتريا الموجودة على السفح الشرقي والمشرفة على مشتى الحلو فقالت: «شو حلوة هالقعدة متل يلي قاعد بالطيارة»، وفعلاً كان معها الحق بقول ذلك.

أمضينا ساعتين في جو ساحر عدنا بعدها إلى البيت، وكان وقت الغداء حيث اتصلت بمطعم البانوراما الذي لا يبعد عن البيت أكثر من /٢٠٠/ متر تقريباً بجانب منتجع مشتى الحلو، وحجزت طاولة مشرفة على الوادي الرائع المكتسي بحلة خضراء من أشجار الزيتون والسنديان وأشجار الفواكه المختلفة الأصناف والأنواع، فتناولنا غداءنا في ذلك المطعم وكانت بغاية السعادة، تبادلنا الأحاديث وقصت علينا بعض الحكايات عن طفولتها ولم تنسَ بين الحين والآخر أن تذكرنا بتناول الطعام بقوله «كلو ليش مو تاكلون ايش طيب هالمطعم، ووجهت كلامها لي اتصلي مع إخوتك يجوا عندنا».

وبعد أن تناولنا الغداء عدنا إلى البيت وبسبب السعادة التي غمرت أمي في هذا اليوم قلت لها سنذهب غداً للغداء في مطعم نبع العروس، وكان انقطاع الكهرباء يذكرنا بحياتنا في المالكية في مرحلة الطفولة فكنت أشعل الشموع واشتريت وسائط إنارة حديثة (شاحن) فكانت تقول: «خليهم مشعولين هلق تنقطع الكهربا».

وما بين انقطاع الكهرباء وعودتها كنت أبادلها الحديث وأسألها عن الماضي بالإضافة إلى تحضير الطعام وتناول ثمار التين والعنب الطازج الذي يأتي بهما (أبو إبراهيم) وأخوه الكبير (أبو يامن) أحياناً، وأما (ماريا) فكانت تهتم بجدائل شعرها وتنسقها على الطريقة الأفريقية، إضافة لقيامها ببعض الأشياء والأعمال البسيطة في البيت، فقد كنت أقوم بكافة أعمالها لأريحها بعض الشيء ولرغبتي في خدمة أمي بنفسي، وكان هذا الأمر يسعدها كثيراً وبالوقت نفسه لا يزعج خادمتها.

صباح اليوم التالي وبعد الإفطار في شرفة البيت قالت أمي: «سهام أين نروح اليوم نشم الهوى ونمشي شوي»، فسمعتها (ماريا) التي عقبت بقولها: «ماما أم حنا تعودت تطلع مشاوير ما بقى ترضى تقعد بالبيت»، فأجبتها على مسمع أمي وأخبرتها بالبرنامج لذلك اليوم، بأننا سنتناول طعام الغداء في مطعم نبع العروس، وفي المساء سنقوم بزيارة بيت (أبو إبراهيم) في قريتهم القريبة لتتعرف أمي على والدته (أم منير)، وعندما سمعت أمي ما قلته عقبت قائلة: «كويسو نروح وين ما تريدين بس بالزيارة مو نطول نرجع خفيف للبيت».

وبالموعد الذي اتفقت عليه مع بيت (أبو إبراهيم) التقينا في مطعم نبع العروس الرائع الذي يقع في أسفل الوادي على منبع النبع المسمى باسمه، وهو لا يبعد عن البيت أكثر من كيلو متر واحد والحق يقال إنه من أجمل الأماكن الطبيعية التي رأيتها.. وعندما جلسنا حول الطاولة نظرت أمي إلى المياه النقية الصافية المتساقطة كالشلال الصغير بجانبنا، وقالت: «كتير أنا مبسوطة هون وإيش مياهه صافية متل نهر دجلة»، وبدت السعادة وملامح السرور على وجهها عندما شاهدت بعض الصبايا والشباب ممن يتناولون الغداء في المطعم يتركون أماكنهم أحياناً ويشاركون بالدبكة على أنغام الأغاني الشعبية، فكانت تصفق لهم وهي جالسة على الطاولة ويبدو أن مشهد حلقة الرقص والدبكة الشعبية الجميلة قد أحيت ذاكرتها، فكانت تصفق وتبتسم لهم وتحييهم بالتلويح بيدها، وقد لاحظ (أبو إبراهيم) حالة السعادة التي غمرتها، فبادر للمشاركة بالرقص والدبكة مع ابنته (سنا) قرب الطاولة التي نجلس حولها فأخذت أمي تهتز على كرسيها وترفع يديها للأعلى تصفق لهما.

حقاً إنها من أجمل الساعات التي قضيتها برفقتها وعندما هدأت الموسيقى وعاد كل شخص إلى طاولته لإكمال طعامه، فاجأتني بقولها «الدبكة يلي دبكتوها هي دبكة علوية» فقام إليها وقبل رأسها وقال لها «والله صحيح مئة بالمئة»، فسألتها: من أين تعرفين هالكلام؟ قالت: «أي أنا أعرفها من يوم

عرسي».. (كان أبو حنا –الله يرحمه– عندما تزوجنا يخدم بالجيش الخدمة الإجبارية، واتفقت العائلتان –عائلتي وعائلته– على يوم العرس.. وبيوم العرس عزم رفقاتو يلي عم يخدمون الجيش معه وكانت حفلة العرس حلوة كتير والناس يلي حضروا العرس كانوا يدبكون ويرقصون عالطبل والأرغول، وعندما وصل رفقات (أبو حنا) استقبلهم وجلسوا بين عائلتينا وبعدما أكلوا وشربوا قاموا يمسكون بيد بعضهم وبلشوا يدبكون، وإيش أحكي يا عمي..

كل الناس بالعرس وقفوا يتفرجون عليهم، وإيش كانت دبكتهم طيبة، وكان العريس (أبو حنا) جالس جنبي، فسألته: من أين رفقاتك يلي عم يدبكوا فجاوبني هدول أحبهم كتير ويحبوني هدول من الساحل، فسألته يعني مسيحيين: قال لا علويين، فقلت له الله يخليهم شو طيبة دبكتهم يعني دبكتهم دبكة علوية، فضحك من كلامي وقال ليش فيه دبكة مسيحية ودبكة علوية هلق أسألهم، وقام يدبك معهم وحكالهم إيش قلت له فضحكوا واقتربوا مني ودبكوا أمامي ومسكوني بيدي، وقمت دبكت معهم).

وكانت ملامحها وهي تروي قصتها وكأنها تعيشها لوقتها، وترحمت على (أبو حنا) وعليهم قائلة: «ما بعرف ماتوا أو بعدهم طيبين الله يرحمهم إذا ماتوا ويعطيهم الصحة إذا بعدهم طيبين» ثم أكملنا غداءنا وعدنا إلى البيت.

في المساء ذهبنا إلى الساحة الرئيسية المعروفة باسم (ساحة المشتى) وبصعوبة مشينا بين الناس من شدة الازدحام، حيث كانت شوارع المشتى وساحتها والطريق الممتد بين الساحة والمنتجع مليئة بالسائحين من أبناء المحافظات الأخرى وبأهالي الناحية وبالشباب والصبايا، ولا أبالغ بالقول إنني قدرت عدد الأشخاص بأكثر من عشرة آلاف، حيث تنتشر الكافتريات على جوانب الساحة وعلى جوانب الطريق والأرصفة، وبالرغم من هذا الازدحام لم تحصل أية مشكلة ولم أسمع بأن شاباً أساء لفتاة، فأين نظرت وكيف سألت تسمع عبارات الترحيب وترى الابتسامة مرتسمة على الوجوه. فسألت أمي

حينها: إيش رأيك بالقعدة هنا، فجاوبتني «خلينا نروح خفيف للبيت إيش هالزحمة وهالناس كتير حولنا خلينا نروح البيت أستر وأريح وأحس» فقال لها (أبو إبراهيم): «بدنا ناكل بوظة وعرانيس الدرا»، وهذا ما حصل، وبعد أن تناولنا البوظة وشربنا القهوة مشينا بصعوبة باتجاه البيت وبوصولنا دعانا (أبو إبراهيم) لزيارتهم في اليوم التالي إلى تناول الغداء عندهم.

جلسنا على شرفة البيت نستمع للأغاني والموسيقى المنبعثة من مطعم البانوراما، وحينها سألت أمي «شو رأيك بالحياة هنا وهل هي أحسن من الحياة في السويد أو من الحياة في البرازيل»؟ أجابتني: «كل ساعة هون تسوى السويد والبرازيل يا بنتي بلدنا وناسنا أطيب يزورونا ونزورهم وسورية أحسن منها ما فيه بكل هالدنيا»، فقبلتها وخلدنا إلى النوم.

عند الصباح كانت تمشي من غرفتها إلى الشرفة وتنادينا لنجلس معها وبعد أن تناولنا طعام الإفطار، قلت لها: «أمي اليوم معزومين عالضيعة لبيت (أبو إبراهيم) نتغدى عندهم وتتعرفين على أمه (أم منير)»، فقالت: «إي شو عليه نروح نتغدى عندهم شو ناس كويسين». وبعدها ذهبت إلى الساحة واشتريت مياه الشرب المعروفة باسم (مياه الدريكيش)، ثم اتصلت بصاحبة صالون حلاقة تعرفت عليها سابقاً التي جاءت إلى عندنا في البيت وقامت بقص أظافرها وتصفيف شعرها.

وفي الثانية بعد الظهر اصطحبتها وماريا وذهبنا إلى (قرية بسدقين). حيث استقبلنا (أبو إبراهيم) ووالده (أبو منير) و(أم منير) وكامل أفراد العائلة، وأمضينا في ضيافتهم عدة ساعات، وبعد مغيب الشمس قالت أمي: «خلينا نروح بيتنا أحسن ما نمشي بالليل»، وخلال تلك الزيارة تحدثت (أم منير) لأمي عن أيام الماضي وعن العادات في تلك المناطق فهي تتمتع بذاكرة غنية وتحفظ الكثير من الأشعار والأغاني والحكايا الجميلة، وقد أضفت على الجو الكثير من المتعة والسعادة، وكانت أمي تتجاوب معها في الحديث، وخلال حديثهما

سألتها أمي عن عمرها وعن أولادها وماذا كانت تعمل في حياتها..الخ من أحاديث تدور بين امرأتين متقاربتين في العمر، وعندما ركبنا السيارة عائدين إلى البيت قالت أمي (أم منير) أكبر مني هي ختيارة أكتر لكن كلامها طيب ولم تنسَ أن تقول لها عندما ودعتها «تبقي زورينا للبيت في المشتى نحن قاعدين كم يوم بعدين نروح للشام».

خلال العشاء قالت أمي لـ (أم منير) تعالي عندنا بكرا نطلع نصلي ونزور الكنيسة على جبل السيدة، فاعتذرت لها لأنها وحدها في البيت ولديها أعمال وستذهب لقطاف التين والعنب باكراً، فسألتها «أين زوجك ليش مو يروح معك يساعدك»، فأجابتها: «(أبو منير) مريض مو يقدر يروح إلى الأرض، فدعت له بالشفاء».

أما (ماريا) فكانت سعيدة أكثر منها بسبب الاهتمام والاحترام الذي أحاطوها به وبخاصة (أبو منير) و(أم منير) والأولاد فأحبت المنطقة وأحبت أن نبقى فيها أطول وقت ممكن.

لقد كانت تلك الأيام في غاية الروعة ويبدو أن أمي استعادت نشاطها وحيويتها بسبب تغيير مكان نومها وبسبب الهواء النظيف، فكانت تنام قليلاً وتستيقظ لتمشي من غرفتها إلى شرفة البيت أو توقظ خادمتها لتسهر معها. وقد أمضينا تلك الرحلة إلى المشتى بكل سعادة فقد أمضينا من الوقت خارج البيت أكثر مما أمضيناه داخله، وكانت تحب الذهاب إلى قمة جبل السيدة والصلاة في كنيستها كما أحبت المشي على الرصيف الممتد بين الساحة الرئيسية والمنتجع.

في اليوم التالي لزيارتنا اشترينا خاروفاً كقربان عن أرواح المتوفين من عائلتي (والدي وإخوتي)، وفداء عن عائلتي (زوجي وابنتي وأحفادي)، فصعدنا إلى قمة جبل السيدة حيث تقربنا به إلى الله أمام الكنيسة وتم توزيع قسم منه

على بعض العائلات الفقيرة وأعددت وليمة في البيت، وهذا ما كان مصدر سعادة لأمي التي قالت: «الله يرحم (أبو حنا) كان كتير يحب متل هالعمل الكويس ويحب يطعم الفقاري».

وأعددت طعام العشاء بمناسبة عيد السيدة الذي يحتفلون به مساء الرابع عشر من آب في كل عام بتلك المنطقة، حيث تكتظ المنطقة بأبنائها وبالزوار الذين يتوافدون إليها من شتى المناطق السورية، وتقام الاحتفالات طوال الليل في قمة الجبل وساحات المشتى وقرى الكفرون، حيث تتشعب تسمية الكفرون إلى ستة تجمعات سكنية متجاورة: (كفرون سعادة، كفرون زريق، كفرون بدرة، كفرون رفقة، كفرون حيدر، كفرون بشور)، وفي المقاهي والمقاصف المنتشرة في المنطقة وخاصة في منطقة وادي النصارى وبالتحديد في مرمريتا وهي مناسبة يجتمع فيها المسيحيون والمسلمون في تلك المناطق وتأتي الفرق الفنية والفنانون الكبار المعروفون في سورية ولبنان لتعيش المنطقة الأفراح لعدة أيام حتى تحولت هذه الاحتفالات إلى مهرجانات سنوية.

وكما هي العادة أن نذهب صباحاً إلى الكنيسة في قمة الجبل أعطيت مفتاح السيارة للخادمة وقلت لها: «ضعي الأغراض في السيارة»، فلحقت بها أمي بينما كنت أغلق النوافذ وأثناء خروج أمي من الباب شاهدت امرأة كانت تسكن مع زوجها بالشقة الملاصقة، حيث ألقت عليها تحية الصباح قائلة: «صباح الخير جارتنا ليش مو نشوفكم تبقي زورينا تفضلي عندنا، هلق رايحين نزور الكنيسة ولما نرجع نشوفك»، حيث سمعت الخادمة هذا الكلام بينهما وأخبرتني به في الوقت الذي ساعدتها في الوصول إلى السيارة التي لا تبعد عدة خطوات عن باب البيت، ثم لحقت بهما وأخذتهما إلى الكنيسة على قمة الجبل، وأمضينا بعض الوقت داخل الكنيسة في الصلاة وإشعال الشموع وتبرعنا ببعض المال ثم أخذتهما في جولة سياحية إلى قرى الكفرون المتجاورة

والمجاورة للجبل، وبعدها ذهبنا إلى صالون الحلاقة في المشتى، وكانت تحب الاعتناء بشعرها والاهتمام بأناقتها.

ثم عدنا إلى البيت وبعد أقل من نصف ساعة قُرع باب البيت وإذا بتلك المرأة التي حدثتها أمي صباحاً تقف بالباب، وكانت المرة الأولى التي أشاهدها عن قرب ولم أكن أرغب التعرف عليها، لأنني شاهدتها تضع العلم ثلاثي النجمات الذي رفعه الإرهابيون على شرفة بيتها في إحدى أيام الجمعة. فنظرت إليها لأنني تفاجأت بها حين قالت: «أمك عزمتني عندما خرجتم من البيت صباحاً وقالت لي ليش مو تزورينا»، فشعرت بالخجل منها ودعوتها للدخول.

وكانت أمي تجلس في الصالون فسلمت عليها وجلست مقابلة لها، وهنا المفاجأة الثانية عندما سألتها أمي «منو أنت إيش بدك» وهذا ما أحرج زائرتنا التي أجابت: «أنا جارتك وانت عزمتيني الصبح أزورك» فقالت لها "ما شفتوك ولا عرفتوك-(ماريا) هاتو شاي خاطر جارتنا". عندها فهمت الأمر فشرحت لها بأن أمي تعاني من اضطراب الذاكرة (الزهايمر) وهي تنسى أحياناً ما تقوله، وبعد مغادرتها قلت لأمي «ماما أنت عزمتيها لتأتي عندنا» فأجابتني: «يابو كلمة وقلناها... قلنا كلمة وهي صدقت، وإذا قلت لها تفضلي عندي شو ضروري تجي» وضحكت، وكان هذا الحوار بمثابة النكتة المضحكة لماريا التي ضحكت على هذا الموقف عن سنة كاملة.

ومما أذكره أنه قبل مجيئي إلى دمشق اتصلت معي ابنة خالي جميلة وطلبت مني مساعدتها في نقل زوجها (ماجد رشكو) إلى أحد المشافي لدمشق لإجراء عمل جراحي طارئ، وبدوري اتصلت مع الأصدقاء وبمساعدتهم تم نقله من الحسكة إلى مشفى البيروني قرب حرستا وجاءت معه زوجته ابنة خالي جميلة من أجل العناية والاهتمام به خلال فترة معالجته وذلك بعد عدة أيام من وصولي من السويد.

وفي مساء ذلك اليوم تلقيت اتصالاً من ابنة خالي التي أخبرتني أنها بدمشق ترافق زوجها، وبأن وضعه الصحي ليس على يرام، فقررت قطع إجازتنا التي نمضيها في مشتى الحلو والعودة إلى دمشق.

وصول كبرييل إلى دمشق

في تلك الفترة وصل أخي كبرييل إلى دمشق قادماً من البرازيل، وهكذا حزمنا أغراضنا الشخصية وعدنا مباشرة بعد عيد السيدة بيوم واحد في ٢٠١١/٨/١٦، وبوصولنا إلى البيت جاءت ابنتا خالي جميلة وأختها بهية لزيارتنا ورؤية عمتهما، وأذكر أنها حين دخلت البيت عرفتها أمي التي لم ترها منذ أكثر من ثلاثين سنة فسألتها: هل تعرفينها؟ فأجابتني: «يا بو عرفتوها جميلة كيف مو أعرفها بنت أخي شكرو». فقالت لها بهية: وأنا بهية، فقالت لها: «عرفتوكي كمان». وسلمتا عليها واستقبلتهما بحرارة وسعادة بالغة وبادلتهما الحديث وسألتهما عن أحوالهم وأولادهم وعن أخيها شكري، وبدت عليها علائم السرور بوجود ابنتي أخيها عندها. حيث أمضينا عدة ساعات ما بين فرحة اللقاء والحزن على ما آلت إليه صحة ماجد في المشفى، فذهبت بعد الظهر لزيارته وكانت حالته ليست على ما يرام بشكل عام، وحينها شكرني لزيارتي وعلى (الكنافة النابلسية) التي أخذتها معي وأكل منها بحضوري، وقال لزوجته جميلة بعد مغادرتي إنه شعر بالسعادة كثيراً لرؤيتي.

وبتاريخ ٢٠١١/٨/١٨ زادت حالته الصحية سوءاً حيث فارق الحياة مساءً فذهبت مع أخي كبرائيل و(أبو نورس) وبقينا لساعة متأخرة في المشفى، كما جاء الدكتور سنحريب جمعة والخوري كبرائيل يوسف.. وعبود الذي يشرف على منزل الوزير دنحو داوود بدمشق وتم نقل جثمانه بساعة متأخرة عن طريق البر إلى المالكية، بينما حجزت بطاقتي طائرة باسمي وباسم أخي كبرائيل إلى القامشلي وسافرنا وحضرنا الجناز الذي أقيم على روحه في كنيسة المالكية، وأمضينا فيها ثلاثة أيام ثم عدنا إلى دمشق بتاريخ ٢٠١١/٨/٢٢...

أمضى أخي كابي أكثر من عشرة أيام برفقتنا في البيت وبرفقته ذهبنا وتبادلنا الزيارات مع الأصدقاء بحضور أمي التي سعدت بوجوده، كما أنه سافر مرتين ما بين دمشق واللاذقية لزيارة أصدقائه بالرغم مما كنا نسمعه من أخبار مخيفة عن حوادث الخطف والقتل ومخاطر الطريق.

وإن ما زاد من صعوبة الأمر عند وفاة ماجد -رحمه الله- هو الحوادث المؤسفة التي بدأت تزداد حدتها في أكثر من منطقة من سورية، وبدأنا نسمع عن حوادث الخطف والقتل على الهوية في بعض المناطق، وكنا أثناء جلوسنا في البيت أو على شرفته نسمع تبادل إطلاق النار وأعمدة الدخان الأسود نتيجة استهداف المجموعات الإرهابية المسلحة لبعض المعامل والمصانع في ريف دمشق بمنطقتي الحجر الأسود والقدم والغوطة الغربية، حتى أنني ذهبت بالسيارة لأشاهد بأم عيني ما كنت أشاهده على شاشة الفضائيات من قيام المتظاهرين بالاعتداء على رجال الأمن والشرطة وبخاصة بعد صلاة يوم الجمعة، فذهبت للمرة الثانية إلى منطقة الميدان والقاعة بدمشق حيث شاهدت عدداً من الأشخاص يهتفون ويكبّرون لحظة خروج المصلين من الجامع، وتكرر المشهد أمام جامع آخر يقع على دوار كفرسوسة. إضافة لسماعي العديد من انفجار العبوات الناسفة داخل المدينة.

ورغم كل ذلك كان الناس يخرجون بمسيرات التأييد للدولة وللعلم العربي السوري بعشرات الآلاف وكانت الأسواق تضج بالمواطنين، وكانت أمي تشاهد وتسمع وهي جالسة بجانبي ما أشاهده وأسمعه فقالت لي: «ليش عم يحاربو الرئيس.. رمادي براسهم.. هو أحسن منه بالعالم ما فيه، الله ينصره عليهم»، وأمسكت بصورة لجبل قاسيون ودمشق أحضرتها خصيصاً لها، وتبدو الصورة وكأن المسيح عليه السلام يحمي دمشق ويحيطها مع جبلها بين يديه والدعاء بالنصر والصحة للرئيس بشار الأسد، فأشعلت شمعتها وبدأت تصلي لأجل حماية سورية ورئيسها الذي كانت تحبه كثيراً.

وفي هذه الفترة لاحظت بأن (ماريا) قد ازدادت قلقاً وأخذت تقول إنها اشتاقت لأبيها وإخوتها فوعدتها أنني سأعمل جهدي لمساعدتها بالسفر، فقالت لي: "إنها تريد إجازة لمدة شهر وستعود إن استطعنا تأمين موافقة عودتها، وتقديراً مني لتعبها وخدمتها لأمي عمدت إلى زيادة راتبها لتبقى مجتهدة في عملها وخدمة والدتي، وهذا ما شجعها على البقاء ريثما أستطيع تأمين سفرها وضمان عودتها لخدمة أمي، كما أن زيادة راتبها زادت من رغبتها بالعودة لخدمة أمي فوعدتها أنني سأعطيها أكثر مما أعطيته لها في حال صدقت معي ورجعت بعد زيارتها لوالدها لمدة شهر.

هذا وقد سافر أخي كبرييل إلى البرازيل عن طريق الإمارات في اليوم التالي لعودتنا من القامشلي عائداً إلى البرازيل، بينما بقيت بعده لثلاثة أيام وكنت كل يوم أصطحبها لمكان جديد في أسواق دمشق واشتريت لها الكثير من الثياب، وكنت ألتقي يومياً بالأصدقاء الذين لم ينقطعوا عن زيارتنا.

خلال هذه الرحلة اصطحبتها لمعالجة أسنانها عند الدكتور رياض مقابل مشفى المجتهد، حيث وجدت صعوبة بالنزول إلى العيادة الكائنة في قبو البناء بسبب الدرج غير المريح المؤدي إليها، فساعدتها في نزولها وصعودها، وحينها قلع لها الدكتور ضرسين من أضراسها كانا يؤلمانها فشكرته لأنه لم يؤلمها، ووعد أن يتابع لها العلاج في البيت واستكمال قلع بعض الأسنان الأمامية وتركيب أسنان بديلة تمكنها من تناول الطعام ومضغه دون ألم.

لم تشعر أمي أبداً أنها بمفردها فكانت تشاهد يومياً تسجيل حفلة عرس ابنتي يلدا وحفلة عرس ابنتي مليسيا وتشاهد أولادها والأصدقاء الذين تعرفهم وتسميهم بأسمائهم، وتعلق أحياناً وتسرد حديثاً سبق أن سمعته من أحدهم، إضافة للاتصالات شبه اليومية بالسكايب معي عندما أكون في السويد وهذا ما كان يدخل السرور إلى قلبها.

أما أنا فبدأت أعد العدة لعودتي وبالوقت نفسه التفكير بإجازتي القادمة لتكون بمناسبة أعياد الميلاد ورأس السنة.

وكنت بالوقت نفسه كغيري من السوريين أتابع الأخبار اليومية والمتسارعة لكل ما يحصل داخل سورية وخارجها وأدخل في نقاشات وتحليلات وسجالات مع الأصدقاء الذين ألتقيهم بشأن المواقف الإقليمية والدولية. وذهبت بزيارة إلى جريدة (الوطن) السورية والتقيت برئيس التحرير فيها الذي سبق وأرسل أحد الصحفيين العاملين في الجريدة الذي أجرى لقاء مع أخي كبرييل بصفته القنصل الفخري لسورية في البرازيل، وكانت الغاية من الزيارة لجريدة (الوطن) هي للتواصل مع الجريدة ونشر مقالات فيها.

في اليوم التالي اصطحبتهما إلى المول (تاون سنتر) واشتريت عدداً من الأغطية لسرير المنامة وعدة وسائد وبطريق عودتنا تناولنا الغداء في أحد المطاعم بالطابق الأرضي في مول شام سنتر بكفرسوسة، ثم عدنا إلى البيت فقالت: «بكرا تسافرين السويد سلمي على شابو والبنات وقولي لأخوك منتاز يجي عندي أشوفه منتاز صغير كلميه يجي عندي خفيف».

هذا وقد أمضيت طيلة نهار اليوم التالي معها في البيت تارة نصلي وتارة نغني وأخرى نلعب الورق، وقد أعددت لهما الكثير من المربيات والكليجة وشاركتني في تجهيز طبخة المدفونية، وأثناء الغداء طبخت لها شرائح السمك والخضار، فكانت تقول «مسكينة السمكة تسبح كتير في البحر بعدين تجي عندنا نطبخها وناكلها»، وتحدثت عن أسماك نهر دجلة ولذة طعمها وكم كانت مع والدي يأكلان من أسماكه خلال الفترة التي عاشاها في المالكية.

عند المساء حضر الأصدقاء مودعين وتبادلنا الحديث حول الأوضاع العامة إلى أن جاء موعد الانطلاق إلى المطار، فودعت أمي التي قالت: «روحي العدرا تحميك ولا تتأخري عني يابو». فغادرت البيت وقلبي مطمئن

عليها. وهكذا غادرت دمشق بتاريخ ٢٠١١/٨/٢٦ بالساعة الرابعة والنصف فجراً، حيث وصلت إلى مطار استوكهولم عند الظهر تقريباً، وكما هي العادة اتصلت وتحدثت مع أمي التي هنأتني بوصولي بالسلامة فوعدتها أنني سأكون عندها خلال عطلة عيد الميلاد.

اشتداد الحرب على سورية

وكم كانت تلك الأيام تشابه ما سبقها في كل مرة أعود فيها من دمشق، وللحقيقة أقول إن الشعور بالقلق يرتفع إلى مستوى كبير عندما أكون في السويد، ليس القلق فقط لأن أمي موجودة في دمشق فحسب، وإنما القلق على كل شيء في بلدي سورية التي تشهد أعتى أنواع الحروب الإعلامية المعادية والأكاذيب في الأخبار، وفبركة مشاهد ومقاطع مؤلمة لأطفال ونساء مقتولين، وتزوير حقائق، فالحرب التي تستهدفها متكاملة بكل عناصرها السياسية والاقتصادية والإعلامية والإرهابية التخريبية، فكنت عند سماع أي خبر أو مشاهدة أي تقرير مصور أتصل لمنزل أمي أو مع الأصدقاء لأتبين الحقيقة، والواقع وكثيراً ما كانت أخباراً تحريضية وكاذبة، فقد سمعت في إحدى النشرات الأخبارية بأن المعارك تدور بمنطقة المزة والقتلى في الشوارع، فاتصلت إلى البيت ولسوء الحظ أنها لم ترد على الهاتف فانتابني الخوف من أن يكون ما أسمعه صحيحاً، فاتصلت مع الأصدقاء لأسأل عن أمي أولاً وعن الأخبار التي تتناقلها المحطات الفضائية في السويد نقلاً عن أقنية ومحطات الحرب على سورية (الجزيرة والعربية)، فضحك أحدهم قائلاً «أمك عم تمشي قرب مدينة الجلاء الرياضية وتشاهد مسيرة بالسيارات وتسمع الأغاني الوطنية وتلوح بيديها للشباب والصبايا الذين يركبون السيارات ويلوحون بعلم الجمهورية العربية السورية وصور الرئيس من نوافذ سياراتهم».

أعود للقول إن ذلك الشعور بالقلق كان ينعدم عندي عندما أكون عند أمي بدمشق، بالرغم من أن الأخبار هي ذاتها في عدائيتها وتحريضها والفبركات والأكاذيب الإعلامية المعادية لم تتغير من المحطات التي تقود الحرب على سورية، كنت أشاهدها أحياناً وهذا ما دفعني كثيراً لأداء واجبي الوطني الذي يفرضه انتمائي وتستوجبه هويتي، فكنت بين الحين والآخر أرسل بعض المقالات التي تم نشرها بجريدة (الوطن) السورية وبعض المواقع الإلكترونية وبخاصة (الرأي السوري)، وأشكر الله أن الآلاف من زوار الموقع اطلعوا عليها ونالت أكبر نصيب من التعليقات الهامة أغنت الأفكار التي تناولتها تلك المقالات.

لم تطل الأيام بنا فكم كانت سريعة ليقترب الشهر الأخير من العام فبدأت وكما هي العادة في التجهيز والإعداد لرحلة العودة إلى سورية، ومع ازدياد الضخ الإعلامي عن الأحداث تلقيت عدة نصائح بعدم السفر، فهذا يقول أصبحت الدولة على حافة الانهيار، وذاك يقول دمشق في خطر كبير، وحتى أن بعض قادة العالم ووزراء خارجية بعض الدول أخذوا يتسابقون في منح الشرعية أو انتزاعها عن القيادة السورية، فكنت أضحك من هذه الأخبار وأستخف حقيقة بتلك النصائح.

لقد كانت الخادمة أصدق منهم ففي كل مرة أسألها عن أمي وعن الأخبار في دمشق وأتحدث معها، كانت أمي تقول: «تعالي عندي ليش مو تجين هون سورية طيبة أحسن من العيشة فيها ما فيه»، لذلك لم أتردد لحظة واحدة في قرار السفر. فعمدت إلى ترتيب مواعيد عملي والتزاماتي العائلية والاجتماعية، والأمر الذي تطلب أن تكون إجازتي الشتوية هذه قصيرة المدة هو التزامي بحضور حفلة زفاف ابنة شقيق شابو، فكنت مضطرة للتفكير بقطع إجازتي في سورية قبل أعياد الميلاد والعودة إلى السويد لحضور هذه المناسبة

العائلية التي قلما يتم منح العذر لمن يتغيب عنها. وبالرغم من ذلك صممت على قضاء نصف إجازتي عند أمي في سورية، وأعلمت المكتب والدوائر المرتبطة معهم بأنني سأتغيب عن العمل بسبب السفر إلى سورية، واتصلت مع السيد فكتور الذي كان يعمل في بيع تذاكر لشركة الطيران السورية من خلال مكتب في مطار استوكهولم، وطلبت منه تأمين بطاقة سفر إلى سورية في أقرب موعد، فحجز لي بطاقة الطائرة للقدوم إلى دمشق بتاريخ ٥/١١/٢٠١١.

الوصول إلى دمشق للاحتفال بأعياد الميلاد

وفي هذا التاريخ وصلت مطار دمشق حيث وجدت الأصدقاء في انتظاري بمطار دمشق لكن وللأسف لم أجد إحدى حقائبي بين حقائب ركاب الطائرة، فاستلمت حقيبة واحدة من حقائبي بينما لم نعثر على الحقيبة الأخرى، فغادرنا المطار بعدما سجلت شكوى بفقدان الحقيبة، وتلقيت وعداً من موظفي المطار بالبحث عنها بحسب المتعارف عليه بمثل هذه الحالات، حيث وضعوا عدة احتمالات لعدم وصول الحقيبة التي ربما تركوها في استوكهولم أو أنزلوها في مطار حلب بالخطأ، وحصلت على إشعار لمراجعتهم في اليوم التالي.

وعندما وصلنا البيت وشاهدتني أمي التي كانت تجلس أمام التلفاز تتابع مسلسلاً تركياً فتحت لي ذراعيها ضاحكة كعادتها قائلة: «أهلاً وسهلاً وضمتني إلى صدرها»، فقبلتها وقبلت يديها واغرورقت عيناي بدموع الفرح والسعادة، فكم كانت تبدو عليها علائم الصحة النفسية والجسدية.

وطلبت وضع الطعام على الطاولة بعدما سألتني قائلة: «يابو تاكلين.. ناطرينك على الغدا»، وكم كنت أحب هذه العبارة عندما تلفظها (يابو)، فلم نتأخر في تلبية طلبها فالخادمة أعدت شرائح السمك مع البطاطا والصلصة وإبريق العصير، وتناولت طعام الغداء معهما، وخلال تناول الطعام لاحظت أنها كانت تنظر إلى الحقيبة بشغف فهي تعرف أن بداخلها هداياها التي

اعتادت أن تحصل عليها في كل مرة أعود فيها من السويد، لكنها شعرت بالصدمة عندما أخبرتها أن هداياها موجودة داخل الحقيبة المفقودة.

بينما بدأت أمي تسألني عن إخوتي وعن زوجي وعن ابنتي يلدا ومليسيا وأولادهما وعن أولاد أخي ممتاز في السويد فحدثتها عنهم وطمأنتها عن أحوالهم. وعند المساء كان الجو بارداً قليلاً، حينها قالت «أغلقي الشباك انقفلتو من البرد»، فقربت المدفأة منها وعندما شعرت بالدفء بدأت تردد بعض الأغاني القديمة التي تحفظ الكثير منها، وغنيت معها، وعندما أشعلت الشموع في أنحاء البيت أخذت مسبحتها بيدها وبدأت بترنيم الصلوات فشاركتها تلاوة قداس الصلاة.

وبعد العشاء أعطيتها الدواء وتابعنا قليلاً أخبار التلفزيون والمسلسل الذي كانت تتابعه وأعتقد أنه كان (حريم السلطان) وكثيراً ما كان يحفز ذاكرتها لتحدثنا عن ظلم العثمانيين لأهلها وأجدادها وللسريان بشكل عام مما سمعته من والدها ووالدتها وجدتها... وفي اليوم الثالث لوصولي.. تلقيت اتصالاً من قسم الأمانات بمطار دمشق أعلمني فيه أحد الموظفين بأن حقيبتي المفقودة أصبحت لديهم وبإمكاني استلامها أو إرسال الوصل مع أي شخص لتسليمها له حيث تولى صديقنا إحضارها وبوصوله البيت ابتسمت (ماريا) وفرحت بعودة الحقيبة.. كانت كافة محتوياتها موجودة بداخلها لم ينقص منها شيء.

معاناة السريان من العثمانيين

ومما حدثتني به أنها سمعت من جدتها ما فعله العثمانيون من جرائم بحق المسيحيين السريان في المناطق التي كانوا يعيشون فيها والواقعة داخل الأراضي التركية حالياً، وبخاصة في القرى والتجمعات السكنية المجاورة لبلدتها آذخ وفي آذخ نفسها، فطلبت منها أن تروي لي ما تحتفظ به ذاكرتها عن تلك الأيام وما سمعته من أهلها وجدتها تحديداً.. فقالت لي: «احفظي ما سأقوله وسأحكيه لك حتى تحكيه وتنقليه أنت لأولادك وأحفادك»:

«عندما كنت صغيرة كان رجال القرية يأتون لبيتنا لأن جدي كان مختار القرية وبعد وفاته أصبح والدي المختار، وكانوا يجلسون حوله مثل الحلقة وكانت أحوال الناس صعبة ويتحدثون بخوف عن الفرمان الذي أصدره السلطان وكنت أستمع لأحاديثهم وأحفظ عنهم حكاياتهم»، وأكملت بقولها:

وصل خبر الفرمان إلى مختار القرية من خلال شخص كان يعمل بالتجارة، وهذا الشخص كان يشتري القمح والحبوب الأخرى من الحمص والعدس والفول ويأخذها إلى استنبول، ويأتي منها بالأدوات المنزلية والأشياء الشخصية التي لم تكن متوفرة آنذاك في تلك المناطق ومنها (المرايا، الأمشاط، الصابون، الطناجر، الطاسات النحاسية، أدوات الطبخ) التي كانت شائعة ذلك الزمن.

لقد نقل ذلك الشخص إلى جدي المختار بأن السلطان أصدر فرماناً لمهاجمة البلدات والقرى المسيحية السريانية وتهجير أهلها واعتقال رجالها ونقلهم إلى استانبول وسوقهم إلى الحروب التي كانت تحصل كل فترة بين الدولة العثمانية وخصومها، وبوصول هذا الخبر اجتمع أهالي القرى وبدأ الرجال والنساء والصغار والكبار ببناء سور حول القرية آذخ، وما هي إلا عدة أسابيع حتى وصلت قوات السلطان إلى المنطقة في الوقت الذي أنهى فيه الأهالي بناء السور، وفي هذه اللحظة اختنقت عباراتها وانهمرت عبرتها وأجهشت بالبكاء فبكيت لبكائها حيث فاجأتني (ماريا) بسؤالها: ماما ليش عم تبكي؟ وهي تبكي وتمسح دموعها بالوقت نفسه، فأدركت أنها لم تفهم الكثير مما تقوله أمي. وبعد هذه اللحظات المؤثرة تابعت حكايتها قائلة:

«بدأ الجنود الأتراك يضربون السور الذي أشاده الأهالي حول القرية بالمنجنيق محاولين هدمه أو فتح طاقة (ثغرة) فيه وكانوا يطلقون الرصاص من بواريدهم.. أما رجال القرية فكانوا يمنعونهم من الاقتراب من السور بواسطة عدد

من البواريد القديمة التي كانت عند بعضهم وكثيراً ما يلقون عليهم الحجارة من أعلى السور أو يضربونهم بالمقلاع، وكانت النسوة تساعدهم بتحضير الطعام وتجميع الأطفال الصغار في منازل محمية بجدران عالية مبنية من الحجارة الكبيرة، وبسبب تعاون الأهالي عجز العسكر العثماني عن دخول القرية».

وقالت: «إن العدرا (عليها السلام) دافعت عن القرية وأن بعضهم رآها، لأن القوات العثمانية بعد عدة أيام من الحصار ومحاولتهم اقتحام السور بدؤوا يهربون ويبتعدون عنه وهم يصرخون فزعاً ظناً منهم بوجود أعداد كبيرة من الرجال يدافعون عن القرية، حتى أن بعضهم كان يصرخ قائلاً: «اهربوا... اهربوا الملائكة ظهرت فوق السور»، وهكذا فشلت هذه الحملة العثمانية في اقتحام القرية» ثم قالت: «كانت ماما تحفظ الكثير من الحكايات عن الظلم الذي وقع على السريان».

لقد كانت قصة حزينة جداً وبخاصة أنها حدثتني بها وهي تلملم بقايا ذكرياتها وتجهد في إيجاد الألفاظ والعبارات المناسبة، وكثيراً ما استخدمت التعبير بيديها للدلالة والإشارة على موقف معين أو حادثة تحاول التعبير عنها أو التعبير بالصوت في حالات كثيرة عندما عبرت عن صوت سقوط أحجار المنجنيق على المنازل أو صراخ النساء والأطفال كل ذلك كان مترافقاً مع الدموع التي ذرفتها عيناها.

ومن الصور الخالدة في ذاكرتي هي أنها عندما كانت تتحدث بأي موضوع ذي طبيعة عائلية أو اجتماعية تشبك أصابع كفيها ببعضهما وتضمهما وتحرك إبهامي أصابعها بحركة دورانية خلف بعضهما، وكأن تلك الحركة كانت تسعفها في استحضار ذكرياتها أو أنها تعبير عن قلقها من خطأ قد يعتري حديثها، وأحياناً تستبدل هذه الحركة بحركة أخرى عندما كانت تضع كف يدها اليمنى فوق ظهر كفها الأيسر بلطفٍ وهدوء وتبدأ بالتربيت الخفيف ليتناهى إلى سمع جليسها صوت كأنه نغم موسيقي حزين.

هذه بعض الصور التي ترسخت في مخيلتي وحفرتها كلماتها في أعماق ذاكرتي والتي سترافقني بقية حياتي.

لقد كنت كمن يستفيق من حلم جميل بعد كل حديث تحدثني به وبعد كل حكاية أسمعها منها لأنني وأنا أصغي إليها كنت دائمة التفكير برحلة الحياة وتقلباتها، فبالأمس القريب كانت بكامل نشاطها الجسدي والذهني فيمر شريط صورها في مخيلتي عندما كانت تسافر برفقة والدي أو بمفردها بين سورية والسويد أو بين السويد والبرازيل تسحب حقيبتها خلفها وتحمل الهدايا لأحفادها، أو أراها وهي تتصدر صالون البيت تتحدث للحضور من الضيوف بالسياسة وبمختلف الشؤون العائلية، وتروي حكايا وقصصاً ورثتها ذاكرتها عن أهلها وأجدادها، ثم استفيق مما أفكر به لأراها أمامي جليسة البيت ضعيفة القوى بالقياس لسنوات خلت ليست بالبعيدة عن وضعها الذي كانت فيه برفقة خادمة أثيوبية لم تقصر في خدمتها يوماً، لكنها بالتأكيد ليست ابنتها أو حفيدتها فتغلبني دموعي وأشيح بوجهي عنها حتى لا تراني أبكي بصمت فكنت أخاف أن يؤذيها منظري وأنا باكية عليها لأنها بذكائها وفطرتها ستعرف السبب.

وكم تذكرت وأنا في هذه الحالة كلمات بعض الأقارب والكثير من الأصدقاء ونصائحهم وتمنياتهم بأن أضعها في إحدى دور العجزة ورعاية المسنين، فكم كان يؤلمني كلامهم عندما كانوا يقولون لي "ضعيها في دار لرعاية العجزة، فهي إن تعرفت عليك اليوم فلن تعرفك غداً، لأن تطور مرض الزهايمر يدمر الذاكرة ويجعلها تنسى حتى أقرب الناس إليها"، فكنت أجيبهم بحرقة وحزن ودموع!! هذه أمي إن لم تعرفني فأنا أعرفها وإن نستني فأنا أذكرها!! فهل يعقل أن أتركها في دار العجزة!! لموظفين يطعمونها ويسقونها بحسب برنامجهم وليس بحسب حاجتها!! وكلما كنت أتذكر هذه الأحاديث يزداد تمسكي بموقفي وتصميمي على رعايتها والحضور لزيارتها ومتابعة وضعها شخصياً عندما أكون بجانبها، وهاتفياً عندما أكون بعيدة عنها، لذلك وفرت لها

أفضل مكان للعيش كما أرادت وأفضل الخدمات التي تحتاجها وبالرغم من كل ذلك فإن الشعور بالتقصير مازال ينتابني بين الحين والآخر.

خلال هذه الرحلة إلى سورية زارني الأصدقاء الذين اعتدت رؤيتهم في كل مرة أكون فيها في سورية، كما اصطحبتها أكثر من مرة إلى المحلات التجارية في أسواق دمشق وإلى المجمع التجاري في كفرسوسة (شام سنتر)، وتناولنا طعام الغداء أكثر من مرة في المطاعم الموجودة فيه.. سواء في الطابق الأخير أم الطابق الأرضي، وكانت تبدي سرورها وسعادتها وهي تدفع عربتها التي تستند عليها عندما تريد المشي وتفحّص واجهات المحلات، فأمشي بجانبها، وكنت أسألها إن أحبت شراء أي قطعة ملابس فتقول «لا.. لا.. ما بدي لا أحتاج ثياب خلينا نروح البيت.. أحسن من بيتنا ما فيه»، فسألتها مرة بعدما تناولنا الغداء وكان ذلك في مطعم بالطابق الثاني من المجمع التجاري الكائن بمنطقة المالكي «ماذا تحبين أن تأكلي من الحلوى؟» فضحكت وقالت: «خلينا نشرب عصير ونروح البيت»، وهذا ما حصل بالفعل حيث جلسنا في الكافتريا المجاورة لباب المجمع القريبة من الطريق مباشرة بحيث لا تعاني من صعود الدرج أو نزوله ولا تحتاج لاستعمال الدرج الكهربائي الآلي، والتقطت لها بعض الصور الشخصية ثم أقفلنا عائدين إلى البيت.

ومما أذكره في هذه الزيارة أنني اصطحبتها إلى كنيسة الزيتون القريبة من منطقة باب شرقي حيث سلكنا الطريق الحجري المرصوف بالحجارة السوداء المربعة الشكل بدءاً من ساحة باب توما مروراً بكنيسة السريان.

وبوصولنا الكنيسة سمعت صوت الناقوس فبدأت تصلي وتلزم بقداس ودعاء (أبانا الذي)، وكان الجو ماطراً قليلاً وبعد أن جلسنا في صالة الكنيسة وأدت صلاتها، اصطحبتهما إلى مطعم بمنطقة المزة –فيلات شرقية– في مدينة الشباب الرياضية وعندما وصلنا إلى المكان أردت مساعدتها بالنزول من السيارة، كررت سؤالها الذي سألتني إياه في الطريق.. «أين نروح وأين توديني»؟؟ فقلت

لها: بدنا نتغدى يا أمي بمطعم مدينة الشباب: فضحكت وهي تستند على عربتها وتدفعها أمامها قائلة: «مطعم الشباب- أين الشباب راح بعيد.. أنا صرت ختيارة» وعندما اقترينا من بابه، بادر أحد العاملين فيه لملاقاتنا ومشى بجانبها لمساعدتها، بينما كانت الخادمة تهتم بوضع حقيبتها على كتفها كسيدات المجتمع وتلتفت يميناً ويساراً وكأنها تريد أن تحتفظ بشيء عن المكان في ذاكرتها..

وبدخولنا إليه لفت نظري الطابع الشرقي له فتناولنا غداءنا وكانت تحب تناول اللبن على الغداء، فطلبت لها كوباً من اللبن باعتبار أن طبق الرز كان أحد مكونات الطعام. أما الخادمة فكانت سعيدة جداً وهي بجواري وتناول أمي بين الحين والآخر منديلاً لتمسح يديها فهي حفظت عاداتها وما تحبه من الطعام أكثر مني.

وبعد انتهاء الغداء عدنا إلى البيت نادتني أمي قائلةً: «سهام أنا أشكرك أنك عزمتينا اليوم عالمطعم»، وهذا ما أثار انتباهي بأنها لم تنسَ ما تعتبره واجباً عليها في تقديم الشكر لمن يسدي لها معروفاً أو يقدم لها خدمةً حتى لو كان أحد أبنائها، فقلت لها: كل يوم سنذهب إلى المطعم لكنها أجابتني: «ليش كل يوم يكفي هالمرة ويعمر بيتك»، وضحكت وهي تضع يدها على يد خادمتها وكأنها تريد القول: «هذه الدعوة على الغداء اليوم كانت تكريماً لك»، وبعد وصولنا البيت ذهبت إلى السوبر ماركت القريب الكائن في الطابق الأرضي من فندق روتانا، وكنت أحب الذهاب إلى هذا الفندق لقربه من البيت، ولوجود صراف آلي أسحب منه ما أحتاجه من مصروف نقدي، وتسوقت بعض الأغراض ثم عدت ووضعت المواد التي اشتريتها ووضعتها أمامها، فسألتني عن ثمنها وأردفت قائلة: «يابو سهام إذا تحتاجين مصاري أنا معي أقدر أعطيك واليوم بس يحكي أخوك حنا أقول له يبعتلك مصاري»، فقلت لها: ماما

لا تخافين من قلة المصاري نشكر الله أنا معي مصاري وشغلي كتير مليح وأربح من شغلي راتباً شهرياً يكفينا ويزيد وما بدي غير ترضي مني ومن إخوتي وتدعيلنا وأنت تصلين.. فقالت لي: «كل يوم أصلي وأدعي»، فسألتها: إيش تقولين أنت تصلين وتطلبين من الله..

حينها نظرت إليّ مطولاً وشبكت أصابعها والتفتت يميناً وشمالاً وكأنها تستحضر جوابها أو تتذكر أمراً لا أعرفه وانهمرت الدموع من عينيها بصمت رهيب، فشعرت بتأنيب الضمير لأنني سألتها ماذا تقولين في دعائك، فوقفت أمامها ومسحت دموعها حيث أمسكت يدي قائلة: أقول لك: أخوك حنا سافر إلى البرازيل في بداية حياته وكان شاباً صغيراً عندما جمع له والدك -رحمه الله- ما نملكه وباع عدة قطع ذهبية صغيرة كنا نحتفظ بها وأعطاه قيمتها، ثم اجتمعنا في البيت وأشعلنا الشموع وأقمنا الصلاة بالدعاء له بالتوفيق وكنت مع أبيك نقول «إن شاء الله الرب يكون معك يا حنا وإن شاء الله تمسك التراب يصير ذهب بيديك». وبعده بدأ بقية إخوتك يسافرون مثل العصافير التي تطير من أعشاشها عندما تكبر، وأصبحت وأبوك نلحق بهم إلى البلاد التي يسافرون إليها (السويد، البرازيل)، حتى اجتمع شملهم في البرازيل.

وتنهدت بعمق وبزفرة أحرقت قلبي لتكمل قائلة: «نشكر الرب الذي استجاب لدعائنا ونجح حنا في عمله، وأعطاه الرب كل ما يتمناه الإنسان بفضل صلواتنا ودعائنا أنا ووالدك ورضائنا عنه»، وأنا بكل صلاة أقول «الله يوفقك يا حنا إن شاء الله تمسك التراب يصير بيدك دهب» قائلة لها: «يعني أنا أروح وأجي وأتعب وأسافر لعندك وأنت تدعين وتصلين للرب يعطي حنا.. قلت لها ذلك لأجعلها تضحك وهذا ما حصل فضحكت من كلامي مجيبة ومكررة عبارة كانت تقولها دائماً «هذا البيت اشتراه حنا وأنا سأعطيه لك».

أمي يؤلمها المرض.. وسورية يخربها الإرهاب

بعد هذا الحديث وما احتوى من ذكريات وشجون.. اتصلت بالطبيب الذي يشرف على متابعة علاجها فوعدني أن يأتي لزيارتنا في اليوم التالي، بينما كانت الخادمة مشغولة بالخروج إلى شرفة البيت لترى الطائرة الحوامة (هيلوكبتر) التي كانت تحلق فوق سماء منطقة المزة والبساتين المجاورة للأوتستراد المعروف باسم المتحلق الجنوبي أو بساتين داريا، وكثيراً ما كانت تناديني لأشاهد بأم العين الرمايات النارية التي تستهدف الطائرة من الأرض، فكنت أتألم كثيراً لهذا المشهد عند مشاهدتي لتلك الطلقات التي ترسم خطوطاً حمراء ملتهبة باتجاه الطائرة، ثم يخفت لونها الأحمر الملتهب لتبدو كجمرةٍ من نار باهتة ثم تغيب عن نظري، كنت أتألم ومازلت حتى الآن عندما أتذكر ذلك أو أسمع بأخبار التخريب والقتل والاغتصاب وقطع الرؤوس وأكل الأكباد في بلدي، فأجلس كئيبة حزينة فكنت أنظر بعين إلى والدتي وقد أرهقها الزهايمر، وأنظر بالعين الأخرى إلى سورية فأراها أمي الثانية التي ينتابها الكثير من ويلات الإرهاب وأعمال التخريب، فأقول في نفسي أي أولاد هؤلاء الذين يستنجدون بالغرباء لإحراق بيتهم الكبير ولتقطيع أوصال بقية إخوتهم ولاغتصاب أخواتهم، وأي أبناء هؤلاء الذين يحملون المتفجرات فيلقونها على مدرسة أطفال أو تحت سكة قطار أو يطلقون النار على سيارة إسعاف تحمل مصابين، وأي قلوب عند أولئك الذين يخربون محطات الكهرباء وخطوط نقل النفط والغاز أو ينسفون أنابيب مياه الشرب أو يشعلون النار لتحرق المحاصيل من قمح وشعير وغيرها من أشجار الزيتون وأشجار الفستق الحلبي، الذي ارتبط اسمه باسم ثاني أهم وأكبر مدينة سورية يشهد التاريخ لعظمتها ولتاريخها وتاريخ شعبها وقلعتها وأسواقها، وأي أبناء يخطفون إخوتهم ويخطفون أطفالهم ليقتلوهم ذبحاً أو حرقاً أو بيعاً كبيع الرقيق، وأية تجارة

أوجدوها لبيع وشراء النساء والفتيات القاصرات في أسواق نخاسة ستشهد يوماً على جرائمهم وسيدينهم تراب تلك الأماكن والأسواق وستحتقرهم أرصفتها وحجارتها قبل أهلها وساكني أحيائها..

يا للهول ويا للمذلة مما يفعله هؤلاء الأبناء بأمهم سورية، ويكتمل المشهد في نظري ليؤلم قلبي وينقبض صدري بالأسى والحزن حين أرى أمي وأرى سورية بنظرة واحدة كتوءم خالد في وجداني وعقلي وقلبي، توءم يتألم في وقت واحد، أمي يؤلمها ويزعجها المرض والضعف والوهن، وسورية يؤلمها داء ووباء ومرض الإرهاب بعدما خانها بعض أبنائها وخدعها وتآمر عليها إخوتها وجيرانها وغدروا بها واستجلبوا لتخريبها شذاذ الآفاق من كل حدب وصوب، فأيكما أبكي وأيكما ألتجأ لحضنها الدافئ الحنون عند حاجتي للأمان، كلاكما متشابهتان في واقع الأمر وواقع الحال لأنه عندما قررت إحضار أمي لسورية تلقيت النصائح واختلفت الآراء بيني وبين الإخوة والأقارب والأصدقاء ما بين معارض ومتردد ومؤيد لإقامتها في سورية، حتى حزمت أمري وحددت خياري واتخذت قراري بتلبية رغبتها وتنفيذ وصيتها وأحضرتها إلى سورية.

وهذه الصورة تقارب وتلامس المعاناة التي تعيشها الأم الكبيرة الخالدة سورية حين بدأت الأحداث تعصف في بعض الدول (تونس، ليبيا، مصر، اليمن..الخ)، فبدأت النصائح تتزاحم والمطالب تتزايد والأماني تتشعب ما بين ناصح لقيادتها بإجراء إصلاحات، وبين مطالب بإلغاء بعض القوانين والمحاكم وتغيير الدستور، وما بين متمنٍ بأن تنحرف غيوم السموم عن سمائها، وما بين متردد لا يقوى أن يبدي موقفاً ولا يسدي نصيحة، وبين متآمر خائن غادر أماط اللثام عن وجهه القبيح واستل خنجره وأثخن ظهرها جراحاً وطعناً، ظناً منه أن بقية إخوته لن يعرفوه وأن أخواته لم يكشفوه، فجعل من نفسه مطية لغربان الظلام وأدخلهم المنزل من حدائقه الخلفية يخربون ويقتلون ويفجرون في أملاكه

وأملاك إخوته، لكن بقية الإخوة تكاتفوا وتعاضدوا ونصحوه أن يتراجع عن غيّه وظلمه وعندما لم تجد النصيحة نفعاً معه وقفوا في وجهه وطاردوه مع غربانه في شتى الأماكن ومختلف المواقع، وعقدوا العزم ورفعوا الراية أنهم لن يتراجعوا حتى يهزموه وغربانه ويطهروا أرضهم من دنس هؤلاء الأوغاد ويعيدوا الأمن والأمان لأمهم سورية الخالدة مهما غلت التضحيات لتعود سليمة معافاة ينعمون بالراحة والأمان والعيش بسلام في حضنها الدافئ وفوق ترابها الطاهر.

هذه المقاربة بين أمي التي ولدِتُ من رحمها وبين سورية التي ولدت شعباً عريقاً امتلك ناصية العلم والثقافة منذ فجر التاريخ ونشر الأبجدية جناحاً طائراً متنقلاً، نقلها ونشرها في أصقاع الأرض قاطبة، كانت ومازالت تشغلني فتسعدني حيناً وتشقيني أحياناً كثيرة.

في ذلك اليوم من وجودي برفقة أمي تابعت الأخبار وتلقيت الاتصالات من الإخوة والأصدقاء حتى خلدت إلى النوم مرهقة متعبة، ليأتي يوم جديد بكل ما فيه حيث حضر طبيبها لزيارتها في البيت وأجرى لها قياساً للضغط، واستمع لدقات القلب، واطمأن على رئتيها، وقد تبسم بعد الكشف عليها حين قال «ما شاء الله ضغطها (٧/١٢)» واطلع على الأدوية التي سبق أن وصفها لها وأضاف لها نوعاً جديداً قال عنه إنه يساعد في تنشيط الذاكرة.

وبعد مغادرته اصطحبتهما بالسيارة إلى سفح جبل قاسيون حيث الإطلالة الساحرة على مدينة دمشق، وأعتقد أن دمشق هي العاصمة الوحيدة في العالم التي يمكن رؤيتها بالكامل من مكان واحد هو ذلك المكان الساحر في سفح جبل قاسيون، وعندما وصلنا إلى ذلك المكان سألتها هل أنت مبسوطة فهذه الشام بكاملها أمامك، وكان أحد باعة عرانيس الذرا الصفراء قريباً منا ويضع شريطاً غنائياً في آلة التسجيل لديه تعيد وتكرر أغنية رائعة (من قاسيون أطل يا وطني.. فأرى دمشق تعانق الشهبا) لقد كانت في غاية الروعة وتناسب

الجلوس في ذاك المكان تماماً، وعلى أنغام هذه الأغنية اشتريت عدداً من العرانيس المشوية أكلنا بعضها داخل السيارة.

عدنا إلى المدينة، وكان جلّ حديثنا حول الأحداث المتفرقة التي بدأت رقعتها تنتشر وتتوسع في غالبية المحافظات السورية، وإن كانت تبدو أحياناً كعمليات محدودة وصغيرة في بعض الأماكن وتوحي للبعض بأنه من الممكن السيطرة عليها ووأدها في مهدها قبل انتشارها، والكثير من الأصدقاء كان يميل إلى هذا الاتجاه، بينما كنت أخالفهم الرأي، وكم من مرة وصل النقاش بيننا إلى حد الخلاف في وجهات النظر لأنني كنت متمسكة بما أراه من خطر كبير يتطور ويتضخم مثل كرة ثلج عملاقة بدأت بالتدحرج، وقلت لهم حينها "لو أن الرئيس بشار الأسد أشعل أصابعه العشرة لهؤلاء الذين يطالبون بالإصلاح والديمقراطية لن يكتفوا ولن يتوقفوا عن التدرج بمطالبهم ليصل بهم الأمر إلى المطالبة برحيله، فهؤلاء يتحركون بأوامر خارجية وهم مثل ألعاب الدمى التي تحركها الخيوط"، فاللاعب الحقيقي يقف في الظلام بينما نرى الدمى تحركها الأصابع، ومع مرور الزمن سيتضح المشهد أكثر وستتكشف أدوار المتآمرين على سورية بشكل أوضح، وستظهر الهوية الحقيقية لأبطال هذه الأحداث كما كانوا يصفونها.

وكم كنت حادة في نقاشي مع الأصدقاء لأن البعض منهم كان يصفها بالأحداث البسيطة المتفرقة التي يسهل الإحاطة بها ومعالجتها بأقل الخسائر، في حين كنت مصرة على تسمية ما يحصل بأنه حرب حقيقية بدأت ملامحها تتكشف وأنها حرب ستتدرج في خطورتها لأن الاستهداف الحقيقي هو لتاريخ سورية العريق ولحاضرها ولمستقبلها، كيف لا وهي عبر التاريخ موضع اهتمام العالم وأصبحت حالياً حجر عثرة حقيقياً في طريق استكمال تنفيذ المشروع الصهيوأمريكي الذي بشرت به وزيرة خارجية أمريكا في عهد الرئيس جورج بوش كوندليزا رايس (الشرق الأوسط الجديد)، فمنهم من كان يجاملني بالموافقة

على هذا الرأي ومنهم من كان يعارضني بشدة، لقد كان هذا النقاش مادة حديثنا في كل الأوقات التي نلتقي فيها.

وبالرغم من أعمال التخريب واستهداف بعض مؤسسات الدولة ومقرات قوى الأمن الداخلي وإطلاق النار على رجال الشرطة ومهاجمة مراكزهم، كانت الحكومة والقيادة السورية تعطي الفرصة تلو الأخرى لمن انحرف في تفكيره وسلوكه الوطني، ولمن انجرف مع تيار الأعداء ليغدو أحد عناصره وأدواته تعطيهم الفرص المتكررة لتقويم السلوك والعودة لحضن الوطن لحضن أمهم سورية، وهذا ما كان جلياً واضحاً من خلال الإجراءات والقرارات التي كانت تتخذها القيادة السياسية في سورية.

ويمكنني هنا أن أذكر ما يثبت صحة كلامي هذا: هو أنه بتاريخ ٢٠١١/١١/٥ أي يوم وصولي إلى سورية أفرجت السلطات السورية عن /٥٥٣/ خمسمئة وثلاثة وخمسين من الموقوفين الذين تورطوا في أحداث الشغب وأعمال العنف التي استهدفت دوائر ومؤسسات الدولة والأملاك العامة والخاصة في مختلف المناطق.

لكن الأمر المفاجئ والبعيد عن كل احتمال هو أن أحد الأشخاص الذي كان يعتبر مسؤولاً كبيراً ونافذاً في سورية يطالب بتاريخ ٢٠١١/١١/٧ بتدخل عسكري دولي على غرار ما حصل في ليبيا، ويحرض أبناء سورية على حمل السلاح في وجه أمهم، حين صرح قائلاً: «إن الشعب السوري لن يقف مكتوف الأيدي أمام العنف الذي سيدفعه إلى حمل السلاح للدفاع عن نفسه»، في الوقت الذي كانت فيه سورية تكرر دعوتها للأبناء الضالين وبالعودة إلى رشدهم وتصفح عن أخطائهم، بل وبكل ثقة أقول عن جرائمهم.

لقد كانت تلك الفترة مليئة بالتطورات المتقلبة والمتسارعة سياسياً وميدانياً، وكان كل حدث جديد مادة دسمة للجدل والنقاش لساعات طويلة بل لأيام وربما

أشهر، بحرب حجم هذا الحدث وأبعاده الداخلية والدولية لم تكن ساعات وأيام تلك المرحلة تبيت على خبر أو حدث واحد، فكل الأمور والأحداث متسارعة ومتعاقبة والضخ الإعلامي الكاذب والفبركات الإعلامية التي تنفذها بعض المحطات الفضائية كانت تمثل حرباً حقيقية، كانوا يريدون إسقاط الدولة السورية وهزيمتها إعلامياً، كانوا يريدون لسورية أن تتمزق وتنهار ويريدون لشعبها أن يتشظى وينقسم أفقياً وعمودياً هكذا كان يبدو المشهد الإعلامي المواكب للحدث السوري.

وبالرغم من اهتمامي اليومي واللحظي بحالة أمي الصحية وجهدي في توفير كل ما تحتاجه من وسائل الراحة وتأمين كل متطلبات العيش الكريم لها، فقد كنت مواكبة لكافة التطورات الداخلية والخارجية بكل ما يتعلق بالأم التاريخية سورية، التي لم ترفض فكرة أو تؤخر فرصة من شأنها حقن الدماء وإعادة الهدوء لأماكن الاضطراب. وهذا ما كان واضحاً في استجابتها لكل جهد صادق سواء جاء في سياق مبادرات أهلية أم جاء بمبادرات دولية، فقد رحبت القيادة السورية بتاريخ ٢٠١١/١١/١١ بإرسال بعثة من الجامعة العربية للاطلاع على حقيقة الأوضاع في البلاد، والوقوف على ما أنجزته من بنود المبادرة التي كانت الجامعة أعلنت عنها بتاريخ ٢٠١١/١١/٢ لوقف جميع أشكال العنف من أي مصدر كان حماية للمواطنين السوريين، ونص ذاك القرار أيضاً على إجراء حوار وطني مع كافة أطياف المعارضة، وبالرغم من ذلك لم تحد هذه الجامعة عن الدور المرسوم لها من قبل أعداء سورية، فلم تعر اهتماماً لما أبدته سورية من ترحيب بإرسال البعثة وتجاهلت هذا الترحيب من خلال القرار الظالم الذي اتخذته في اليوم التالي ٢٠١١/١١/١٢ حين قرر مجلس الجامعة تعليق مشاركة جميع الوفود السورية في المجالس والهيئات التابعة للجامعة اعتباراً من ١٦ تشرين الثاني، ودعا هذا القرار الدول العربية

إلى سحب سفرائها من دمشق، حيث استشعرت سورية الخطر فأيقنت أن الجامعة العربية أصبحت منبراً سياسياً للضغط عليها وبوابة خطيرة لتمرير قرارات دولية، ربما ستكون أشد خطورة وأكثر إيلاماً، وكي لا تبقي لإخوتها العرب حجة أو ذريعة يتمسكون بها في المستقبل، فقد دعت في اليوم التالي لهذا القرار أي بتاريخ ٢٠١١/١١/١٣ إلى عقد قمة عربية طارئة مخصصة لمعالجة الأزمة السورية والنظر في تداعياتها السلبية على الوضع العربي، ورحبت بقدوم اللجنة الوزارية العربية قبل ١٦ من هذا الشهر تشرين الثاني موعد تعليق عضويتها في جامعة الدول العربية، وأمام هذا الصدود العربي عن سماع الصوت السوري وصف وزير الخارجية السوري القرار بأنه «خبيث ومشين».

لم يكن خفياً على كل ذي لبٍ أن هناك مؤامرة كبرى حيكت خيوطها ورُسمت معالمها وحددت اتجاهاتها، لأن الحجم الكبير من الضغط وتوالي اتخاذ القرارات والمواقف المعادية لسورية وقيادتها وشعبها، وإن كانت مغلفة بعبارات الحرص على سورية وشعبها، إلا أن رائحتها الكريهة أصبحت تملأ الأجواء وتزكم أنوف المراقبين والمتابعين توالي فصولها، فهذا مجلس التعاون الخليجي يرفض بتاريخ ٢٠١١/١١/١٥ دعوة دمشق لعقد القمة الطارئة وبنفس هذا اليوم يُعلن الاتحاد الأوروبي عن فرض عقوبات إضافية عليها بالرغم من إعلان سورية إخلاء سبيل /١١٨٠/ شخصاً ممن «لم تتلطخ أيديهم بالدماء».

لم تكن القوى العربية والأجنبية المتآمرة على سورية تريد سماع صوت الشعب السوري المؤيد لقيادته والمدافع عن مكتسباته ومؤسساته، ولم يكن يعنيها جراحه وآلامه كانت جميع هذه التطورات مسار نقاش وحوار بين كافة مكونات وأطياف الشعب السوري.

وكانت أمي تستمع لنقاشات وآراء الأصدقاء الذين يأتون لزيارتها فتبدو على ملامحها مشاعر الخوف والقلق، وهذا ما كان يتجلى في نظراتها وكلماتها القليلة والمقتضبة، عندما كانت تقول لي في حال غادرت البيت للذهاب إلى الصيدلية أو السوبر ماركت أو الرياضة كانت تقول: «سهام.. يابو.. الله يرضى عليك انتبهي لروحك أخاف يخطفوك»، فأعود إليها أقبل يديها وأقول له «لا تخافين يا ماما سورية بخير والرب معها والعدرا تحميها» فترسم إشارة الصليب على وجهها وصدرها، وتقول: «يالله روحي خفيف وارجعي خفيف».

كانت أيام إجازتي هذه تمر سريعة كتسارع الأحداث في سورية، وبدأت أشعر أنني لن أستطيع إنجاز كل ما خططت للقيام به في هذه الرحلة حيث اضطرت للذهاب إلى بيتي في مشتى الحلو ليوم واحد فقط لتفقده وكي أسدد فواتير الكهرباء والماء والهاتف ثم عدت إلى دمشق في اليوم التالي.

لم يكن من الأمر السهل تنفيذ كل ما خططت للقيام به خلال الإجازة القصيرة من استبدال طقم الكنبات وشراء كرسي مريح لها، وذلك بسبب الاضطراب الذي بدأت تشهده الأسواق ويعاني منه المواطن، حيث كانت تمر فترات قصيرة يصعب فيها تأمين (قنينة غاز)، وكانت الجهات المسؤولة تتجاوز مثل هذه الأزمات لكن يتم بسرعة مع ارتفاع في الأسعار، لكن المواد التي يحتاجها المواطن بقيت متوفرة بجميع أنواعها حتى الخضار والفواكه بقيت تملأ الأسواق وبأسعار -وبكل صدق وأمانة أقول- أرخص من أسعارها في الدول المجاورة.

في اليوم التالي لعودتي من مشتى الحلو اتصلت بالحلاق مصطفى في فندق الميريديان الذي حضر برفقة فتاة تعمل عنده في صالون الحلاقة بالفندق، وقاما بقص وصباغة شعر والدتي التي أحبت هذا الأمر وأحبت الفتاة التي كانت تلاطفها بالحديث وتسألها عن حياتها في السويد والبرازيل،

والجميل الذي كان يلفتني هو أنها وكما هي عادتها لا تنسى إكرام الضيوف حين كانت تطلب من خادمتها تقديم القهوة والحلوى أو الفواكه، وكثيراً ما استخدمت لغة الإشارة والإيحاء لها كي لا تشعر ضيوفها أنها تكلف خادمتها بتقديم واجب الضيافة. فكم كانت إشاراتها تلك عفوية وصادقة ومحببة فتجيبها بكل لباقة وأدب «تكرمي ماما على راسي» وتعطف ضاحكة مع كلماتها هذه لكونها تتلفظ الكلمات العربية بشيء من الصعوبة وكثيراً ما ضحكنا معها بسبب ذلك.

في اليوم التالي حضر طبيب الأسنان الدكتور رياض الذي تابع علاجها في غيابي وأحضر معه أدوات عمله، حيث قلع لها جذر أحد أضراسها تحت التخدير الموضعي فلم تشعر بألم التخلص من ذاك الجذر، فشكرته بكلماتها المعتادة وبالوقت نفسه شَعرَ هو بالارتياح لأنها عرفته مباشرة بمجرد دخوله البيت وسلامه عليها، حيث خاطبته قائلة: «أهلاً يا دكتور»، وعندما سألها بقوله «عرفتيني خالة أم حنا»، أجابته: «كيف ما عرفتوك انت دكتور الأسنان ويدك خفيفة مو توجعني وأنت تساوي أسناني وأضراسي».

هكذا كانت إجاباتها أحياناً قصيرة وأحياناً تسرد حديثاً كاملاً إذا تعلقت مادة الحديث بالماضي البعيد، فقد كانت تتحدث مطولاً عن الماضي وتتذكر أسماء الأشخاص وتروي حتى أدق التفاصيل عن أية حادثة أو قصة تريد الحديث عنها.

لم تتأخر الأيام أبداً فقد اقترب موعد عودتي إلى السويد بتاريخ ١٨/١١/٢٠١١ والأمر الذي أجبرني أن اقتصر على هذه الفترة من إجازتي هو التزامي العائلي -كما أسلفت سابقاً- لحضور مناسبة عائلية (حفلة زفاف ابن شقيق زوجي شابو والذي تم تحديده بمناسبة عطلة عيد الميلاد).

وإلى أن جاء موعد سفري أمضيت قرابة أسبوع مع أمي في البيت ومع الأصدقاء وغالباً ما كان الطقس يسمح لنا بالذهاب إلى الأسواق رغم البرودة

الخفيفة التي كانت تؤثر على حركتنا، إلا أنها لم تكن لتمنعني من تأمين الحاجيات الضرورية، وبخاصة تلك التي تحتاجها أمي في البيت، وكنت أجلس مطولاً أشرح لها أهمية إعطائها الأدوية بمواعيدها وأعلمها أصول إعداد وتحضير الطعام لها، ولا أنكر القول إنها كانت فتاة نبيهة ولماحة تتأثر بالكلمة اللطيفة أكثر بكثير من العبارة العنيفة.

وبالرغم من كل ذلك فقد بدأت ألاحظ شيئاً من العصبية والملل في تصرفاتها من خلال تلكؤها في تنفيذ بعض الأعمال المطلوبة منها في المنزل وتأجيلها، وشكواها من تثاقل أمي في الخروج من البيت في فترة غيابي وبالنزول برفقتها للمشي على الرصيف أمام البيت، حيث صارحتني القول عندما سألتها عن أسباب هذا التغير في سلوكها، أجابتني إنها اشتاقت لرؤية والدها وأنها عندما قبلت العمل في خدمة والدتي لمدة سنة واحدة عندما وعدناها أن نساعدها باستعادة جواز سفرها ومساعدتها في السفر لزيارة والدها، وذكرتني بأنها قبلت أن تعمل في خدمتها مقابل ذلك وأنها في حال شعرت بالارتياح في عملها ستوافق على البقاء سنة ثانية في حال أعطيتها زيادة على أجرها الشهري.

للإنصاف والحقيقة فقد كانت محقة في كل ما قالته وشعرت بالشفقة عليها كما لو أنها ابنتي فقلت لها (تكرم عينك مرمورة) سأعطيك خمسين دولاراً زيادة على راتبك اعتباراً من أول الشهر القادم، الموافق لبداية العام ٢٠١٢ وسأطلب من الأصدقاء تأمين جواز سفرك مهما كلف الأمر، واجتهدت في توضيح الصورة لها والحاجة إليها برفقة أمي لأنها اعتادت عليها وأنها كمريضة زهايمر فإنها تتعلق بالشخص الذي يلاطفها ويكون برفقتها، وبأن حالتها الصحية تتأثر سلباً في حال وجود خادمة جديدة لأنها تحتاج لوقت طويل حتى تعتاد عليها، ويبدو أن حديثي معها قد ترك أثره في نفسها وهذا يعود بحسب

اعتقادي لأنها يتيمة الأم، وعندما سمعت هذا الكلام مني انفرجت أساريرها وشعرت بالارتياح وعادت لسابق عهدها في إبداء النشاط والاجتهاد في خدمتها.

لكن وبكل صراحة أقولها فلقد شكلت طلباتها ضغطاً إضافياً عليّ هذا بالرغم من أنني . وكما أسلفت . لم أقصر معها أبداً، حيث كنت أشتري لها أغلى الثياب وتشتري ما طاب لها وتشتهيه نفسها من السوبر ماركت وصالة الخضار والفواكه، فكانت هي صاحبة البيت الحقيقية، لأن أمي لا حول لها ولا قوة ولا خيار عندها سوى ما تقدمه الخادمة لها من خدمات، فإن لم تساعدها في الحمام لا تستطيع أن تستحم بمفردها، وإن لم تطعمها لن تستطيع أن تحضر وتطهي طعامها وإن لم تشغل لها التلفزيون لا تعرف تشغيله، فقد كانت وبكل صراحة (يدها وعينها ولسانها.. الخ) ومن أجل ذلك خصصت لها مبلغاً شهرياً لتشتري وحدات لهاتفها الخلوي وتتحدث مع والدها متى تشاء، إضافة إلى الاتصال الذي كان يوفره لها (أبو نورس) و(أبو نزيه) من هاتفيهما بين الحين والآخر.

وهكذا التزمت لها بتلبية طلبها في زيارة أهلها خلال العام ٢٠١٢ مقابل تعهدها بالعودة لخدمة والدتي في حال حصلنا لها على الموافقات اللازمة لعودتها، لأن الإجراءات الإدارية الصادرة عن وزارة الشؤون الاجتماعية وإدارة الهجرة والجوازات تمنع عودة الخادمة التي ينتهي عقد عملها ثانية بعد سفرها إلى بلدها، وهذا بحد ذاته تحدٍ كبير ظهر أمامي حتى شعرت وكأنني أقف أمام جدار مسدود شاهق الارتفاع لا يمكن النفاذ منه أو التسلق عليه، فدخلت غرفتي وتظاهرت بالنوم فلم يغلبني النعاس وإنما غلبني البكاء، فأطلقت العنان لمشاعر الألم والحزن على هذا الواقع الشخصي الذي وصلت إليه وتعيشه أمي تحديداً، فانفجرت من عيني دموعي ببكاء مرير حتى جف دمعها وعاد إليّ هدوئي تمالكت نفسي ومسحت دمعي وصليت للرب أن يساعدني ونذرت للعدرا أن تكون عوناً لي ومعينة لأمي في غيابي.

وخلال هذه الفترة التي كنت فيها داخل غرفتي اجتهدت (ماريا) في وضع الطعام على الطاولة ونادتني (ماما الغدا على الطاولة)، فخرجت من غرفتي حيث لاحَظتْ تورماً بادياً حول عيني، وسألتني «ماما ليش عينك ورمانة ولونهما أحمر.. ليش كنتِ عم تبكي»، كلماتها هذه أعادت إليّ تلك المشاعر التي انتابتني وأبكتني فعدت للبكاء مجدداً، ولكن هذه المرة أمامها وأمام أمي التي أخافتها دموعي المنهمرة على وجهي، فجلست على الأرض وقد فقدت طاقتي واحتمالي على الوقوف واضعة رأسي على ركبتها فأمسكت برأسي تهزني وتسألني بصوت مرتعش ويدها فوق رأسي ترتجف (سهام.. سهام.. ايشو صار يا بنتي؟ أيشو صار.. ليش تبكين.. أيشو صار).

ليتها علمت حينها أن بكائي عليها.. ليتها علمت حينها كم كنت أعاني بداخلي من ألم وحزن لأجلها.. ليتها علمت أن بكائي كان خوفاً عليها.. فشعرت وأنا على هذا الحال بجلوس (ماريا) قربي باكية معي، وسألتني كما لو أنها ابنتي (ماما شو صار ليش تبكين) لقد أحرجني سؤالها.. هل أجيبها أنني أبكي لشعوري أن أمي قد لا تلقى منها الخدمة التامة في غيابي بعد أن سمعت منها ما طلبته مني..

وعندما راودني هذا التفكير تمالكت نفسي وقلت لأمي: «ماما حبيبتي لا تخافي.. أنا أبكي لأنني سأسافر بعد عدة أيام إلى السويد وأتركك أنت وماريا لوحدكما».. فنظرت أمي إليَّ قائلة: «ليش تبكين.. أنا كويسة كتير.. أنا مرتاحة كتير هون بالبيت.. هالبنت تحبني وتخدمني كتير وأنا أحبها كما أحبك.. لا بقى تبكين روحي سافري عند زوجك وبناتك وترجعين عندي بالصيف قومي نتغدا».

كلماتها هذه أعادت الطمأنينة لنفسي وتمالكت أعصابي وأعدت قراءة ما فكرت به لأجد المبررات والأعذار لبقية إخوتي فهم لم يقصروا أبداً في

تلبية أي طلب لها طيلة حياتها، لكن ظروف حياتهم وتشتتهم في عدة مدن برازيلية واستقرارهم فيها لم يكن عاملاً مساعداً للحضور والاستقرار بجانب والدتهم التي أحبت أن تمضي بقية حياتها في سورية، فتحملت أنا شخصياً عبء تنفيذ هذه الوصية بكل إيمان وتصميم وصبر على تنفيذها وكان أخي حنا خير معين لي طيلة الفترة التي عاشتها أمي في سورية وحتى وفاتها.. وما يزال.

كل ذلك جال في فكري ونحن نتناول طعام الغداء فاتصلت مع (أبو نورس) ومزحت معه قائلة «يلي طلع الغزال عالجوزة شو بيساوي؟» أجابني (أكيد لازم ينزله)، وسألني ما السبب الذي ذكرك بهذا المثل فقلت له بأن (ماريا) اشتاقت لوالدها وأنت وعدتها بإحضار وتجديد جواز سفرها، وتأمين سفرها وهي وعدتني أنها ستعود إذا نجحنا بالحصول على الموافقات اللازمة.. واختصاراً للحديث قلت له من المفيد حضورك لعندنا لبحث الأمر، فلم يتأخر في الوصول حيث أكملنا الحديث وتعهد بالسعي لتلبية رغبتها وتأمين بديلة عنها لخدمة أمي في الفترة التي ستسافر فيها إلى أثيوبيا وعلى هذا تم الاتفاق. وهذا ما أدخل الفرح والسرور إلى قلبها حيث أفرغت البراد من الفواكه وأحضرتها أمامه مع كوب القهوة والماء البارد فمازحها قائلاً: «برافو هاتي شو عندك حلويات». هكذا تم الاتفاق لتلبية طلباتها وبذلك تمكنت من التفرغ لإنهاء متطلبات سفري وعودتي إلى السويد.

هذا بالإضافة لاستقبال الأصدقاء الذين أقدر لهم اهتمامهم ومحبتهم ورعايتهم والذين لم ينقطعوا يوماً عن زيارتنا، وفي حال لم يحضر أحدهم فإنه كان يتصل هاتفياً حتى أصبحت أرى فيهم إخوتي وأهلي، لأنهم لم يتركوا لي مجالاً للشعور بالوحدة، فقد أوجدوا انطباعاً عندي بأنهم يشاركونني المسؤولية عنهما في كل شيء وهذه حقيقة لن أنساها أبداً طيلة عمري.

أمضيت اليوم الأخير من رحلتي هذه في البيت أغني وأصلي معها وأسجل مقاطع لحديثها وكلامها وأغانيها وألتقط لها الصور لتبقى معي ذكريات جميلة، فقد كنت أخاف كثيراً عندما أودعها ألا أراها ثانية.. وأخاف أن تفارق الحياة ولست بجانبها فتتقبض مشاعري ويعتصرني الحزن فأصلي للرب وأسترحم سيدتنا العذراء أن يلطفا بها ويقدرا لي مشاهدتها ثانية.

وبالساعة الثامنة مساء ٢٠١١/١١/١٨ بكيت على صدرها حتى بللت دموعي قميصها وهي تمشط شعري بأصابعها المرتجفة الخائفة من كل شيء رغم تصنّعها القوة والتجلد، وفي تلك اللحظات شعرت هي أنني أبكي لأنني سأتركها مجدداً، فأرادت أن تكلمني لكن دموعها غلبت صوتها وبقيت صامتة وزادت من حركة أصابعها في شعري وزاد رجفانها، واستمرت هذه الحالة لعدة دقائق حتى تمالكت نفسي ورفعت رأسي أمامها فوضعت يدها المرتجفة على وجهي، وهنا سمعت صوتها حين قالت: «يابو سهام تريدين تسافرين.. الله يكون معك.. أنا هون مليحة ومرتاحة.. سافري خفيف وترجعين عندي بالصيف.. انتبهي على روحك.. سلمي على زوجك والبنات.. قولي لأخوك منتاز يجي عندي أريد أشوف»، فقبلت يديها مراراً وكررت وعدي لها بأنني لن أتأخر في المجيء لعندها في مطلع شهر أيار القادم ٢٠١٢، ثم ودعتها وغادرت البيت إلى مطار دمشق الدولي بسيارة أرسلتها صديقة غالية على قلبي، حيث كان موعد إقلاع الطائرة من دمشق إلى استوكهولم بالساعة الحادية عشرة ليلاً وبوصولنا إلى المطار وبعد الانتهاء من إجراءات الوزن وختم جواز سفر دخلت إلى السوق الحرة في المطار لفترة قصيرة اشتريت خلالها بعض الأغراض الشخصية.

وصلت الطائرة مطار استوكهولم صباح ٢٠١١/٨/١٩ حيث كان شابو في انتظاري، وقد شاهد ملامح الحزن على وجهي فعاتبني على عودتي بقوله: «لو بقيت عند الماما لبعد أول السنة شو كان صار.. والجميع يقدر وضعك

ويعرف وضع الماما (أم حنا) ولا يعتب أحد عليك وبكل حال الحمد لله على السلامة إيمتا تريدين ترجعين عندها..».

هذا الموقف من زوجي شابو أقدره له كثيراً لأنه لم يعترض يوماً على مجيئي لزيارتها، فقد كان سمح النفس حاضر الهمة لكل أمر كانت تحتاجه، وقد يستغرب البعض أن أذكر وأكتب هذا الكلام لكن ليس في الأمر غرابة من وجهة نظري، فقد كان بإمكانه أن يعترض على سفري المتكرر لرؤية أمي والبقاء عندها لمدة شهر وأحياناً لأكثر من شهر، أو كان بإمكانه أن يقول ليذهب بعض إخوتك عندها أو إحدى زوجاتهم أو لتذهب أختك المقيمة في الدنمارك لتتقاسموا هذا الاهتمام بوالدتكم.. لكنه لم يقلها يوماً بل كان مشجعاً لي ومسانداً في كل ما كنت أحتاج إليه لذلك لن أنسى موقفه هذا لأنه موقف إنساني نبيل لا يقفه الكثير من الرجال، وبخاصة عندما يتعلق الأمر بأحدٍ من أهل الزوجة فكيف الحال إذا تعلق الأمر بوالدتها، أو كما يقال بالعامية «بالحماية».

فحدثته بكل تفاصيل رحلتي وطمأنته عن الأوضاع في سورية بشكل عام، وأوضحت له بأن وسائل الإعلام المعادية لسورية تتلاعب بمشاعر الناس بما تبثه من أكاذيب وفبركات إعلامية لا أساس لها من الصحة، بالرغم من أنني كنت أخبره وأخبر بناتي وإخوتي وأصدقائي هاتفياً، وأوضح لهم الصورة الحقيقية لواقع الحال في سورية وأحياناً كنت أرسل لهم الصورة وأنا برفقة أمي وماريا في شوارع دمشق ومجمعاتها التجارية ومطاعمها في كفرسوسة والمالكي.

بعد وصولي إلى السويد تلقيت العديد من الاتصالات الهاتفية من الأصدقاء والأقارب وجميعهم كانوا تواقين لسماع أخبار سورية بالرغم من أنهم يتابعونها عبر وسائل الإعلام المختلفة، لكن على ما يبدو يبقى للحديث الشخصي دوره وأهميته بين الأقارب والأصدقاء لما يشيعه من شعور بالمصداقية في النفوس.

وبدأت بتحضير وتجهيز ما يلزم لمناسبة أعياد الميلاد ورأس السنة ولم تغب صورة أمي عني لحظة واحدة، فكنت أتصل معها يومياً. وجاءت حفلة عرس ابن شقيق شابو مناسبة جيدة للاجتماع بالأقارب والأصدقاء وتبادل الأحاديث الشخصية والعائلية والسياسية، والكثير منهم قال لي عندما حدثتهم عن رحلتي إلى دمشق «إنك تزرعين الأمل في نفوسنا وتشجعينا على أن نسافر إليها».

وفي صبيحة عيد الميلاد المجيد كان أول اتصال هاتفي مع أمي هنأتها بالعيد المجيد ثم انتقلت إلى السكايب فأكملت حديثي معهما بالصوت والصورة، وللوهلة الأولى ظنت أمي أنني أمامها حيث كانت تمد يدها على الشاشة لتلمس وجهي وهي تناديني.. صليت معها قداس أبانا وقداس سلام لك يا مريم، وكانت ترى ما أقوم به من عمل في المطبخ بينما عرضت لي (ماريا) ما أحضرته من السوبر ماركت من أشياء، وما قامت هي بتحضيره في البيت من إشعال الشموع وتوزيع الورود وإضاءة مغارة الميلاد، وأبعدت الكاميرا قليلاً لأرى كامل المنظر داخل البيت، وكانت قد ألبست أمي الملابس الجديدة و(ملابسها جديدة كلها)، وتمايلت أمامي مرتدية ثيابها التي أهديتها لها، وكانت فرحة مبتهجة وغنت مع أمي أغنية العيد وترنمت معها بترانيم الصلاة، فأدخلت السرور إلى قلبي وأخبرتني أنها تنتظر وصول (أبو نورس) لأنه وعدها بأن يأخذهما إلى الكنيسة لحضور قداس العيد، وخلال حديثنا هذا سمعت جرس الباب وإذا به يدخل عندهما فتحدث معي قليلاً وهنأني بالعيد وأخبرني أنه سيرافقهما إلى الكنيسة وهنا أنهينا الاتصال وأنا مطمئنة النفس مرتاحة البال.. وتكرر اتصالي بهما مساءً حيث وجد غالبية الأصدقاء في زيارتهما.

هذه الزيارات من قبل الأصدقاء كانت مفيدة جداً لوالدتي لما لها من أثر طيب في زيادة شعورها بالطمأنينة والأمان.

بعد الانتهاء من واجبات أعياد الميلاد ورأس السنة عدت للبرنامج المعتاد بالنسبة إلى عملي واتصالاتي اليومية معهما وبمعدل اتصالين أو ثلاثة اتصالات يومياً، هذا عدا عن الاتصال بالأصدقاء حيث كانت ترتفع وتيرة تصاعد الأحداث المؤسفة التي بدأت تتلون وتتقلب وتأخذ أشكالاً جديدة من القساوة والدموية التي لم نعتد على سماعها أو مشاهدتها حتى في الحكايات والأساطير، فكنت دائماً أسقط بشاعتها ووحشيتها على ما قرأته على مذابح أجدادي السريان بشكل عام في مطلع القرن العشرين أو على ما سمعته وأنا صغيرة من روايات وحكايات من أمي وجدتي خاتون.

لم أغفل أبداً ما وعدت به الخادمة فكنت أطمئنها دائماً بأنها ستسافر لزيارة والدها لمدة شهر خلال إجازتي القادمة، وكنت أكرر لها شرح هذا الأمر وبأنني سأحضر في مطلع شهر أيار القادم لمدة شهر وخلال وجودي ستسافر هي لزيارة والدها، وكنت أشعر أنها لم تستوعب الفكرة كثيراً لأنها كانت تناقشني خلال الاتصال الهاتفي أو عبر السكايب متسائلة بقولها: «يعني كيف بدي أسافر بدون جواز سفر يمكن بابا ما يسمحلي أرجع»، وهذا ما كان يقلقني كثيراً فأسرع بقطع الحديث معها لأتصل مباشرة مع (أبو نورس) الذي عانى ما عانى في هذا الموضوع راجية منه أن يسعى بسرعة لتأمين جواز سفر جديد لها وأن يعمل ما يمكنه لتأمين عودتها بعد سفرها، وبالوقت نفسه البحث والسعي لتأمين فتاة بديلة عنها في حال لم تستطع العودة، وهذا ما كان يشكل عامل ضغط إضافياً يضاف إلى جملة الضغوط التي عانيت منها تلك الفترة، فكان يطمئنني ببرودة أعصاب بقوله «بسيطة.. بنلاقي حل.. بعد بكير» وهذا ما كان يغضبني ويغيظني جداً فأقول له: يا أخي أنا أكره كلمة بسيطة.. سأقع بكارثة إذا سافرت وفشلنا بتأمين عودتها وأكرر توضيح مدى الحاجة إليها بعدما اعتادت أمي على وجودها فقد لا نجد الفتاة التي تقبل أن تقوم بما تقوم هي به من خدمة شخصية جداً تحتاجها أمي.

متابعة حالة (ماريا)

وبالمقابل فقد أعلمني بأنه شعر بأن (ماريا) ليست على سابق عهدها، وأنها أصبحت كثيرة الشكوى، وأنها بالرغم مما تأكله من طعام مغذٍ إلا أن علائم الضعف أصبحت بادية عليها، وبناء على طلبي اصطحبها إلى عيادة الدكتور صالح داوود لمعالجة الأمراض الجلدية نتيجة تذمرها وشكواها من بعض الطفح الجلدي وحب الشباب الذي ظهر على وجهها بنسبة قليلة، وأجرى لها تحاليل الدم في مخبر القطرنجي المعروف بدمشق. هذا بالإضافة لتردد الدكتور حسين أوغلو للاطمئنان على أمي ومراقبة ضغطها حيث كان يستمع لماريا ويراقب لها حالة الضغط أيضاً وكثيراً ما وصف لها الأدوية المناسبة لحالتها ولما تعاني منه، وقد أجمعت الآراء الطبية بأن ما تعانيه من أوجاع في المعدة والطفح الجلدي الذي ظهر على وجهها يعود لأسباب نفسية.

كانت تحتفظ داخل غرفتها بحقيبة ثيابها التي سبق وأحضرناها لها من حلب وقد أضافت على محتوياتها الهدايا والأشياء التي كنت أقدمها لها في كل مرة أعود فيها من السويد، وما اشتريته من أسواق دمشق عندما كانت ترافقني إلى المحلات التجارية، حيث أبدت رغبتها خلال اتصال هاتفي معها بإرسال هذه الحقيبة لوالدها قبل سفرها لأنها كبيرة الحجم وثقيلة الوزن لكثرة ما أتخمتها من أغراض أعطيتها لها.

حيث تم إرسال هذه الحقيبة من خلال مكتب لشحن البضائع إلى والدها في أثيوبيا، وقد بلغ وزن حقيبتها (٦٥كغ) وبأن مزاجها انقلب (١٨٠ درجة)، وقد زالت أوجاع معدتها واختفى الطفح الجلدي من وجهها، وأصبح فمها يلامس أذنيها عندما تضحك حيث ذهبت إلى مؤسسة الخضار والفواكه واشترت ما لذَّ وطالب من أنواع الفواكه حتى أنها اشترت الرمان (وربما ذكر لي الرمان نظراً لارتفاع سعره). وأنه بطريق ذهابه للاطمئنان عليهما دخل إلى السوبر ماركت

ليأخذ لهما الخبز واللبن والدواء من الصيدلية الملاصقة للسوبر ماركت (صيدلية سلمى)، وجد (ماريا) داخل السوبر ماركت وهي تتنقل فيه بحسب المادة التي ستشتريها، حيث كانت تحاول الإمساك بقطرميز العسل عبوة (١كغ) ولكونها قصيرة لم تستطع الوصول إليه فمد يده وناوله لها فتفاجأت بوجوده وخجلت منه وأرادت إعادة بعض المواد التي اختارتها، لكنه قال لها: «لا تعيدي شيئاً وخذي ما ترغبين به» وساعدها بحمل ما اشترته من مواد إلى البيت باعتبار أن السوبر ماركت يقع في الطابق الأرضي من البناء المجاور.

فقلت له: لقد أسعدني هذا الأمر والمهم عندي أن تقدم كل الرعاية والاهتمام لأمي ولتشتري ما شاءت، وأكملت قائلة راجية منه أن يسعى بأي طريقة لنكمل لها فرحتها، وبما يمكننا من إرسالها لمدة شهر لزيارة أهلها مع ضمان عودتها بالتوازي مع البحث عن خادمة بديلة في حال فشلنا في مسعانا هذا.

فلم يمر أسبوع على هذا الحديث حتى أخبرني أنه طلب من أحد معارفه المكلف من قبل السفارة الأثيوبية في بيروت بملاحقة ومتابعة كل ما يتعلق بشؤون الخادمات الأثيوبيات في سورية لدى الدوائر الرسمية المعنية في وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل وإدارة الهجرة والجوازات، وأن هذا الشخص استطاع الحصول على صورة جواز سفرها المفقود من محفوظات إدارة الهجرة والجوازات وأنه بموجب هذه الصورة نظم لها استمارات شخصية في القسم القنصلي بالسفارة الأثيوبية في بيروت، وأضاف موضحاً لي الأمر (بناء على طلبي طبعاً لأنني أحببت أن أعرف سلفاً جميع الخطوات التي ستتم لاحقاً حتى صعودها إلى الطائرة)، بأن القسم القنصلي سوف يرسل الاستمارات الشخصية إلى وزارة الخارجية الأثيوبية وبدورها ترسلها إلى دوائر الهجرة والجوازات في وزارة الداخلية هناك لمنحها جواز سفر جديداً بدلاً من جواز سفرها المفقود والمنتهي الصلاحية.. فأجبته: إنني على قناعة أنها لن تفعلها بخاصة أنها

تعيش مع أمي لوحدها فهي سيدة البيت وقد أعطيتها زيادة على راتبها حتى أصبح أربعة أمثال راتبك أنت..!

وسأدفع لها قيمة بطاقة الطائرة ذهاباً وإياباً وأعطيها راتب شهر إضافياً على رواتبها، لذلك وبحسب قناعتي ومعرفتي بها لن تخذلنا وستعود لخدمة أمي إذا تمكنا من الحصول على موافقة عودتها ثانية إلى سورية من إدارة الهجرة والجوازات ووزارة الشؤون الاجتماعية والعمل، فقال: «تأملي خيراً سأبذل جهدي وفي حال فشلنا سأنقل أمك لتسكن مع أمي بالقرية في مشتى الحلو، وهناك تلقى رعاية واهتمام الجميع»، فشكرته قائلة لا تضع الحديث لأنه لا يوجد أي إنسانة قادرة على القيام بما تقوم به تلك الفتاة في خدمتها، ولو كنت أستطيع تأمين دخولها إلى السويد كخادمة معها لفعلت ولكنت أحضرتهما في إجازة الصيف لعندي في السويد. اتصلت معها ولم أفهم معظم ما قالته بحديثها معي لأنها تحدثت بسرعة يخالطها الضحك، ومما قالته «ماما.. ماما.. عمو أخذني لمحل التصوير وسحبت صور حلوة وكان معه شخص قال بدو يطلعلي جواز سفر جديد من السفارة في بيروت»، فقلت لها «مبروك وأنا سوف أدفع لك ثمن تذكرة الطائرة إلى أثيوبيا» فقاطعتني بقولها «ماما لازم تكون البطاقة روحة ورجعة» أي «ذهاباً وإيابا». هنا شعرت بالاطمئنان بعض الشيء وبأنها لن تخذلني وستعود لخدمة أمي برضائها.

متابعة أخبار سورية

إضافة لمتابعتي اليومية لهذا الموضوع المهم جداً بالنسبة لي واكبت متابعتي بطبيعة الحال للآلام والجراح التي يعاني منها جسد الأم العظيمة سورية، وبكل صدق وحزن كنت أتابع الأخبار لحظة بلحظة وأتصل بالأصدقاء عند سماعي خبر أي حادثة كانت، وفي أي منطقة حصلت لأنه بسلامة هذه الأم يسلم أبناؤها وباستقرارها ينعم أحفادها وبصلابة موقفها تحفظ حقوقها

وتحافظ على موروثها. فكم كنت ومازلت وسأبقى فخورة بانتمائي إليها وانتسابي لترابها، وكثيراً ما وصل النقاش مع بعض الأشخاص الذين ألتقيهم إلى حد الخصومة حين كانوا يغالون في عدائهم لكل المواقف التي تتخذها القيادة السورية، والتي من شأنها إفساح المجال وإعطاء الفرصة تلو الأخرى لمن ضل الطريق وأضاع البوصلة ليصبح ذئباً مفترساً لبعض إخوته أو مطية سلسة القياد بيد قاتل جده وأبيه ومغتصب أخته وبنيه، فكتبت العديد من المقالات نشرتها جريدة (الوطن) السورية وموقع (الرأي السوري).

ومنذ مطلع العام ٢٠١٢ أصبحت الأحداث أكثر سخونة وأشد عنفاً وترويعاً وسفكاً للدماء، فمنظر الضحايا والجرحى من النساء والأطفال عند كل تفجير إرهابي كان يبكي سورية قاطبة ويؤلم أبناءها، وكانت تثير خوف وقلق المتواجدين منهم في دول الاغتراب أكثر بكثير ممن هم في الداخل، وهذا ما كنت أشعر به شخصياً عندما أتحدث مع الأصدقاء الذين اعتادوا سماع أصوات التفجيرات والقذائف، حتى أن الخادمة عندما كنت أتصل معها بعد سماعي لأي حادثة تفجير كانت تقول لي: «ماما كل شيء هادئ وما فيه شيء صار انفجار وسمعنا صوته وبعدين جاءت سيارات الإسعاف نقل المجروحين وراحت» فأتعجب من كلامها.

ومما أذكره حول هذا الجانب الذي أتحدث عنه هو اتصالي معها بتاريخ ٢٠١٢/١/٦ كعادتي كل صباح حيث أخبرتني بأن أمي لا تتنفس بشكل طبيعي وهي تتنفس بسرعة وتخاف أن تسقيها الماء وأن رجليها متورمتان، فاتصلت مباشرة مع (أبو نورس) الذي لم يجب على الهاتف، فقلت لها اتصلي معه وأخبريه عنها وأنا سأكرر اتصالي به. وبعد مضي ساعة اتصلت معها ثانية فلم تجب على هاتف البيت فعاودت الاتصال على هاتفها الخلوي حيث أعطاني إشارة خارج التغطية، فانتابني الخوف الشديد فاتصلت مع (أبو نورس)

ثلاث أو أربع مرات حتى أجابني، فسألته بقلق: أين أمي. وماذا حصل لها؟ وكعادته سمعته يقول «هذه ابنتك سهام تريد أن تكلمك» فسمعت صوتها تناديني «سهام أين أنت.. أنا مليحة.. أنا جابوني المشفى».

بعد ذلك أخبرني بأن (ماريا) اتصلت معه وأخبرته بوضع أمي، وأنه كان بالطريق لعندهما حيث نقلها مباشرة إلى مشفى قريب لمكان سكنها هو مشفى "يافا" وطمأنني بأن وضعها جيد ولا خوف عليها، وتبين بأن لديها احتباس سوائل بنسبة قليلة وقد أصبحت حالتها أفضل وتميل إلى التحسن.

أضحكني بقوله «ماريا أشطر من ممرضات المشفى وهي ستعتني بها في البيت بعد أن تأخذ الدواء اللازم أفضل بكثير من عناية وخدمة المشفى». وهذا ما حصل حيث أعادها إلى البيت بعد عدة ساعات من إسعافها.

وكنت بالوقت نفسه أتابع أخبار الفضائية السورية، عندما قرأت خبراً مؤسفاً عن وقوع تفجير انتحاري في حي الميدان القديم بدمشق، وأن عدد الضحايا وصل إلى أكثر من عشرين شهيداً ومن الجرحى ضعف هذا العدد. وهذا ما زاد من ألمي وحزني وقلت في نفسي رحمتك يا الله ولطفك بنا.. أمي مريضة ضاق نفسها وتورمت رجلاها بالوقت عينه أدمى التفجير عيون عشرات الأمهات اللواتي فقدن أبناءهن أو أزواجهن ويتّم أطفالاً فقدوا أمهاتهم.. كانت ساعات صعبة وعصيبة.. وكانت تلك الفترة تشهد وجود بعثة مراقبي الجامعة العربية في سورية، وكان وجودها مادة خصبة وغنية للنقاشات والتحاليل ما بين متفائل بها أو متشائم منها.

أمام قتامة المشهد واهتزاز وتشويش الرؤية عند الكثيرين ممن يراقبون ما يجري في سورية ويترقبون سقوطاً وشيكاً لمؤسساتها، جاء الرد عليهم من ساحة الأمويين من الجموع الكبيرة لأبناء سورية الذين احتشدوا بتاريخ ٢٠١٢/١/١١ حين أطل عليهم السيد الرئيس بشار الأسد في وقفة سيذكرها المؤرخون لهذه

الفترة من تاريخ سورية، حيث اعتلى منصة الخطابة لتكتمل لوحة وطنية ذات دلالات عميقة، حيث امتلأت الساحة بالمواطنين السوريين أمامه ومن خلف مكتبة لتاريخ عريق يحمي ظهره وعن يمينه يبدو قاسيون بالشموخ والثبات يمده وعن يساره انصب سيف دمشقي متى أراد استله. ومن جميل ما قاله: «لننظر إلى المستقبل إلى الأمام إلى سورية التي نحب إلى سورية القوية سورية العزة والكرامة». همه إنقاذ سورية ومنعها من السقوط وحماية ترابها وصون وحدتها ووحدة شعبها.

لقد وجهت وقفة أبناء سورية في هذا اليوم وذاك المكان رسالة هامة لكل تلك القوى التي أرادت إشعال النار في البيت السوري الكبير، فجاء الرد عليهم من أبنائها بأن سورية الأم لن تذل كرامتها وستبقى خالدة تحتضن أبناءها الأوفياء وأحفادها الشرفاء الذين يعمدون ترابها بالدماء، وبالوقت ذاته فإنها تتألم عليهم فهي لا تريد خسارة أحدهم وتتوجع لوجعهم فهي تحتضنهم وإن خاصموها وتستقبلهم وإن هجروها.

فمنهم من رأى فيها حلقة من حلقات التآمر العربي على سورية، لأن من أعد لها وساهم فيها كان يأمل أن تدين بنتيجة عملها القيادة والسلطات السورية، ولكن وكما يقال (تجري الرياح بما لا تشتهي السفن) فقد جاء تقرير رئيس البعثة الفريق مصطفى الدابي صادماً لإرادة ونيات أشرار العرب.

هكذا كانت تمضي فصول التآمر على أمنا العظيمة سورية وهكذا كانوا يثخنونها جراحاً وهكذا كانوا يجعلونها تبكي دماً على كل نقطة دم تراق من أجساد أبنائها وأحفادها. وبالوقت ذاته فهي فخورة بهم معتزة بوفائهم لها فاغتنموا من تراثها علماً وأدباً وروتهم من خلاصة شهد ما جناه أجدادهم وأطلقتهم رسل حضارة وسفراء تاريخ عريق لكل أصقاع المعمورة.

هذا جزء يسير من مجمل الأحاديث والنقاشات التي أشرت إليها كانت ومازالت مدار جدال وحوار مع الأصدقاء في السويد وهاتفياً مع بقية الأصدقاء والإخوة في سورية، حيث استدعى وجود أمي في تلك الفترة في دمشق أن يتكرر سفري إليها بحسب تطور الوضع الصحي لوالدتي.. كما ازدادت وتيرة الاتصالات بسبب (ماريا) التي كانت تسألني في كل اتصال معها عن جواز سفرها ومتى ستسلمه ومتى ستسافر وتبدي تخوفها بألا يسمح لها والدها بالعودة، وهذا ما كان يوقعني باضطراب وخوف من أن يصدق ظنها ويدفعني للشك بأنها قد لا تعود مهما قدمت لها من إغراءات مادية ومعنوية.

السعي لتأمين خادمة جديدة

فوجدت أنه من الأفضل أن احتاط للموضوع سلفاً فطلبت من (أبو نورس) تأمين أية امرأة لديها خبرة في رعاية وخدمة المسنين، تقبل الإقامة الدائمة برفقة أمي أو تقبل القيام بخدمتها منذ الصباح وحتى المساء خلال الفترة التي سأكون فيها بدمشق عندما تسافر (ماريا). فأعلمني بأن وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل أعلنت بلسان وزيرها عن تأهيل فتيات سوريات للعمل كمربيات للأطفال وأعمال الخدمة المنزلية خلال ساعات دوام عمل محددة وبأجور معلومة بالاتفاق بين الفتاة والمستفيد من عملها وخدمتها بموجب عقود عمل وتأمين وبإشراف الوزارة.

فوضعت ما سمعته منه في حسباني وسألته: هل تعتقد أن وزارة الشؤون الاجتماعية ستعلن عن هذا الأمر بدون أن يكون لديها طلبات عمل في هذا المجال؟ فوعدني أن يستعلم عن الموضوع في الأيام القادمة وسيتم افتتاح مراكز تدريب وتأهيل لهذه الغاية بهدف الحد من استقدام الخادمات الأجنبيات وخلق فرص عمل جديدة للمجتمع السوري.

لكنني لم أنتظر جوابه ولا يوماً واحداً وقلت في نفسي: طالما وصل الموضوع لمستوى وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل ما قد يضطرني لمراجعتها عند مجيئي إلى سورية، لماذا لا أستبق الأمر فلربما وجدت حاجتي وتحققت غايتي من خلال الوزارة، وقد يكون العديد من طلبات العمل عند مكتب الوزير وهذا ما دعاه للإعلان عن هذا الموضوع، ومن جهة ثانية فإنه في حال وجود أي طلب لأي سيدة أو فتاة فأكون سباقة في تأمين فرصة عمل لفتاة من بلدي، ومن جهة أخرى سترتاح والدتي لأنها ستتحدث معها باللغة العربية ما يساعد على تنشيط ذاكرتها بشكل كبير.

وبناء على ما أشيع حول هذا الموضوع وما كتب في الصحف قابل (أبو نورس) وزير الشؤون الاجتماعية والعمل الذي استقبله واستمع منه تفاصيل حياة أمي بدمشق ومواصفات البيت الذي تسكنه، من حيث الموقع والإطلالة والخدمات، وعن الميزات التي تحظى بها الخادمة المرافقة لها والراتب الذي تأخذه والهدايا التي تقدم لها والرعاية الصحية والانترنيت والهاتف الجوال، وكان هذا الحديث على مسمع من سكرتيرة الوزير والتي عقبت قائلة: «اشتهيت أن أعمل عند أم حنا».

أما الوزير فقال: «كل من يسمع هذه الإغراءات سيقبل بالعمل في خدمة أم حنا».

وكلف السكرتيرة أن تتصل بإحدى النساء التي راجعت مكتبها سابقاً باحثة عن فرصة للعمل في هذا المجال فأعطاهما (أبو نورس) رقم هاتف البيت عند أمي ورقم هاتفه على أمل أن يتلقى منها خيراً خلال الأيام القادمة، بعدما وعدته بأنها ستتصل بتلك السيدة التي طلبت منها تأمين فرصة عمل لها، وأعلمني أنه شرح للوزير مدى الحاجة لعودة الفتاة الإثيوبية في حال سافرت من سورية، وأن هذه الحاجة إنسانية بحتة وضرورية جداً نظراً لحالة مخدومتها

الصحية الصعبة، وأنه وجد تجاوباً وتعاطفاً منه وذلك من خلال جوابه له واستعداده لإعطاء الموافقة على عودتها من جهته كوزير للشؤون الاجتماعية والعمل، على أن يتم ضمان موافقة إدارة الهجرة والجوازات كي تتمكن من العودة ثانية للعمل كخادمة داخل سورية.

بعدما علمت بكل ما دار حول هذا الموضوع فكرت بحل آخر واتصلت بماريا وسألتها عن فتاة أخرى من أقربائها لم تأت ولم تعمل سابقاً في سورية ولديها الخبرة المطلوبة لخدمة كبار السن ورعايتهم، وأوضحت لها الأمر: بأنه في حال تعذر علينا تأمين الموافقة على عودتها، فيمكن أن تستقدم قريبتها لتحل محلها في خدمة أمي.. فأعلمتني بأن ابنة خالها أو خالتها . ولم أعد أذكر بالضبط . كانت تعمل في السعودية في خدمة عائلة كان لديها عجوز مقعدة وبقيت في خدمتها لمدة عامين ثم عادت إلى أثيوبيا.. عندما أجابتني بذلك شعرت بالارتياح ووجدت في ذلك حلاً لمشكلتي كما شعرت بعدم ارتياح (ماريا) لسؤالي هذا، بالرغم مما أجابتني به وذلك لأنها عقبت على سؤالي بنهاية المكالمة قائلة: «ليش ماما.. ما بقى بدك أرجع لعند ماما أم حنا، وهل أنا قصرت في خدمتها»، فاضطررت لإعادة التوضيح لها بأنني لا أرغب بأي إنسانة غيرها تكون في خدمة أمي ولكنني أخاف أن أفشل في تأمين عودتها من أثيوبيا بصفة خادمة.

لقد أرهقني وأتعبني التفكير في هذا الأمر فكنت أحياناً أجري أكثر من عشرة اتصالات في اليوم الواحد.. حتى أنني طرحت رأياً على الأصدقاء الذين أتعبتهم معي كثيراً تلك الأيام حين سألت عن إمكانية إرسال دعوة زيارة لها إلى سورية بعد سفرها إلى أثيوبيا بخمسة عشر يوماً بصفتي مواطنة سورية، وعندها تأتي بصفة سياحية ثم نعمل على تمديد المدة الممنوحة لها كزائرة أجنبية من الهجرة والجوازات، وبذلك أضمن عودتها لخدمة أمي.

بعد أسبوع تقريباً خرجت برأي جديد طرحته على الأصدقاء وهو أن تأتي (ماريا) وقريبتها وتبقيان معاً في البيت.

لكن جميع هذه الأفكار الاحتمالية التي اجتهدت واتبعت ذهني للوصول إليها تبخرت دفعة واحدة وذهبت أدراج الرياح عندما أعلمني (أبو نورس) خلال اتصال هاتفي بيننا أنه وجد الحل الأمثل.. للوهلة الأولى اعتقدت بأنه تلقى اتصالاً من سكرتيرة وزير الشؤون الاجتماعية والعمل وعندما نفى ذلك، ظننت أنه تواصل مع شقيقه (أبو إبراهيم) الذي كان يبحث عن فتاة أو سيدة من قريته أو القرى المجاورة بالفترة نفسها بناء على اتصالي معه وأنه أبلغه بأنه وجد فتاة تقبل العمل والإقامة في دمشق عند أمي.. وبانتفاء ظني هذا قلت له بالحرف الواحد: «لقد ارتفع ضغطي أخبرني ما هذا الحل الذهبي الذي وصلت إليه..!».

فنطق بالجوهرة قائلاً: «أولاً مبروك لقد استلمت اليوم ٢٠١٢/٣/٢٢ جواز سفرها الجديد فقد أحضره صديقي من السفارة الأثيوبية في بيروت ولن أسلمه لها وإنما سأجعلها تشاهده فقط كي يطمئن قلبها». فسألته وأين الحل الذي تتحدث عنه..؟

أجابني: «انتظري لأكمل كلامي.. الحل الذي أقصده جاء مع جواز سفر ماريا» فاستوضحت منه «وكيف ذلك؟».

حينها أوضح لي الأمر بأن الشخص الذي تولى موضوع جواز سفرها يملك الحل باعتباره يتابع شؤون الخادمات ويتدخل بكل ما يعترضهن من مشاكل مع مخدوميهن، ويساعدهن في الحصول على حقوقهن وتأمين وثائق شخصية لهن في حال فقدانها، ويقوم بالتنسيق مع إدارة الهجرة والجوازات لتسهيل سفرهنّ إلى أثيوبيا.. وأنه عندما أحضر له جواز سفرها سأله عن إمكانية تأمين خادمة أثيوبية بديلة خلال الفترة التي ستسافر بها إلى أثيوبيا وأوضح له ميزات الخدمة عند والدتي كما استقبله عندها في البيت ليعطيه الثقة والمصداقية فيما يقوله.

عند ذلك أخبره بوجود عدة خادمات أثيوبيات يقمن في شقة بمعرفته وبأنه يعمل على إنجاز وثائقهن الشخصية ليسافرن إلى بلدهن وأنه لن يستطيع إنجاز إجراءات سفرهن قبل شهرين أو ثلاثة، وقال إنه سيحاول إقناع إحداهن للعمل عند والدتي، وذلك لسبب وجيه هو أن جميعهن تركن العمل عند مخدوميهم لأسباب شخصية ومنها مادية كثيرة، ومنها ما تعرضت له الخادمات الأثيوبيات من عنف وابتزاز واستغلال عند مخدوميهن.

هذه الفكرة أعجبتني جداً واقتنعت بها ووجدت فيها حلاً مثالياً.

أراحني جداً هذا الخبر لتبدأ بعده جولة جديدة من الاتصالات والمتابعة اليومية لتحقيق هذه الفرصة وترجمتها فعلياً على أرض الواقع.

توالت الاتصالات بيني وبين أخي حنا الذي كنت أطلعه على هذا المخاض بالتفصيل، فكان يشد من أزري ويستفسر مني عن أدق الأمور المتعلقة بهذا الموضوع بالرغم من اتصاله مع الوالدة، حيث كان يجد صعوبة فيما تشرحه (ماريا) فيعود للاتصال معي لأترجم ما قالته.

شعوري بحجم المسؤولية كان يضنيني حين كنت أخاف أن تتعرض والدتي لأي مكروه وجميع أولادها بعيدون عنها إنه امتحان صعب ومخاض عسير.. وبكل صدقٍ أقول: كنت أخاف ألا نجد عذراً يعذرنا فيما لو فارقت والدتي الحياة بغياب أولادها السبعة.. فهي كبيرة السن مرهقة الجسد أتعبها مرض الزهايمر وأصبحت عاجزة عن القيام بأي شيء بمفردها، لذلك كنت حريصة كل الحرص على تأمين أفضل مستوى من الخدمات والحياة الكريمة لوالدتي، وهذا ليس من باب التكرار في وصف الحالة، وإنما من باب التأكيد بأن جلّ اهتمامي كان منصباً على حفظ كرامتها وصون سمعتها وسمعة بقية إخوتي حتى لا تشرحهم ألسنة الناس لوماً وتجريماً.

تطورات خطيرة على الساحة السورية

كل ذلك تواكب مع تطورات خطيرة داخلية وخارجية في سورية فالتآمر عليها أصبح علنياً وجرائم الإرهاب أكثر دموية وتنوعاً، والمتآمرون لم يخفوا نياتهم من خلال دفعهم بأدواتهم لإشعال نار حرب طائفية لا تبقي ولا تذر على أحد من أبناء سورية الجريحة، فأنكروا وتنكّروا لأي خطوة إصلاحية بادرت بها القيادة السياسية وبخاصة الدستور الجديد الذي تم التصويت عليه بتاريخ ٢٠١٢/٢/٢٦، فزادت الحكومات الأوروبية من إجراءات الضغط على القيادة السورية (فرض عقوبات اقتصادية.. سحب سفراء.. وإغلاق سفارات.. اتهام الجيش بارتكاب مجازر..الخ).

حيث تواكب هذا الضغط مع تفجيرات إرهابية كبيرة هزت مدينة دمشق بتاريخ ٢٠١٢/٣/١٧ في دوار الجمارك وساحة التحرير. بالرغم من ذلك كانت ثقتي كبيرة بأن هذا التآمر لن يكتب له النجاح وأن مشروع الحرب الطائفية لن يبصر النور، عندما قام الرئيس بشار الأسد بجولة تفقدية بتاريخ ٢٠١٢/٣/٢٧ في بابا عمرو في حمص، وما قُوبل به من مظاهر الحفاوة التي بادله بها أبناء ذلك الحي والضباط والجنود الذين نذروا حياتهم ودماءهم لحماية سورية وحماية شعبها وملاحقة الإرهاب أينما تواجد في أي بقعة فيها، يبلسمون جراح أمهم ويستأصلون سرطان الإرهاب من جسدها كما لو أنهم أطباء اختصاصيون في استئصال الأورام الخبيثة.

هذا غيض من فيض مما كانت تعانيه الأم سورية وهكذا كانوا ومازالوا يريدونها أماً تكلى بأبنائها وأحفادها. لم أعد أتحدث مع الإخوة والأصدقاء بشؤون عائلية ولم يعد يخطرني أن أذهب بإجازة للاستجمام والراحة، فقد صادر وضع أمي والحرب في بلدي تفكيري تماماً فهما محور اهتمامي وأفق خيالي

حتى أصبحت أحلم بهما.. فكم من حلم رأيت فيه أمي تمشي كسابق عهدها بقوة وحيوية وهي تناديني وتنادي بقية إخوتي لنأتي إليها، وكم من حلم رأيت فيه أشخاصاً مسلحين يوجهون بنادقهم نحوي فاستيقظ خائفة مرعوبة وكأن الحلم حقيقة.. لم يكن ذلك كله صدفة ولم يستحضره العقل الباطن أو اللاشعور جزافاً وإنما كان بسبب التفكير الزائد وكنتيجة طبيعية لمواكبة الحالتين ومتابعة أوضاع التوءم.. أمي وسورية.

بكل تأكيد لم أكن وحدي من بين إخوتي من أبي وأمي وإخوتي من أبناء سورية أعاني من هذا الشعور والانقلاب النفسي وما يرافقه من خوف واضطراب فالجميع كان يتألم.

لم تكن الأيام تنتظرني فهي تمر مسرعة مر السحاب فما أن يبدأ الشهر حتى ينتهي، فكنت أسأل بعض الأصدقاء أحياناً إن كان لديهم الشعور نفسه بأن الأيام تمر سريعة على غير عادتها عندما كنا صغاراً، وبسبب ذلك لم أكن أقبل تأجيل أمر على حساب أمر آخر فطبقت المثل القائل: «لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد» أفضل وأمثل تطبيق، ولو كان صاحب المثل هذا على قيد الحياة لكنت أول من يحصل على مكافأته وجائزته، ولذلك انتظرت ثلاثة أيام بعدما أخبرني السيد (أبو نورس) عن إمكانية تأمين خادمة بديلة فاتصلت معه لأساله عن مستجدات الموضوع حيث أخبرني بأن صديقه قد وعده خيراً، وقال له «لا تحمل هم.. شغلة بسيطة.. ستكون الخادمة البديلة عند (أم حنا) باليوم نفسه الذي تسافر به خادمتها».

كررت ما قلته له سابقاً: «يا أخي الله يرضى عليك لا تبقى تقلي كلمة بسيطة أنا أكره هذه الكلمة.. أخبرني بالضبط.. هل سيكون صديقك صادقاً معنا؟ وهل أنت واثق مما يعدنا به..الخ». من هذه الاستفسارات المتلاحقة

لأنني كنت أتمنى أن يخبرني بأنه أحضر الخادمة البديلة ولو كلفني ذلك راتب شهر أو شهرين لها.. بحيث تتدرب على أصول العمل والتعامل مع والدتي.

بنهاية الاتصال طمأنني بأن كل شيء سيكون على ما يرام وأنه يثق بصديقه ويمكن أن يأتي بأكثر من خادمة حتى لو كانت مدة قصيرة برفقة ماريا، فإن لم يعجبنا عملها نستبدلها بخادمة ثانية وهكذا حتى نجد الخادمة المناسبة.

أغاظني وأزعجني جوابه جداً ما اضطرني لإجابته بقولي: «هل تظن أنني أحضرت والدتي إلى دمشق لتكون حقل تجارب لك ولغيرك وهل كنت ستتصرف الشيء نفسه لو كانت والدتك مكانها».

لم يُرِد هو أن يطور النقاش واقتصر الحديث بأن ضرب لي مثلاً أو كما يقال قولاً شائعاً بقوله: «احترنا يا أقرع من وين نمشطك».

جوابه هذا جرحني.. فاعتقدت للوهلة الأولى أنه سئم هذا الموضوع.. أعدت في ذهني شريط الحديث بل الأحاديث بيننا خلال ثوانٍ معدودات، فرأيت أنه على حق فيما قاله وقدرت له تعبه منذ وصلت والدتي إلى دمشق وصدقه في كل ما قاله وكل ما يقوم به.

وعلى المبدأ القائل: «الاعتراف بالحق فضيلة» أجبته: أنا موافقة على ما تتفق به مع صديقك وأنني أفضل أن تكون نظيفة المظهر وليس لها سابقة سرقة وألا تدخن السجائر وألا تقل مدة عملها عند والدتي عن ثلاثة أشهر.

شعر بانسحابي من طريقتي وأسلوبي الهجومي في هذا الحديث حين وعدني بأنه سيبحث هذا الشيء ويضعني بالصورة النهائية خلال أسبوع على الأكثر، بعد أن أوضح لي بأن صديقه سافر إلى بيروت لمراجعة السفارة الأثيوبية لأمر يتعلق بجوازات سفر خادمتين هربتا من عند مخدوميهما بسبب سوء المعاملة.

أبديت رغبتي مباشرة أن يحاول رؤيتهما على وجه السرعة قبل أن تختلطا طويلاً مع بقية الخادمات اللواتي يقمن مع بعضهن حتى لا يكتسبن عادات سيئة «كالتدخين مثلاً»، وأن يتفق معها مباشرة ويحضرها إلى البيت بقصد أن تتعرف على الخدمات التي تقوم بها كما ذكرت سابقاً.

ترافق كلامي هذا مع شيء من القلق لأن (ماريا) لم تكن تريد سابقاً أن تسمع بوجود خادمة أخرى معها.

بكل حال كانت محقة بذلك لأنها سيدة نفسها فلا كبير في البيت يأمرها ولا طفل يتعبها.. تنام متى شاءت وتستيقظ متى شاءت وتشتري ما تريد وتتحدث بالهاتف متى تريد فأمرها مطاع وقولها مسموع.. مياه ساخنة على مدار الساعة.. تصلها حاجاتها إلى البيت إن أرادت تطلبها بالهاتف وإن شاءت أحضرتها بنفسها.. مخدومتها عجوز مستسلمة لإرادتها تطعمها وتسقيها كما تشتهي هي فكيف لها أن تشعر بالارتياح لوجود خادمة أخرى برفقتها.

كنت أعود بذاكرتي إلى الأيام الأولى لوجودها في خدمة أمي حيث كانت مدمنة على أكل الزيت مع الزعتر والحمص المطحون (مسبّحة)، أما الآن فأصبحت لا ترضى بأقل من شرائح سمك الهامور ولحم العجل الأحمر الخالي من العروق والدهون والدجاج المقطع (والكورنفلكس مع الحليب والأجبان بأنواعها، حتى أنها رفضت مرة أن تأكل قطع جبنة البقرة الضاحكة واستبدلتها من السوبر ماركت بجبنة (لافاش كيري) إضافة للعسل والمربيات بأنواعها، ولم تعد تشتري العبوات الصغيرة من المشروبات الغازية بل أصبحت تأتي بالعبوات الكبيرة ذات الحجم العائلي.

بعض الأصدقاء كان يمازحني بالقول: أصبحت زيارة أمك مغرية فما نجده من ضيافة لنا لا نجده في بيوتنا بل لا نشتريه أصلاً.

كنت أقابل ما أسمعه بارتياح وسعادة لأنه تأكيد لي بأن والدتي لا ينقصها شيء من أنواع المأكولات المغذية حيث بدت عليها علائم الصحة والسمنة، وقد لاحظت ذلك عندما كانت تمشي داخل البيت أمام كاميرا السكايب حتى أن بعض إخوتي لاحظ ذلك وبخاصة حنا وكميل وكبرييل، وقد نبهني حنا أكثر من مرة على هذا الأمر بقوله: «ماما واضح عليها السمنة والصحة الزائدة..».

بدوري أعود لأطلب من (ماريا) أن تساعدها بالنزول والمشي على الرصيف بمساعدة عربيتها التي تدفعها أمامها وتجلس على مقعدها إن أتعبها المشي.

وكثيراً ما كنت أطلب من صديقنا أن يراقب لي هذا الموضوع فكان يخبرني أنه التقى بها تمشيان على الرصيف أو أنه شاهدهما بطريقهما للتسوق من مؤسسة الخضار والفواكه أو السوبر ماركت.

منذ مطلع الشهر الرابع ٢٠١٢ بدأت أعد العدة للسفر إلى دمشق في مطلع شهر أيار وكان أهم شيء يدور في ذهني هو: متى ستأتي الخادمة البديلة؟

ومنذ مطلع الشهر الرابع بدأنا بإجراءات تسفير الخادمة إلى أثيوبيا لتبدأ جولة جديدة من الاتصالات والمتابعة اليومية.. وتولى الأخ (أبو نورس) هذا الموضوع من ألفه إلى يائه حيث كان عليه مراجعة إدارة الهجرة والجوازات ومكتب الخطوط الجوية اليمنية.

وباعتباري سأدفع لها قيمة البطاقة ذهاباً وإياباً إضافة لشعوري بالمسؤولية الأخلاقية تجاهها.. فقد أبديت رغبتي بأن يكون وصولها إلى مطار أديس بابا نهاراً وألا يكون عليها الانتظار بمطار صنعاء طويلاً فيما لو سافرت عن طريق صنعاء.

لحسن الحظ كان صديقنا على معرفة طيبة بالمسؤول عن مكتب الخطوط الجوية اليمنية بدمشق حيث زاره بمكتبه عدة مرات وتم الحجز لها ودفع قيمة بطاقة السفر ذهاباً وإياباً إلى أديس بابا عن طريق صنعاء...

ترادفت الأخبار السارة بتلك الفترة تباعاً عندما علمت بأن الخادمة البديلة والمناسبة ستأتي لمباشرة عملها عندنا باليوم نفسه الذي أصل فيه إلى دمشق فقلت لنفسي.. وهذا نجاح آخر. وشعرت بأن جبلاً انزاح عن كاهلي.

هذا بعض ما استطعت فعله حتى هذا الوقت من وجود والدتي بدمشق لأوفر الراحة والسعادة لوالدتي.. وبالتوازي لم أغفل أبداً عن متابعة ومواكبة كل ما يتعلق وما يجري في سورية الأم الخالدة أم الجميع .. أم الحضارة.. أم التاريخ.. موطن الإنسان.. أرض الرسالات والأديان.. قلب البشرية النابض الذي مسه الوجع وأرهقه التعب.. كنت أستبشر خيراً بكل خطوة وطنية تخطوها القيادة السورية، ومنها الإعلان عن إجراء الانتخابات التشريعية لاختيار أعضاء مجلس الشعب في السابع من شهر أيار والإعلان بتاريخ ٢٠١٢/٣/٣١ بأن معركة «إسقاط الدولة» في البلاد انتهت «بلا رجعة»، وأن وفداً من الأمم المتحدة سيزور دمشق للتفاوض حول آلية تطبيق خطة كوفي عنان، جميع هذه الأخبار كانت بشائر خير وتدعو للاطمئنان الذي ازدادت نسبته بتاريخ ٢٠١٢/٤/١١ حين أعلنت وزارة الدفاع السورية وقف الأعمال العسكرية اعتباراً من صباح اليوم التالي، حيث دعت فيه وزارة الداخلية جميع اللاجئين الذين فرّوا إلى مناطق أخرى أو دول الجوار للعودة إلى منازلهم، وتوالت أسباب التفاؤل بتاريخ ٢٠١٢/٤/١٦ حين وصلت طليعة مراقبي الأمم المتحدة المكلفين بالإشراف على وقف إطلاق النار وبدأت مهمتها بزيارات خارج العاصمة دمشق حيث لاقى هذا الموضوع مواكبة إعلامية منقطعة النظير على المستويين المحلي والعالمي.

أما الأمر المريب والمحزن هو أن تقابل هذه الخطوات والاستجابة الصادقة لكافة المبادرات الهادفة لحقن الدماء.. أن تقابل بإجراءات أوروبية تفوح منها رائحة التآمر والمكر والخداع.

بالفترة نفسها كانت أدوات الغرب تمعن في سفك دماء أبناء سورية في غالبية المناطق. خلط الأوراق هذه كان يعيدني لنقطة الصفر من جديد عند تحليل أي حدث مستجد سياسي كان أم ميداني، حالي في ذلك حالة جميع إخوتي السوريين عند كل منعطف لما شاهدته وتشهده الأم الحزينة سورية منذ تلك الأيام وحتى تاريخ كتابة هذه الكلمات، فكنت أصلي لخلاصها وفي كل مرة يقتحم خلوتي سؤال يكرر نفسه باستمرار.. لماذا هذا التوحش الذي تجاوز الخيال في إيلام هذه الأم؟ ولماذا يريدون لتاريخها وموروثها الذي تحتفظ به لأبنائها الاندثار؟!

بقيت أيام قليلة لنهاية شهر نيسان ٢٠١٢ وكنت قد أنهيت جميع مستلزمات سفري إلى سورية وأنا متخوفة من أي إجراء تتخذه المجموعة الأوروبية بمنع الطيران السوري من الهبوط في مطارات أوروبا، وكما يقال «المكتوب يقرأ من عنوانه» فقد أصبحت ألاحظ بوادر هذا الإجراء من خلال سياسة التدرج في العقوبات التي اتبعتها الحكومات الأوروبية للضغط على سورية، وكان هذا جزءاً مما كنت أتداوله هاتفياً مع بعض الأصدقاء حتى اليوم الأخير من شهر نيسان حيث أوصلني زوجي إلى مطار استوكهولم قرابة منتصف الليل لأن موعد إقلاع الطائرة إلى دمشق كان حوالي الثالثة فجراً.

إجازة ربيعية رائعة

أقلعت الطائرة السورية بالموعد المحدد وحطت في مطار حلب صباح ٢٠١٢/٥/١ حيث غادرها الكثير من الركاب الذين كان حجزهم إلى حلب وصعد إليها بعض المسافرين من حلب إلى دمشق، وبالساعة التاسعة صباحاً

حطت الطائرة في مطار دمشق، وبعد استلام حقائبي اتصلت مع (ماريا) وأخبرتها أنني بالطريق إلى البيت، وحين وصلت أمام البناء رأيتهما تقفان على شرفة البيت. وكانت (ماريا) ضاحكة مستبشرة وسعيدة بوصولي.. كيف لا تكون سعيدة وهي الأخرى ستسافر لزيارة والدها وتعلم بأن الحقيبة التي صعدت بها إلى البيت مليئة بالهدايا لها.

حين صعدت بالمصعد كانت والدتي قد تركت مكانها على الشرفة ودخلت لملاقاتي أمام الباب، وما إن فُتح باب المصعد حتى رأيتها وهي تمسك جانبي الباب بيديها كمن يريد أن يمنع الآخر من الدخول، فابتسمت ابتسامة عريضة أعقبتها قائلة: «الحمد لله على سلامته يابو سهام.. أهلاً وسهلاً..» فقبلت يديها ووجهها وأمسكت بيدي ولفت الأخرى حول خصري ودخلنا معاً وهي تردد عبارات التأهيل والترحيب.

جلست بجانبها أقبلها وأتلمس شعرها ويديها وهي تنظر إليّ بسعادة وكعادتها طلبت طعام الفطور بقولها «يابو.. حطي الأكل على الطاولة.. سهام تكون جوعانة.. خفيف حطي الأكل لا تتأخرين».. شاركتها نقل أطباق الطعام من المطبخ إلى الطاولة، وخلال تناولنا الطعام سألتني عن زوجي وإخوتي وبناتي وعن الأحفاد وعن عملي فأخبرتها بالتفصيل وكانت مسرورة بما تسمعه مني، وعندما قلت لها إنني تحدثت مع حنا وبقية إخوتي، سألتني: «ليش تجين وحدك أين إخوتك مو يجوا معك» فشرحت لها بأنهم مشغولين كثيراً بالبرازيل وسيأتون لعندك عندما تتحسن الأوضاع في سورية.. فضحكت معقبة على كلامي «ليش إيش فيه بسورية.. كل الناس كويسين وكلشي موجود ورخيص.. والرئيس يحبنا ونحن نحبه والمشاكل بعيدة عن بيتنا.. ليش يخافون».

كانت كلماتها هذه في غاية الدفء والصدق وأعجبتني جداً.. فقلت لها: «معك حق يا أحلى ماما».

بعد استراحة قصيرة أعطيت (ماريا) ما أحضرته لها من هدايا لها ولوالدها ولشقيقها فغمرتها الفرحة وهي تتفحصها وتعرضها على والدتي التي قالت لها: «مبروكين.. تقطعيها بعرق العافية.. تستاهلين أكتر» وسألتها «أيشو قلتيلي اسم أبوك» ضحكت وأجابتها: «ملسا».

رددت والدتي الاسم «ملسا.. ملسا.. ملسا» وضحكت كثيراً وهي تردد الاسم، قمت بتحضير القهوة وقدمتها لها، وقلت: «ماما تعرفين أن (ماريا) ستسافر إلى أثيوبيا لزيارة والدها وستبقى لمدة شهر عنده وسترجع لعندك» فما كان منها إلا أن أمسكت بيدها وجذبتها إليها وقبلتها قائلة: «تريدين تروحين لعند ملسا ابقي سلمي عليه كتير.. قولي له فيه وحدة ختيارة اسمها أم حنا تسلم عليك».

أجابتها قائلة: «على راسي يا ماما بدي أقول للبابا.. ماما أم حنا تسلم عليك كتير كتير».

عندما سمعت هذا الكلام العاطفي منها وعندما رأيتها كيف أمسكت بيدها وقبلتها على وجهها بكيت فرحاً لشدة تأثري بما تلفظت به.. وشكرت الرب على كرمه ولطفه. غلبني النعاس في هذا الوقت بسبب التعب وإرهاق السفر مع أنني شربت كوباً كبيراً من القهوة ونمت لمدة ساعتين تقريباً حيث أيقظتني لتسألني ماذا أريد أن تحضر من طعام الغداء، فقلت لها لنسأل أمي ماذا تحب أن تأكل. سمعت أمي سؤالها وجوابي لها فنظرت نحوي قائلة: «إيش تريدين تطبخين موجود في البيت.. ساويلنا طبخة مشكلة مع الرز..» وعلى الفور قمت بإعداد هذه الأكلة وكنت مسرورة في تحضيرها لأن أمي طلبتها، وخلال تحضيري الطعام أجريت عدة اتصالات إلى السويد ومع بعض الأصدقاء في دمشق فمنهم من كان يعلم بوصولي ومنهم من فاجأه اتصالي.

اتصلت مع الأخ (أبو نورس) وسألته عن الجديد فيما يتعلق بسفر الخادمة فقال: «أنا بمكتب الخطوط الجوية اليمنية وقد تم الحجز لها لتسافر إلى صنعاء ومنها إلى أديس بابا بتاريخ ٢٠١٢/٥/٤».

فرحت (ماريا) بهذا الخبر كثيراً وما هي إلا ساعة حتى وصل لعندنا ومعه نسخة عن بطاقة الحجز أعطاها لي مع جواز سفرها، لم تصدق أنها ستسافر لزيارة والدها، وأكثرت من الأسئلة حول إمكانية عودتها ثانية لعندنا.

عندما أيقنت أن سفرها أصبح واقعاً.. طلبت مني أن تذهب إلى الأسواق لتشتري بعض الهدايا لوالدها، فأعطيتها مبلغاً مالياً بالليرات السورية إضافة لما تحتفظ به من المبالغ التي كنت أطلب إعطاءها لها في كل مناسبة.

واشترت ما يحلو لها من محلات الصالحية والشعلان، وأخذت تشرح لي لمن ستقدم تلك الأغراض التي اشترتها وهي تضعها في حقيبتها ولكثرة أغراضها أعطيتها إحدى حقائب سفري.

اصطحبتها مع والدتي في اليوم التالي لتناول الغداء بأحد مطاعم المول التجاري في كفرسوسة وسميته «غداء الوداع».

بعد الغداء عدنا إلى البيت حيث اتصلت مع صديقنا وسألته عن الخادمة البديلة ومتى ستأتي إلى البيت، وكنت حينها أعاني من أوجاع في الكتف ومرهقة الأعصاب من كثرة الأحاديث والأخبار عن التفجيرات وحالات الاختطاف والقتل وقطع الطرقات.

إضافة لقلقي من عدم حضور الخادمة البديلة.. فسألته ألا يوجد مكتب للخادمات يمكن أن تذهب إليها فربما وجدت خادمة أنتقيها بنفسي تكون أفضل من الخادمة الموعودة. وأذكر بأن الصديقة (أم مهاب) وابنتها هبة كانتا عندي في البيت.

أعلمني (أبو نورس) أن أحد أصدقائه أرشده إلى مكتب للخادمات في منطقة القصاع القريبة من باب توما.. أبديت رغبتي بالذهاب إلى ذلك المكتب مباشرة.

ذهبنا نحن الثلاثة برفقته وخلال الطريق اتصل بصديقه الذي أرشده على العنوان.. دخلنا المكتب وتحدثنا مع الشخص الذي يديره وكانت بجانبه امرأة فهمت من كلامها أنها عراقية الجنسية ولفت نظري وجود علبة دخان المالبورو أمامها، وما إن تطفئ سيجارة حتى تشعل أختها وتضع على وجهها من المكياج وأحمر الشفاه ما يكفي لعشرة نساء، طلبت منهما أن نرى الخادمات اللواتي سننتقي إحداهن بعد أن أسهبا لنا في الشرح عن مواصفاتهن وميزاتهن. وسألت صاحب المكتب عن الراتب الذي يعطى تلك الأيام للخادمة.. أجابني أن الراتب /٢٠٠/ دولار إضافة لما سأدفعه للمكتب من تكاليف الفحوص الطبية وإنجاز معاملة الاستخدام وإبرام العقد.

بعد ربع ساعة على وجودنا كدت أن أصاب بالإغماء فقد شعرت بالغثيان فطلبت أن أرى ما لديه من خادمات.. أجابني بالغرفة المجاورة.

قامت تلك الامرأة وفتحت باب الغرفة المجاورة وطلبت منهن الدخول وكُنّ خمساً على ما أذكر جميعهن أثيوبيات الجنسية.. شعرت بالخوف الشديد عندما نظرت إليهن، فكل واحدة منهن تصلح أن تكون لاعبة مصارعة وكل واحدة تحمل بيدها علبة سجائر وهاتف جوال ويرتدين الجينز الضيق، نظرت لوجه (أم مهاب) فقرأت منه ما يجول في تفكيرها، لم أكمل الحديث مع صاحب المكتب وتلك الامرأة وسألت أين الباب أريد الخروج.. فكنت على وشك أن أتقيأ من كثافة دخان السجائر.

شعرت بالصدمة واختنق الكلام في حلقي وصعدنا السيارة عائدين إلى البيت وأنا أقول في نفسي «لو دفعت مبلغ ٥٠٠ دولار لماريا لكان قليلاً عليها».

أمّا (أبو نورس) فلزم الصمت حتى أجبرني أن أقول له.. لماذا أنت ساكت؟ ولمته إذ كيف له أن يأتي بنا إلى هكذا مكتب.. أجابني قائلاً: «أنت لا تثقين إلا أن تتحققي بنفسك وهذه النتيجة» ثم قلت لـ (أم مهاب) أخاف على أمي من أي واحدة منهن ولا أكون مطمئنة لوجود أي واحدة منهن برفقتها فقد تخنقها وتهرب.

أصبحت (ماريا) في نظري بالنسبة لما شاهدته قديسة وأيقنت بأن الرب وسيدتي العذراء يحبان والدتي ويرحمان ضعفها وحاجتها لمن يرعاها ويخدمها بإنسانية وشفقة ومحبة وهذا ما كان متوفراً بشخصية ماريا.

بوصولنا البيت أعددت القهوة وجلسنا على الشرفة نتحدث عن الصدمة التي تلقيناها حيث اتصل (أبو نورس) بصديقه الذي يتولى متابعة شؤون الأثيوبيات وعلمت من خلال الاتصال أنه في بيروت وسيأتي إلى دمشق بعد يومين أو ثلاثة.

قاطعت اتصاله هذا بسؤالي عن الخادمة وهل هي موجودة وتحت الطلب أم أننا سننتظر بعض الوقت فكرر السؤال عليه ليجيبني قائلاً «ولا يهمك بسيطة.. الخادمة موجودة وستنال إعجابك»، أعقبها بضحكة فقلت لـ (أم مهاب) هو يضحك لأنه يعرف أنني أكره كلمة بسيطة فضحكت هي بدورها على ما سمعته.

أمضت (ماريا) تلك الليلة مشغولة بتوضيب أغراضها وكررت اتصالها بوالدها وشقيقها ولم تستقر في سريرها حتى ساعات الفجر الأولى متلهفة لطلوع الشمس.. حتى أنني طلبت منها أن تنام حرصاً على راحة والدتي فسريريهما في غرفة واحدة.

اجتمع بعض الأصدقاء مساءً ذلك اليوم حيث تبادلنا الأحاديث حول الأحداث الجارية والتوقعات بشأنها، وأخبرتهم بأنها ستسافر غداً إلى أثيوبيا

حيث أجرت بحضورهم اتصالين مع والدها وشقيقها وأخبرتهما بساعة وصولها إلى مطار أديس بابا.

وعندما حان موعد التوجه إلى المطار في ٢٠١٢/٥/٤ أسرعت لوداع والدتي أولاً وأخذت تقبل يديها ووجهها وتناديها «ماما سامحيني إذا قصرت معك.. ماما صلي لأجل وصولي بالسلامة عند والدي.. ماما سأرجع لعندك إن شاء الله..». «أبكتني دموعها وشعرت كم هي صادقة في مشاعرها..».

وعندما ودعتها وعدتني أنها ستعود لخدمة والدتي وعلى هذا الوعد بعودتها غادرت عن طريق مطار دمشق الدولي على متن الطائرة اليمنية، بعد مغادرتها البيت بساعات شعرت بحجم المسؤولية التي كانت تقوم بها وتوليت خدمة أمي فلم يأتِ اليوم الثاني حتى شعرت بالإنهاك وبأنني لم أعد قادرة على الوقوف طويلاً بسبب آلام الظهر.

بعدما ساعدتها بالنزول إلى الرصيف وإدخالها إلى الحمام كل ساعتين تقريباً ارتاب تفكيري بشأن الخادمة البديلة وتخوفت أن يطول زمن إحضارها إلى البيت.

كانت الساعات تمر بطيئة ثقيلة وأنا لا حول لي ولا قوة.. أنتظر الوعود ما بين ساعة وأخرى لمجيء الخادمة، فكنت أحتال على الوقت باللجوء إلى المطبخ وإعداد الطعام وتحضير أنواع من الحلويات حتى أنني اشتريت بعض الطحين وصنعت خبزاً في البيت، وكنت أضع أمام والدتي كمية من الفاصولياء لتقطيعها وكان قصدي من وراء ذلك مساعدتها على تحريك يديها وأصابعها، وكثيراً ما أحضرت لها ورق العريش، فكانت تقوم بوضع الحشوة المحضرة لذلك وتلفها بطريقة بارعة جداً حتى أنني سجلت لها مقطع فيديو قصيراً وهي تلف ورق العريش ومازلت أحتفظ به.

مضى اليوم الثاني على مغادرتها ولم تأتِ الخادمة الجديدة وعندما جاء (أبو نورس) و(أبو نزيه) وعائلتاهما مساءً قلت أمامهم إنني أفكر بإعادة والدتي إلى السويد في حال لم أجد خادمة تساعدني على تلبية ما تحتاجه من خدمات وعناية على مدار الساعة فلم أعد أقوى على الاستمرار بمفردي.

اتصل (أبو نورس) بصديقه عدة مرات خلال السهرة وفي كل مرة يسمع إشارة خارج التغطية فكتب له رسالة يرجوه فيها الاتصال عند استلامها هكذا أمضينا السهرة ما بين السياسة وقصة الخادمة.

وكانت أصوات إطلاق الرصاص وأصوات الرشاشات الحربية تصل إلى مسامعنا، وأحياناً نشاهد الطلقات الخطاطة تنطلق في الفضاء كشريط من الجمر الأحمر من مناطق تبدو قريبة من المدينة، فكانوا يقولون لي «هذا اتجاه داريا وتلك منطقة الحجر الأسود، وحتى ساعة متأخرة لم نلق جواباً على الرسالة».

في صباح اليوم التالي ٢٠١٢/٥/٧ اتصل معي (أبو نورس) حيث أبديت رغبتي في اصطحاب والدتي إلى مشتى الحلو فقد تكون مسألة إيجاد امرأة من نساء قرى المشتى تأتي لعندنا منذ الصباح ولمدة ثماني ساعات كأي موظفة في الدولة وبالأجر الذي يرضيها هي الحل.

أقنعني أن أنتظر حتى فترة بعد الظهر وفي حال لم يتصل صديقه أو يجيبه على رسالته فإن خيار الذهاب إلى مشتى الحلو يبقى قائماً.

قرابة الحادية عشرة قبل الظهر اتصل معي ثانية وافتتح كلامه بكلمة «مبروك» سألته على ماذا هذه المباركة.. حينها أفصح قائلاً: إن صديقه (أحمد العلي) اتصل معه وأخبره بأنه بالطريق إلى دمشق قادماً من بيروت وبأنه سيأتي بالخادمة التي وعده بها بمجرد وصوله لدمشق. وبالساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً جاء مباشرة من عمله لعندنا في البيت وعندما فتحت الباب كان بمفرده وقبل أن أرد سلامه سألته «أين الخادمة؟»..

لم يجب مباشرة إنما ردَّ على ترحيب والدتي به منذ رأته عندما فتحت الباب وجلس بجانبها يسألها عن صحتها وعما أكلته من طعام ثم التفت إليّ قائلاً «روقي.. ليش القلق.. شوية صبر.. شغلة بسيطة.. بعد قليل تأتيك مع أغراضها» ثم قال «أخبرني صديقي أنه سيكون مع الخادمة بحدود الساعة الواحدة أمام البيت».. وطلب مني أن أقف على الشرفة عندما يصل صديقه وأنه سينزل من البيت لإحضارها من السيارة وبأنه يقف قليلاً مع صديقه وهي ستكون بجانبه وفي حال لم يعجبنا شكلها أعطيه الإشارة لإعادتها بالسيارة نفسها.

بالواحدة تماماً اتصل صديقه معه معتذراً لأنه سيتأخر لمدة نصف ساعة تقريباً بسبب بعض الأوراق والوثائق التي سيسلمها إلى الهجرة والجوازات.

خلال فترة الانتظار هذه أطعمت والدتي وجبة الغداء وأجلت غدائي لحين مجيء الخادمة حيث قدّرت أن تأتي قبل الغداء فتكون أول وجبة غداء لها معي في البيت.

كانت الدقائق تمر كأنها ساعات فقد أرهقني الشك من فشل الموضوع كأن تكون على شاكلة اللواتي شاهدناهن في المكتب بمنطقة القصاع أو أن ترفض العمل في خدمة والدتي عندما ترى وضعها الصحي الصعب وحاجتها الدائمة والمستمرة لوجودها بجانبها.

بعد أقل من ساعة على هذا التأخير أجاب على اتصال صديقه ثم قال ها قد وصل قريباً من البيت ونزل لملاقاته، بينما وقفت أنا على الشرفة حيث شاهدت صديقه عندما نزل من السيارة وسلم عليه بحرارة ورأيتهما يتحدثان مع بعضهما لعدة دقائق فخالجني الخوف مجدداً من أن تكون الخادمة رفضت العمل باللحظات الأخيرة..

تبخر هذا الخوف وهذا القلق فجأة عندما شاهدت ذلك الشخص يتجه إلى الباب الخلفي للسيارة ويفتحه حيث نزلت منه الخادمة المنتظرة.. أظهرت ملامحها بأنها أثيوبية الجنسية وكانت ترتدي حجاباً أبيض اللون وتحمل كيس

نايلون كبيراً بعض الشيء يحتوي على أغراضها الشخصية ويقارب حجمها حجم ماريا. أعطيت الإشارة بالموافقة مبدئياً كي أتمكن من رؤيتها عن قرب داخل البيت.

لاحظت بأن صديقه على عجلة من أمره يريد المغادرة بعد أن أوصل الخادمة لكنه لاحظ وجودي على الشرفة وكان معه أحد أبنائه تركه داخل السيارة وصعد الثلاثة إلى البيت.

عندما فتحت الباب وشاهدتهم والدتي رحبت بهم واعتقدت للوهلة الأولى بأن الخادمة الجديدة هي ماريا.. لأنها نادتها للاقتراب منها وسألتها «ليش لابسة على راسك.. راسك يوجعك».. ضحكت الفتاة وكذلك نحن، فجلست بجانبها وشرحت لها الأمر بأن هذه الفتاة ستبقى معها في البيت إلى حين عودة ماريا.. فأمسكت يدها.. وسألتها: «إيش اسمك».. أجابتها: اسمي «روما» أمعنت والدتي النظر إليها وهي تردد «روما.. روما.. روما عاصمة إيطاليا».. لم تكن الفتاة تعلم ذلك وأبدت دهشتها وكذلك ارتسمت علائم الدهشة على الحضور.

لم أقبل أن يغادر ضيفنا قبل أن يشرب القهوة بالرغم من محاولته الاعتذار بداعي وجود موعد ضروري له في إدارة الهجرة والجوازات.. لكنه شرح لي على وجه السرعة بعض المعلومات الأولية عن الخادمة وذكر بأنها تركت العمل في المكتب الذي استقدمها على أثر خلاف حول رواتبها وتأخره بإعطائها مستحقاتها الشهرية وبأن جواز سفرها قد انتهت صلاحيته.. ضحك (أبو نورس) وعقب قائلاً: «يا عيني.. (ماريا) جديدة».

وجدت فيما قاله فرصة مناسبة للحديث عن (ماريا) وعن الخدمات التي قدمناها لها وكيف استعدنا حقيبتها من حلب وراتبها.. وكان قصدي من ذلك لترغيب (روما) بالبقاء عندنا وخدمة والدتي لأنني لاحظت علائم عدم الرضى على وجهها حينما شاهدت والدتي.

كلامي هذا أقنع السيد أحمد أكثر مما أقنع (روما) فتحدث بكلام رائع معها ووعدها إنه سيسرع بإجراءات تجديد جواز سفرها، كما وعدتها بتحصيل رواتبها من صاحب المكتب الذي كانت تعمل عنده وهذا ما ساهم ببقائها عندنا. لم تتجاوز هذه الأحاديث السريعة بيننا النصف ساعة.. غادرا بعدها وبقيت (روما).

لفت نظري إتقانها اللغة العربية المحكية بشكل جيد أكثر من (ماريا) بكثير وهي أطول قامة منها بقليل.. قالت إنها لم تحضر حقيبة ثيابها لأن السيد أحمد أخبرها بأنها ستبقى لفترة قصيرة عندنا وكانت تحمل هاتف جوال.. قالت إن شقيقها يعمل في السعودية وهو يتصل معها أحياناً ويرسل لها.

أبهرها موقع البيت حيث تفاجأت أنني خصصتها بسرير تنام فيه بالغرفة نفسها التي تنام فيها والدتي.. فسألت باستغراب أكانت الخادمة قبلي تنام بهذا التخت.. قلت لها كان لها والآن أصبح لك.

أشفقت عليها عندما أخبرتني بأنها عملت لفترة قصيرة عند إحدى العائلات حيث عاملوها كما تعامل الحيوانات وأجبروها على النوم في البلكون المكشوف، وكان الوقت شتاءً، لعدة أيام ما دفعها إلى ترك العمل عند تلك العائلة بعدما اتصلت بالمكتب الذي استقدمها، حيث استبقاها عنده كمترجمة للخادمات الأثيوبيات اللواتي لا يتحدثن اللغة العربية، فكان أحياناً يؤمن لها العمل عند بعض العائلات بدمشق لمدة شهر أو شهرين ثم يعيدها للمكتب.

تنقلت معها في الغرف الثلاثة للبيت كما بدأت بتعليمها استخدام الفرن الكهربائي ومكنة القهوة والمكنسة الكهربائية وأعطيتها أرقام الهواتف، ودخلت إلى المطبخ لإعداد طعام الغداء وهي بجانبي وبعد أن أنجزت تقطيع الصلطة أخرجت من البراد كمية من الصفائح باللحمة إضافة لطنجرة طبخة المدفونية والأرز، فقد أردت تكريمها بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، بينما قامت هي

بغسيل يديها ولم تخلع الحجاب عن رأسها، ثم وقفت أمام الفرن لتحريك الطعام بالطنجرة ونظرت إلى الصفائح باللحمة والتفت نحوي سائلة: «أنتم من الديانة المسيحية» أجبتها: نعم مسيحيون.. فأكملت قائلة: «أنا لا آكل طعاماً غير حلال. ما فيني آكل لحم غير مذبوح على الطريقة الإسلامية».

سقط ما كان في يدي من حبات التفاح التي كنت أغسلها في المجلى وجمد الدم في عروقي وكاد قلبي أن يتوقف وارتفع ضغطي لدرجة أنني شعرت بالدوار، فاستندت على المجلى ورجعت مباشرة إلى الصالون وقلت لها: «يا الله ضبي أغراضك لا أريد أن أراك لحظة واحدة في هذا البيت»، واتصلت مع (أبو نورس) وحدثته بعصبية شديدة وقهر وقلت له «اترك أي شيء وأرجو حضورك لعندي فوراً.. لا أريد هذه الخادمة» لم أعد قادرة على النظر إليها أو سماعها.. بينما التزمت هي الصمت وجمعت أغراضها بانتظار وصوله.

تزاحمت الأفكار والصور في خيالي فتارة أراها تمسك برقبة أمي لتخنقها وتارة أراها تضربها لأنها طلبت منها أن تطعمها أو تضربها داخل الحمام، هذه الصور التي بدأت ترتسم في مخيلتي أخافتني منها وأخافتني من بقائها عندي.

لم يتأخر بالوصول وعندما فتحت الباب لم أنظر إليه ورجعت بسرعة لأجلس على الكرسي فأعصابي لم تعد تساعدني على الوقوف.. قلت له بصوت مرتفع خذها من وجهي أبعدها عن البيت فوراً.. لا أريد مشاهدتها.. أبعدها عن نظري وأخبرته بما تلفظت به.

تفاجأ بهذا الكلام وانتظر دقائق يستمع لعباراتي الناجمة عن عصبية مفرطة ولم ينبس ببنت شفة حتى انتهيت ولم يرد ولا بكلمة ولم يجلس وإنما أسند ظهره على الحائط وأجابني ببرودة شديدة «بسيطة.. بسيطة.. الشغلة بدها صبر وهدوء.. ليش كل هالعصبية»، جوابه أشعل النار مجدداً فقلت له «حاجي تقول بسيطة» فتوجه إلى الخادمة وقال لها «أحضري الكيس وانتظري في

المطبخ» باعتبار أن المطبخ يقع بمدخل البيت مباشرة، وخلال مرورها أمامي لاحظت ارتباكها وخوفها الشديدين.

كان ارتباكه أكثر منها لكنه أخفاه ولم يبد عليه الارتكاس الذي كنت أتوقع أن أسمعه منه بعدما سمع ما قالته الخادمة.. بل على العكس تماماً وبعدما دخلت إلى المطبخ تحمل كيس ملابسها توجه إليّ على مسمع منها قائلاً: «طيب لونسألها من أين لها هذا الكلام.. وهل أحضرته معها من بلادها أم سمعته هنا عندنا.. واضح أنك أخفتيها كثيراً.. هي فتاة غريبة ويجب أن نسألها عن السبب الذي دفعها لقول هذا الكلام.. حرام تخويفها أو تهديدها» وتوجه مباشرة إليها وتحدث معها بهدوء تام وكأنها لم تقل شيئاً.. وسمعته يسألها عن أهلها وإخوتها وماذا تعرف من اللغات وهل سافرت لأي دولة أخرى غير سورية.. وماذا تحب من الطعام غير الطعام الذي كنت أحضره لوجبة الغداء وسألها كذلك عن الراتب الشهري الذي تأخذه من المكتب أو من العائلات التي عملت لديها.

كان صوتها يصل إلى سمعي حيث أجابته بأنها سافرت إلى السعودية برفقة شقيقها وبقيت أكثر من ستة أشهر وأنها كانت تسمع من العائلة السعودية التي عملت عندهم تلك المدة بأنه لا يجوز للمسلم أن يأكل من طعام المسيحيين.

كرر السؤال عليها إن كانت سمعت هذا الكلام من إحدى العائلات التي عملت عندهم في سورية.. فأجابته بالنفي.. وسألها عن العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في أثيوبيا وهل يوجد خلافات فيما بينهم..الخ فكانت إجابتها بأنه لا يوجد شيء من التفرقة عندهم.

سمعتها تبكي وتبدي أسفها وبأنها لم تكن تعلم أن هذا الكلام من الخطأ التحدث به.

عندما سمعت كلامها شعرت بالشفقة عليها وهدأ روعي وقلت لنفسي ربما ظلمتها بصراخي عليها وانتابني شعور الندم..

ثم عاد وجلس على الكرسي وقال لي بهدوء: «يبدو أنها قد ندمت على ما تلفظت به من كلام وربما هي صادقة فقد تكون سمعته خلال عملها في السعودية»، ثم خفض من صوته أكثر بحيث لا تسمعه هي قائلاً: قارني بينها وبين الخادمات اللاتي شاهدتهن في المكتب.. وربما خطأها الذي وقعت به سيدفعها لعمل بجد وإخلاص في خدمة والدتك لتكفر عن ذنبها هذا معك.. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنه ليس من السهولة والبساطة أن نجد الخادمة المناسبة بالوقت الذي نريده لأن غالبية الخادمات اللواتي بقين في سورية إلى هذا الوقت لديهن مشاكل مالية وإدارية، ما أدى لتأخرهم في مغادرة سورية، ونصحني أن أقبل اعتذارها وأن أراقبها لمدة أسبوع وأراقب عملها فإن هي أحسنت صنعاً تركناها وإن هي أخطأت ثانية طردناها.

لم ينتظر جوابي وعاد إلى المطبخ وطلب منها أن تأتي أمامي وتعتذر مني ومن الماما وإن كانت أمي لا تدرك ماذا حصل، فقد اضطربت كثيراً حين سمعتني أتحدث معها في أوج عصبيتي ولم تحفظ شيئاً مما قلته بسبب سرعتي في الكلام وبصوت مرتفع.

امتثلت لطلبه واقتربت مني قائلة بالحرف الواحد «ماما أنا بعتذر كتير.. ماما أنا آسفة.. والله العظيم أنا آسفة.. ما بعرف ليش قلتلك هيك»، وبكت بحرقة وندم.. وحاولت أن تقبّل يدي ولم أرضَ فتوجهت تقبل أمي وتعتذر منها.. فسألتها «إيش صابك ليش تبكين.. تعالي يمي» ومسحت على رأسها وأكملت بقولها «لا بقى تبكين أنا متل أمك.. خبريني ليش تبكين».

أوضحت الأمر لوالدتي بأنها تبكي لأنها تكلمت بكلمات خاطئة بدون قصد وأعتقد أنك قد سمعتي كلامها لذلك تعتذر منك.

تفهمت أمي الحالة حيث قالت لها: «أنا مسامحتك شو ما حكيت.. انت متل بنتي.. روحي كلي ولا بقى تبكين».

هكذا انتهت الساعة الأول بعد حضور (روما) فقلت: المثل يقول «خدلك صاحب من بعد قتلة» فربما ما سمعته مني من لوم وتأنيب مؤدب يقوم مقام القتلة.

حضر عدد من الأصدقاء مساء ذلك اليوم وشاهدوها عندنا... لم تستغرب حضورهم مع شعورها بشيء من الخجل، حيث كانت تلجأ لغرفتها أو تذهب للجلوس في المطبخ بانتظار أي طلب أطلبه منها.. وكانت تجتهد في عملها وتلاطف والدتي، وبدأت تلعب معها الورق وتهتم كثيراً بنظافة ما تقدمه لها من طعام وفواكه، ولم تسأم من مساعدتها في ارتداء ملابسها ومرافقتها كي تمشي على الرصيف أمام البيت واصطحابها إلى مؤسسة الخضار والفواكه.. كانت همتها حاضرة ورشيقة في عملها.

وهكذا بدأت أشعر بالارتياح نحوها وبدأت أعلمها صنع الطعام واستخدام الغسالة وكل الأدوات الكهربائية وفتح خدمة السكايب على اللابتوب حتى أتقنت كل ذلك.

خلال الأيام الأولى لإجازتي هذه تمت انتخابات مجلس الشعب في سورية بتاريخ ٢٠١٢/٥/٧ حيث تابعنا التغطية الإعلامية المواكبة لهذا الحدث، باعتبارها أول انتخابات تجري بناء على الدستور الجديد الذي تم الاستفتاء عليه في شهر شباط الفائت من العام نفسه ٢٠١٢.. وكذلك كنا نتابع جميع الأحداث السياسية والحوادث الأمنية في تلك الفترة وكما ذكرت سابقاً فقد كانت حديث الساعة بل حديث اللحظة بين كافة شرائح المجتمع السوري.

إلا أن الحدث المفجع الذي أدمى القلوب والعيون هو التفجير الإرهابي الكبير الذي وقع في صبيحة يوم الخميس ٢٠١٢/٥/١٠ بواسطة سيارتين

مفخختين بحسب ما أعلنته وكالات الأنباء في منطقة القزاز أمام أحد المقرات الأمنية وأدى لاستشهاد حوالي ٥٥ شخصاً وجرح ٣٧٢ شخصاً.

اهتزت مدينة دمشق لهذين الانفجارين وقد شاهدت أعمدة الدخان الضخمة من شرفة البيت في الجهة الشرقية من دمشق.

ولشدة تأثري ذهبت بعد ظهر ذلك اليوم وشاهدت بأم العين الأضرار الهائلة التي حصلت نتيجة الانفجارين من دمار وانهيار شرفات المنازل المواجهة للمكان.. شعرت بالأسى والحزن وتألمت كثيراً وتساءلت كيف يمكن لمن يحمل الهوية السورية أن يقوم بهذا العمل إنه الإجرام بعينه إنه دمار للبشر والحجر.. وتساءلت كيف للأبناء أن يفتكوا بجسد أمهم وكيف لهم أن ينتهكوا حرمتها؟

ولعدة أيام بقي هذا الحدث يحتل اهتمام جميع السوريين فهم جميعاً متألمون والغالبية أعطت ثقتها المطلقة لقيادتها ولجيشها لمواجهة هذه الهجمات الدموية وملاحقة مرتكبيها.. لقد أدان هذا العمل جميع الشرفاء وأحرار العالم والغريب أن أحداً من عربان التآمر لم يعزِ بضحايا هذه الجريمة بل على العكس تماماً فقد أشاروا بأصابع الاتهام إلى السلطات السورية بأنها تقف خلفها ومن تدبيرها.

اجتمع الأصدقاء مساء ذلك اليوم عندنا وكان محور حديثنا عن هذه المأساة.. كان مساءً حزيناً اتصل فيه أخي حنا واستفسر مني عن الكثير من الأمور الشخصية والعائلية والسياسية، وأخبرته كيف تذكرت أمي عاصمة إيطاليا ففرح لهذا الخبر جداً.

تغيير أثاث المنزل

خلال هذه الإجازة قررت شراء طقم كنبات جديد بدلاً من الطقم الموجود الغير مريح حيث اتصلت بالسيد حسام سردست الذي تحدثت معه سابقاً عن

إمكانية تفصيل طقم كنبات مريح خلال وجودي في دمشق، وزرت ورشتهم القريبة من مفرق منطقة الكسوة بريف دمشق الجنوبي، وذهبت برفقته إلى محل لبيع الأقمشة بمنطقة القصور (محل الغبرا) وانتقيت القماش المطلوب، ولم يتأخر في تجهيز هذا الطقم وبعد أسبوع تقريباً أخبرني بأن الطقم أصبح جاهزاً وأرسله مع بعض عمال ورشته حيث وضعته في الصالون كان ناجحاً جداً في تفصيله ومريحاً جداً ومناسباً جداً لوالدتي التي أصبح بإمكانها الاستلقاء والاسترخاء على الكنبة الثلاثية وحتى يمكنها أن تنام عليها بكل راحتها.

اتصلت بالمحامي نضال وطلبت منه أن يتصل بصاحب البيت ليأخذ طقم الكنبات القديم فقد أصبح وجوده يشكل ضائقة في البيت ويزعج أمي حين تمشي بالصالون، فما كان من الأخ نضال إلا أن أحضر شاحنة صغيرة وتولى سائقه أحمد وسائق الشاحنة نقل الطقم القديم إلى منزل صاحب البيت القريب جداً من منزل المحامي نضال.

اعتقد صاحب البيت –أذكر بأنه يلقب (أبو يمان النوري)– بأنني سأترك له الطقم الجديد لاحقاً في حال نقلت والدتي لبيت آخر شراءً أو تأجيراً، لأنه لم يكن ليقبل أن أرسل له الطقم القديم بحسب ما عرفته لاحقاً.

وفي المساء حضر حسام لزيارتنا في البيت والاطمئنان فيما إذا لاقى الطقم الجديد إعجابنا.. شكرته لأنه لبى طلبي في ظروف صعبة وزمن قياسي، فأوصيته على طاولة لوسط الصالون تناسب طقم الكنبات وتشابه طاولتي صالون بيتي في السويد، إضافة لقطعة خشبية أنيقة كحاملة صور ومرآة حائطية تُعلق خلفها بمدخل البيت.

لم يتأخر في تصنيعها وأحضرها بعد ثلاثة أيام.. وعندما استقرت كل قطعة بمكانها تغير شكل الصالون بشكل كبير حتى أصبح طقم الكنبات ومتمماته حديث الأصدقاء.

نالت حلة الصالون الجديد إعجاب الأصدقاء والضيوف الذين كانوا يأتون لزيارتنا، كانت والدتي تراقب كل شيء أقوم به، وأذكر أنها عندما كانت تراقب العمال يضعون طقم الكنبات بمكانه داخل الصالون سألتني «من أين اشتريت هالطقم الحلو»، أجبتها: ماما هذا كرمالك وعشان خاطرك يا أميرة.. توجهت إليه تتفحص شكله وتتلمس قماشه فأحضرت لها الوسادة، وقلت لها: جربيه لن يجلس على كراسيه أحد قبلك.. ابتسمت وهي تمسك يدي لقد أسعدها كلامي وقالت: «إيش طيبة القعدة على هالطقم.. قديش دفعتين حقه.. مبين أنه غالي..» فقبّلت يدها قائلة.. لا شيء يغلى عليك يا أمي.. أنت الأغلى وأنت الأميرة الله يعطيك الصحة والقوة يا أحلى أم بالعالم..

كانت (روما) تشاهد وتسمع هذا الكلام وقد بدت عليها السعادة فقد تغير وجه البيت تماماً.. فقالت «مبروك.. كتير حلو..» عقبت على كلامها بقولي هذا الطقم جاء من حظك فسألتني:

«هل أنت راضية عني.. هل سامحتيني».

فقلت لها: «أنت كابنتي والأم لا تحقد على ابنتها».

أراحها جوابي ووعدتني أنها ستبقى في خدمة والدتي حتى يأتي جواز سفرها.. فقلت.. «وإذا تأخرت (ماريا) ولم يسمحوا لها بالعودة إلى سورية».. أجابت: «سأبقى عندكم ولن أترك ماما (أم حنا) حتى تجدين خادمة غيري».

حدثت الأصدقاء الذين حضروا مساءً وأبدوا إعجابهم بالتغيرات الجديدة في البيت بأن المشهد لم يكتمل ما لم استبدل البرادي لباب الصالون العريض المؤدي إلى شرفة البيت وكذلك برادي شباك المطبخ.. اقترح (أبو نزيه) أن أذهب إلى محل برادي قريب من البيت وأنتقي الموديل المناسب، وقال إنه على معرفة بصاحب المحل واتصل به مباشرة وطلبه ليشاهد باب الصالون وشباك المطبخ ويأتي معه بمساطر أو نماذج لأنواع الستائر عنده، لم تمضِ دقائق

قليلة حتى حضر صاحب المحل ومعه النماذج واشترك الحضور كل بحسب رأيه بانتقاء لون ونوع الستارة ولم نحسم خيارنا على نوع محدد.

طلبت منه أن يأخذ القياسات اللازمة لباب الصالون وشباك المطبخ ووعدته أن آتيه إلى محله في اليوم التالي.. ومن شرفة البيت حيث كنا نجلس أشار لي إلى البناء الموجود فيه المحل بالطابق الأرضي كان المحل قريباً جداً على أوتستراد المزة بعد وزارة الإعلام بحوالي مائة متر فقط فكان يلزمني خمس دقائق مشياً من البيت للوصول عنده.

لم أتأخر صباح اليوم التالي وذهبت الحادية عشرة صباحاً وخلال عشر دقائق اخترت لون ونوع القماش المناسب لباب الصالون وكذلك ستارة المطبخ ذات الشكل الفضي الناعم التي تسمح بتمرير الضوء أو حجبه بحسب الحاجة للإنارة ويتم التحكم فيها يدوياً صعوداً وهبوطاً.

وسددت له المبلغ الذي طلبه وكان طلبي الوحيد هو الإسراع في تركيبها، لأني كنت أريد أن يكون البيت في أبهى شكل ولو كان مستأجراً ولو كنت لا أعرف مالكه سوى بالشكل.. لكنني أعرف من هو بداخله أعرف من ينام فيه.. أعرف من يأكل ويستحم فيه.. أعرف من يجلس على شرفته.. أعرف من يمشي بداخله.. أعرف من ضاقت الدنيا عليها بما رحبت ليستقر به المقام في آخر محطة من رحلة حياتها في هذا البيت.. إنها أمي.. أمي التي تسكنه.. أمي التي تنام وتأكل وتمشي وتستحم بداخله.

فلو استطعت أن أجعله قطعة من الجنة لفعلت.. «آهٍ يا أمي ما أغلاك.. آهٍ لكِ وآهٍ عليكِ.. سامحيني يا أمي».

عندما تم تركيب الستارتين في اليوم التالي اكتملت جمالية الصالون وشعرت بشيء من الرضى حين قامت أمي تمشي بالقرب من الشخص الذي

قام بتركيبها تنظر إلى كل حركة يقوم بها.. نادت على (روما) وطلبت منها أن تحضر القهوة وتقدمها له فسألتها إن أعجبتها البرادي.. قالت: «كتير كويسين.. صار البيت أحلى.. خلي برداية الصالون على طرف حتى أعبر عالبرندا وما تعلق فيني».

أعجبتني فكرتها ونفذت ما أرادت قائلة لها: «والله يا أم حنا أصبحت مهندسة ديكور» وجلست معها على شرفة البيت ولعبت معها بورق الشدة «لعبة الأوغلان» وتعلمتها (روما) بطبيعة الحال حيث أوصيتها أن تستمر بتسليتها بهذه اللعبة بعد سفري وأفهمتها أنها تساعدها على تنشيط ذاكرتها فوعدتني بتنفيذ طلبي هذا.

اتصلت مع صديقنا وسألته أين أجد مشتلاً لبيع نباتات الزينة وأشتال الورود وهل بإمكاننا الذهاب لشراء بعض الشتول لأضعها في شرفة البيت.. أخبرني أنه يوجد عدة أماكن في بداية أوتستراد العدوي بجانب بانوراما حرب تشرين.

عقبت قائلة: يا أخي أنا لا أريد أن أحارب.. أريد وروداً للسلام وذهبت برفقته بعد الظهر إلى عدة مشاتل على امتداد أوتستراد العدوي، واشتريت من أحدها شُجيرتي كاردينيا بأحواضهما وعدة أنواع من الورد الجوري (باللونين الأبيض والأحمر) والحبق، ثم عدنا بما اشتريته حيث قمت بتوزيعها في شرفة البيت وداخل الصالون فغدا البيت كأنه جزء من حديقة غناء.

تجولت أمي ما بين الصالون والشرفة وكأنها تذكرت أيامها الخالية حين كانت تعيش في المالكية والقامشلي. فقد كان دارنا كبستان فيه من كل أصناف ورود الزينة، وشرفة بيتنا أشبه بمزهرية معلقة تناسقت فيها أنواع الزهور المختلفة في ألوانها وأنواعها وشذاها. فأصبح كل شيء في البيت يدخل الراحة إلى النفس وعدم الرغبة بمغادرته حتى تغيرت المصطلحات على لسان أمي، فهي كانت تقول قبل يوم: «خلينا نقعد عالبرندا» فأصبحت

تقول «خلينا نطلع عند الوردات». بعد أن أكملت ما خططت للقيام به خلال زيارتي هذه.. بقي عندي مهمة أخيرة وهي شراء كرسي مريح لظهرها، فذهبت إلى محلات المفروشات المنتشرة في المدينة بدءاً من الصالات الموجودة على جانبي أوتستراد المزة وإلى المجمع التجاري «تاون سنتر» والدامسكينو المجاور لمول شام سنتر في كفرسوسة فلم أجد طلبي.. فذهبت إلى صالتين للمفروشات على طريق دمشق القنيطرة بمنطقة المعضمية والجديدة.. كذلك الأمر لم أجد ما يعجبني.. فسألت الأصدقاء عن المحلات التي تبيع هذا النوع من الكراسي.. أرشدني أحدهم إلى عدة صالات في شارع بغداد وكان من بينها صالة تحمل اسم «كردوس للمفروشات» لم أكذب خبراً وتوجهت إلى هذه الصالة حيث وجدت عدة أنواع وأشكال من الكراسي الفخمة والمريحة، وكان منها المنجدة بالقماش ومنها ما هو تنجيده بالجلد ومنها ما تحوي عدة حركات لتثبيت الأرجل في حال أراد الشخص الذي يجلس عليها أن ينام وبعضها لها حركات كهربائية لمساج الظهر.

استقر خياري على كرسي يناسب لونه لون طقم الكنبات الجديد وله حركتان واحد للظهر والثانية للأرجل تحولانه إلى سرير للنوم عند الحاجة فاشتريته مباشرة ودفعت كامل قيمه.

عدت بعدها للبيت وخصصت له مكاناً بجانب طقم الكنبات بمواجهة شاشة التلفزيون سألتني روما «ماما ليش شلتي كرسي ماما أم حنا يلي عم تقعد عليها عندما تأكل».. أجبتها «طولي بالك بعد قليل يصل الكرسي السرير».

لم يتأخر صاحب مفروشات كردوس بإرسال الكرسي بحسب العنوان الذي أعطيته له.. كان باب البيت عريضاً بعض الشيء سمح بعبور الكرسي إلى داخل الصالون فوضعته بالمكان الذي خصصته له.

كانت أمي تستحم ساعة إحضار الكرسي وعندما خرجت من الحمام فرحت به كثيراً وأخذت أعلمها على الحركات لظهر الكرسي وسنادة الأرجل، فضحكت قائلة: «سهام جبتيلي طيارة»..

جلست بجانبها أقبل وجهها ويديها.. قائلة لها: «ماما هذه على شان خاطرك تجلسين وتنامين إذا أحببت هذا الكرسي اشتريته خاصة لك»، نظرت إليّ نظرة الأم الحنون قائلة: «قرّبي صوبي أبوسك» فضممتها وقبلتني على وجهي.. وطلبت من (روما) أن تعطيها مسبحة الصلاة التي تحملها بيدها في صلاتها فأشعلت لها الشموع في أرجاء البيت في حين بدأت هي تترنم بقداس «سلام لك يا مريم وأبانا الذي..» فجلست راكعة أمام قدميها وأكملت معها ما بدأت به من قداديس الصلاة، فكانت أحياناً تضع يدها المرتجفة فوق رأسي فأشعر بدفئها وحنانها فتنهمر دموعي ولم أكن أستطيع إكمال الصلاة معها لأن البكاء يغلبني، كنت استخدمت ملامسة كفها لرأسي ووجهي طاقة إيجابية تمدني بالقوة والنشاط.

بعدما أكملت صلاتها نهضت وجلست ملاصقة لها واضعة يدي على كتفيها وقلت لها «ماما ادعيلي الرب يوفقني والعدرا تكون معي تحميني»، فأجابت داعية قائلة: «الله يوفقك يا حنا.. إن شاء الله تمسك التراب بصير بيدك دهب.. إن شاء الله تجوز ولادك وتشوف ولادهم». فقلت لها: «ماما ما دعيتيلي.. أنا أتعب وأنت تصلي وتدعي لحنا».. أجابتني: «حنا الكبير تعب كتير.. أنا أحبو كتير وأحب كل ولادي بس حنا غير شي وكمان أحبك كتير وأدعيلك».

أحببت حديثها وكلامها فقلت لها: «ماما أنا لازم أروح السوق اشتري تياب لابن مليسيا بدنا نعمّده الشهر الجاي»، فجاوبتني: «روحي خفيف وارجعي عندي أريد توديني مشوار بالسيارة».. سُررت جداً عند سماعي منها هذا الطلب فلأول مرة تطلب مني ذلك.

توجهت إلى باب توما والقصاع واشتريت بعض الهدايا لأحفادي (بريسيلا والكسندر وأوليفيا) وطقماً أبيض لحفيدي ميكاييل الذي اقترب موعد عمادته

وعدت إلى البيت وعرضت الهدايا التي أحضرتها أمام والدتي فقالت: «مبروكين.. يلبسوهم بعرق العافية.. كتير حلوين..».

ساعدتها بارتداء ملابسها واصطحبتهما إلى المول في حي المالكي (رويال بلازا) حيث تناولنا العصير والبوظة بعد أن رفضتا أن أطلب لهما وجبة عشاء بقولها «ماني جوعانة». تركتهما جالستين في الكافتريا التي جلسنا فيها.. ونزلت إلى السوبر ماركت في الطابق الأول حيث تسوقت منه بعض الأدوات المنزلية التي أحتاجها ومنها «جزوة قهوة» (وأخذتها معي إلى السويد) ومن الطابق الثالث حيث قسم الكهربائيات اشتريت «غلاية ماء».

أمضينا أكثر من ساعة في المول ثم عدنا إلى البيت وحين استقر بها المقام على كرسيّها الجديد قالت: «يعمر بيتك يا سهام.. ايش كويسة هالكرسي.. ايش طيبة القعدة فيها»، صمتت قليلاً ثم نادتني:

«سهام.. سهام» –كنت في تلك اللحظة أحضر لها كأس اللبن في المطبخ– جئت مسرعة إليها قائلةً: «أمرك أم حنا.. طلباتك أوامر..».

طلبت مني الجلوس بجانبها، وقالت: «اسمعي إيش أقلك» فوضعت يدي على رأسي مجيبةً: أمرك ماما.. أكملت قائلة: «عندي مباريم دهب خديهم.. أنت تتعبين معي كتير.. تسافرين وترجعين وتصرفين مصاري.. وما بقى يلزموني.. هدول لك.. مو يستاهلهم حدا غيرك».

فاجأتني بقولها هذا.. لم أكن قادرة على تمالك نفسي من البكاء لفرحتي الكبيرة ليس بقولها «مباريم الدهب خديهم أنت»، وإنما لأنها مازالت تحتفظ بذاكرة جيدة ولأنها أجرت محاكمة عقلية ملفتة للنظر، فهي قدرت تعبي وأدركت أنني أعاني من تكرار السفر، وأنني أترك عملي وزوجي وأمضي جميع إجازاتي السنوية معها.. أيقنت أنها تدرك ذلك كله، على عكس ما كان يظنه الكثير من بعض الأصدقاء وحتى من بعض إخوتي وأقاربي.

لم تتوقف عند هذا العطاء وإنما زادت عليه عطاءً أهم حين قالت: «هالبيت اشتراه أخوك حنا.. وأنا كنت بدي اكتبه باسم حنا وأخواتك وبعد موتي يبيعوه ويقسموا حقه بينهم.. أنا بطلت اكتبه لحدا غيرك كمان انت خدي البيت بعد موتي».

هذه العاطفة والتركيز الذي تحدثت بهما أبكياني مجدداً وشعرت بالأسف الشديد لأني لا أستطيع أن أبقى بجانبها على مدار الساعة.. شعرت بالقهر وبالتقصير.. شعرت بأن كل ما فعلته لأجلها تبخر أدراج الرياح أمام كلماتها.. قبلت يديها ورجليها وتمالكت نفسي قائلة لها: «ماما ما بدي شي غير تكوني راضية مني وتدعيلي وتصلي للرب والعدرا..».

كانت الخادمة تسمع كل ما دار بيننا.. فالتفت إليها وسألتها: ما معنى ذلك؟ هل تعرفين من قال «الجنة تحت أقدام الأمهات».. أجابت لا.. لا أعرف وسألتني فشرحت لها معنى هذا القول ومن الذي قاله.

غريب أمر الأيام فكم هي مسرعة في تواليها فقد كنت أتمنى لو أن يطول كل يوم أمضيه مع أمي مقدار شهر كامل.

بالنصف الثاني من إجازتي هذه اتصلت بالدكتور هيثم الذي لم يتأخر في الوصول وأجرى لها كشفاً كاملاً كما في كل مرة وجدد لها بعض الأدوية وخفف لها من بعضها الآخر، وأبدى ارتياحه لتحسن وضعها الصحي واستقرار الضغط والسكر عندها وقال لا يلزمها سوى التخفيف من وزنها.

هذا بالإضافة لزيارات الدكتور حسين وزوجته الدكتورة نوارة..

لن أنسى ما كانت تتركه زيارتهما من سعادة، وأعتقد بأنه عندما كان يتحدث معها بعض الكلمات باللغة التركية كان يخلق عندها شعور التميز أمام الحضور لكونها تفهم ما يقوله وتجيبه عليه.

في اليوم التالي كانت زيارة طبيب الأسنان الدكتور رياض، وعندما شاهدته قالت له: «أهلين دكتورنا» حيث اطمأن عليها وكشف على الجسر الأمامي الذي سبق أن وضعه لها، وكتب لها اسم مادة لاصقة لتثبيت الجسر مع اللثة ما أراحها كثيراً عند تناولها للطعام.

بعد يومين من الاهتمام الطبي اتصلت بالحلاق مصطفى الذي لم يتأخر أو يعتذر في كل مرة أتصل معه من أجلها فقص شعرها وصبغه لها.. كانت تحب ذلك كثيراً لذلك كنت أكرر لها زيارة الحلاق مرة أو مرتين بحسب طول إجازتي أو قصرها.

في مساء ذلك اليوم اصطحبتهما إلى مول التاون سنتر وأفران تفاحة حيث اشتريت كمية من الكعك والخبز الطازج ثم تناولنا الغداء في مطعم أفران شمسين وعدت بهما إلى البيت حيث قالت روما «ماما أنا أول مرة أشوف أفران الخبز».

فقلت لها: «أنت كتير كويسة والأيام عم تمشي بسرعة؟ وما بقى كتير وقت حتى تخلص إجازة (ماريا) عند أبيها.. وعندما ترجع ممكن تبقي معها أو ترجعي للمكتب». قلت «هذا الكلام لأكتشف مدى تعلقها بالعمل عند أمي».. أجابتني مباشرة: «ماما مو مشكلة حتى لو ما رجعت أنا ابقى سنة مع ماما أم حنا».. تأكدت حينها أنها مرتاحة في خدمتها وتأكدت بأنها أصبحت على يقين بأنه لم يبق عندي أي أثر لما سبق لها أن تلفظته في اليوم الأول لوجودها عندنا.

بعد وصولنا البيت بوقت قصير اتصل أخي حنا وعلمت منه أنه اتصل على رقم البيت عدة مرات فلم يجبه أحد.. أخبرته أنني كنت مع ماما في جولة سياحية، كان قلقاً علينا واستفسر مني عن الأوضاع بشكل عام، وبعد حديث طويل بيننا أعطيت سماعة الهاتف لوالدتي التي سألته عن زوجته وأولاده

وأوصته أن يزوجهم، وقالت له: «دير بالك على روحك» هكذا أنهت المكالمة وأعقبتها بالدعاء له بالحماية والتوفيق..

فتحت خدمة السكايب بعد اتصال أخي حنا ووضعته أمامها حيث تم التواصل بالصوت والصورة مع ابنتيّ يلدا ومليسيا كانت سعيدة جداً برؤيتهما، كما تحدثت مع كميل وزوجته بريسيلا وابنتيه (سهام وساشا) ومع أخي ممتاز وميشيل.. أمضينا كما يقال سهرة سكايب بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.

ذهبت في اليوم التالي وبحسب ما أذكر أنه كان بتاريخ ٢٠١٢/٥/٢٣ إلى محل لأدوات الحلاقة (مقابل حلويات السميراميس) بحي الشعلان، اعتدت الذهاب إليه في كل مرة أحضر فيها إلى دمشق كنت قد تعرفت عليه من خلال الحلاق مصطفى، وبعدما اشتريت بعض أدوات الزينة التي أحتاجها وسيشوار (مكوي شعر) لابنتي مليسيا، تجولت في المنطقة أمام بعض المحلات بقصد شراء قميص أو كنزة صيفية كهدية أقدمها لروما حيث شعرت بالعطش فذهبت إلى سوبر ماركت «نورا» بقصد شراء «قنينة ماء بقين»، وكما يقال (ليس دخول السوبر ماركت كالخروج منه) فقد اشتريت الماء أولاً وبدأت أدقق النظر بالمواد الموجودة فيه، فقد كنت أريد شراء نوع من الشامبو لوالدتي لا يؤذي عينيها (شامو للأطفال).

بدأت أشعر بالضغط النفسي لأن إجازتي اقتربت من نهايتها، فاتصلت مع (ماريا) على هاتف والدها حيث أخبرتني بأنها راجعت الهجرة والجوازات في أديس بابا وسحبوا منها جواز السفر الذي سافرت بموجبه وبأنه يلزمها جواز سفر جديد، وهذا يحتاج لمدة شهر حتى تتمكن من الحصول عليه بعد إجراء الفحوص والتحاليل الطبية.

أزعجني هذا الخبر فهو يعني أنها لن تستطيع العودة وأنا موجودة عند والدتي وقد لا تستطيع إنجاز المطلوب منها في أديس بابا ما يعني أنها ستتأخر

لأكثر من شهر. كانت روما تسمع هذا الكلام وعرفت من خلال ما كنت أقوله لماريا بأنها ستتأخر شهراً آخر.. شعرت أنه بالقدر الذي صدمني وأزعجني هذا الخبر فإنه أفرحها وأسعدها، فقد ضمنت أنها ستبقى شهراً جديداً وستكون سيدة نفسها في البيت مع والدتي. كان ذلك واضحاً من ابتسامتها العريضة وبريق عينيها.

اضمرت بداخلي أنني لن أفسد عليها فرحتها هذه.. بل يجب ألا أفسدها فأنا بحاجتها، لذلك كان من الأفضل مراعاتها وملاطفتها، فهي ستبقى مع والدتي التي تحتاج للكلمة الجميلة والمعاملة الإنسانية بكل معنى الكلمة.

تناولت الكثير من الدواء لتهدئة وجع رأسي كوني أعاني من مرض الشقيقة المزمن.. لاحظت هي ذلك فأسرعت إلى المطبخ وقامت بتحضير العشاء، بينما استلقيت في غرفتي لأرتاح بعض الشيء، حيث سمعت جرس الباب وإذا بـ (أبو نزيه) وزوجته وخلال الحديث بيننا أعلمني بأن القوانين المطبقة حالياً لا تسمح للخادمة التي تسافر إلى بلدها بالعودة ثانيةً وهذا ما زاد من تشاؤمي.

وخامرني الشك بأنها لن تتمكن من العودة لخدمة أمي وبالوقت نفسه زاد من تعلقي ببقاء (روما) فهي خشبة النجاة التي يجب أن أبقى متمسكة بها.

عدت صباح اليوم التالي واتصلت مع (ماريا) التي أخبرتني بأنها تحتاج لمراجعة المشفى لإجراء التحاليل، وبعد ثلاثة أيام تأخذ النتيجة، وستقدم طلباً جديداً للحصول على جواز سفر، وكررت ما قالته مساءً بأنه في أحسن الأحوال لن تتمكن من استخراج الجواز قبل شهر آخر، فتعهدت لها بأنني سأعطيها كافة النفقات التي ستدفعها لأشجعها كي لا تتراخى في متابعة الإجراءات المطلوبة.

كانت متحمسة جداً لكي تعود بسرعة وهذا ما شعرت به عندما سألتها إن كانت مرتاحة عند والدها حيث قالت: «ماما هون كتير صعبة الحياة.. أنا مريضة.. سورية جنة»، وفي هذا الوقت عادت أمي وروما عن الرصيف حيث كانتا تمشيان وبدخولهما البيت بدأت أسمع أصوات إطلاق نار كثيف باتجاه البساتين البعيدة المواجهة جنوب الطريق المعروف باسم (المتحلق الجنوبي)، سألتني أمي «مين يلي يضرب رصاص هلق..» فقلت لها «ماما لا تخافي ستسمعين الكثير من هذه الأصوات يمكن فيه اشتباك بين عناصر من الجيش وأشخاص مجرمين». قالت بكل عفوية «الله ينصر الجيش.. الله ينصر الرئيس حافظ الأسد.. رمادي براس كل مين مو يحبه» كان اسم السيد الرئيس حافظ الأسد على لسانها دائماً كانت تحبه كثيراً فقد سمعتها تقول أكثر من مرة خلال السنوات التي عاشتها في السويد بأن سورية لم ترَ الخير إلا بعهد الرئيس حافظ الأسد.

السد الصامد

لم تكن تلك الأيام تمر رتيبة هانئة كسابق عهدها.. فقد كانت سورية «من وجهة نظري» أشبه ما تكون بسد ماء منيع يحتفظ بمادة الحياة لأهله يضخ من مائهِ خيراً ونعيماً لجواره، وفي غفلة عن أهله تسللت عبر روافده البعيدة بعض التماسيح الصغيرة التي كبرت وتضخمت.. وتكاثرت بين قواعده الجرذان والفئران التي بدأت تنقب في بنيانه فأوجدت لها ممرات دخول وخروج بعيدة عن أعين حراسه.

تمكنت الجرذان والفئران أن تجذب المزيد من أقرانها في الأحراش والكهوف المظلمة المجاورة منها والبعيدة حتى تكاثرت أعدادها وتوسعت شبكة حركتها المخفية عند الحواف البعيدة، ليبدأ ماء السد بالتسرب ومنافذ التسريب بالاتساع.. وهكذا استيقظ أهالي السد وبدؤوا العمل جاهدين لسد الكوى على

جرذانه وفئرانه لكن تماسيحه كانت كبيرة بداخله فتكاثرت أعدادها في الأعماق، والتماسيح بطبيعتها تحاول الهروب عندما تشعر بشح الماء وقلة عمقه.. دفعتها غريزة البقاء أن تحاول النجاة عبر كوى وممرات الفئران، فساعدت بحركتها العنيفة على توسيع تلك الكوى فأصبحت ثغرات واسعة استطاع بعضها النفاذ منها.. ما زاد من تعب أهالي وأصحاب السد بشكل كبير فما أن يغلقوا ثغرة حتى تنفجر أخرى.

لاحظ جيران السد هذه الحالة السانحة فأفلتوا الوحوش العطشى في محمياتهم ومزارعهم ما أربك الأهالي فهم يكافحون الفئران والجرذان ويطاردون الوحوش الشرسة ويغلقون الثغرات بالوقت نفسه، إنه عمل متعب وشاق وبتعاونهم تمكنوا من المحافظة على الجانب الكبير من سدهم والحفاظ على مائهم.. هذه هي الصورة التي تراءت أمامي لما أصبح عليه الحال في بلدي.

تفكيري كان منقسماً بين حالتين مأساويتين.. مرض أمي ونزيف سورية، فكنت أينما ذهبت إلى أماكن العبادة أصلي وأشعل شمعة لشفائهما..

الطاولة المريحة

عندما شارفت إجازتي على النهاية اصطحبت والدتي وروما إلى الكنيسة في حي القصاع تلك الكنيسة القريبة من ساحة العباسيين لم نفرق بين كنيسة وأخرى، فكل الكنائس هي أماكن للصلاة والعبادة وصوت الأجراس واحد والكلمة الطيبة واحدة فالدين لله والوطن للجميع.

عدنا بعدها إلى البيت حيث لاحظت بأن الطاولة البلاستيك الصغيرة التي تضعها والدتي أمامها وتستند عليها وهي تتابع التلفزيون بدأت تهتز تحت يديها.. اتصلت مع السيد حسام وأوصيته على طاولة مشابهة لكنها من الخشب بمواصفات طاولتها نفسها من حيث الارتفاع ومساحة سطحها، وكعادته لم يتأخر في تفصيلها وإحضارها.

بهذه الطاولة أكملت جميع ما كانت تحتاجه أمي من أشياء وأغراض ووسائل راحة ومظاهر نعيم الحياة، ولم يعد ينقصها شيء سوى العاطفة والحنان، ووجود أحد من أبنائها بجانبها وهذا ما لم أستطع توفيره دائماً، وهذا هو الأهم في حياتها.. مسكينة أمي ربحت ما تشتهيه النفس من طعام وشراب ومسكن مريح.. وخسرت في رحلتها الأخيرة ما كانت تحتاجه وتحن إليه من عشرة الأقارب ورؤية الأبناء..!؟

هكذا كنت أفكر وهكذا كنت أجلد نفسي عندما يخلو الجو من وجود الأصدقاء وأبقى وحيدةً معها.

قبل اليوم الأخير من إجازتي أعددت لها طعام الغداء وأطعمتها بيدي حتى أحست بالشبع حيث لم تقبل المزيد من الطعام بقولها «اكتفيتو.. اكتفيتو.. يعمر بيتك يا سهام»، أعجبت (روما) بهذه الكلمات فأصبحت ترددها عندما أشجعها بألا تخجل في تناول الطعام خاصة عندما اصطحبتهما إلى المطعم فتجيبني (اكتفيتو.. اكتفيتو).

نامت والدتي بعد الغداء لأكثر من ساعة ونمت أنا بدوري لنصف ساعة وعندما استيقظت طلبت مني الجلوس على الشرفة قائلة: «خليني اعبر عند الوردات» فرحت بقولها هذا وقلت لها: «تكرم عينك أم حنا.. مئة طلب متل هالطلب».

كان مساءً لطيفاً وهادئاً.. ولاحظت كم هي مرتاحة وسعيدة برؤية طيور السنونو تحلق أمامها وتطير مسرعة تارة وبطيئة أخرى حتى أنها كادت أن تلامس رأسها أكثر من مرة.

فقالت لي: «شوفي السنونو يحبوني.. كل يوم يلعبون هيك قدامي.. وأنا أفرح فيهم».

أثناء تناولها الفواكه قبّلت يدها وأنا أعطيها التفاح المقشر وقلت لها «ماما أتمنى تحكيلي حكاية عن أيام زمان وأنت صغيرة عند أهلك في آذخ

وتحكيلي شو كنتِ تسمعي من أبيك ومن جدك ومن جدتك.. وعن أيام الفرمان ودير مار كبرييل وكيف كانت حياتكم في آذخ»..

ضحكت وقالت: «مو أتذكر كتير.. بدي احكيلك شو كنت أسمع من حكي الكبار عند جدك ومن حكي ستك خاتون خلينا نعبر جوا البيت أحكيلك».. قبلت يدها ثانية ودخلنا إلى الصالون وقلت لها «الله يعطيك الصحة والعافية».

من حكايا أم حنا الشيّقة

بدأت بحكايتها قائلة: «الله يرحم هديك الأيام شو كانت طيبة.. كل الخلق كانوا يحبوا بعضهم.. ويعاونوا بعضهم في الأرض أيام حصاد القمح والشعير وكانوا يزرعوا القطن والشباب يتعرفوا على البنات، وكل واحد يختار عروسه... ومن بعيد لبعيد يطلع عليها مو يسترجي يحاكيها وبعدين أهله بيروحوا عند أهلها يطلبوها.. كان عندهم شرف.. كانوا أوادم» فأعود وأذكرها أين وصلت بحديثها فتنظر إلى الخادمة وتطلب منها كأس الماء أو أنها تلتفت إلى التلفزيون لتشاهد مقطعاً تعرضه الشاشة لفيلم أو أغنية أو برنامج طبخ، وبخاصة إذا كان البرنامج الذي تبثه قناة الـ (otv) اللبنانية عند المساء لـ (ماما لطيفة)، وبسبب رغبتي بسماع المزيد منها كنت أعود وأكرر طلبي بإكمال الحديث وأجدد تذكيري لها أين وصلت بالكلام (وهذا ما تم بالفعل).

فأكملت قائلة: «ان بطرك السريان يأتي بالصيف إلى دير الزعفران في طور عبدين وكان ينام فيه أكثر من (٦٠) راهباً سريانياً، ويأتي السريان من القرى البعيدة وكلهم من الفلاحين لحضور قداس يوم الأحد في دير ماركبرييل في قرية قرطمين وهي بعيدة قدر ساعتين مشي عن مديات»، ثم انتظرت قليلاً لتقول:

«سمعت حكاية وأنا صغيرة عند جدك المختار بأنه في هذا الدير صارت معجزة كبيرة (دير ماركبرييل) وعندما تلفظت بهذا الكلام قلت لها: «على مهلك شوي ماما.. لازم تشربين فنجان قهوة»، فذهبت إلى المطبخ وجهزت مكنة القهوة وأحضرت لها الفواكه من الموز والتفاح والكيوي للمرة الثانية وقمت بتقشير التفاح والكيوي، فكانت تأخذ القطعة المقشرة من يدي مباشرة ولا تنتظرني لأضعها في الصحن أمامها.. سمعت إشارة مكنة القهوة فأحضرت ثلاثة أكواب أخذت (روما) واحداً بينما أشارت ماما بكفها بأن أضع كوبها أمامها حيث كانت تحب أن تضع يديها على طاولتها وتحرك كفيها بحركة تماثل حركة قارع الطبلة.

بعدما أخذت رشفة من كوب القهوة قلت لها: ماما قلتِ بأنه صار قصة في دير ماركبرييل وطلبت منها إكمال الحديث.. فقالت:

«كان القديس ماركبرييل من عيلة فقيرة من ضيعة اسمها (باقسيان) في طور عبدين وصار شماس في كنيسة الضيعة، وفي يوم من الأيام طلب أبوه وأمه منه أن يتزوج.. لكن قال لهما.. ما بدي أتزوج أنا بدي أخدم الرب، وهيك ترك أهله بالضيعة وراح ليصير راهب ويتعلم أكتر وأكتر علم اللاهوت عند راهب ناسك اسمه (جاروجي) (كيوركيس) وكان ماركبرييل يمشي حفيان صيف.. شتي.. وأكله قليل كتير وبقي هيك عند الراهب جاروجي سبع سنين وكان أهله يروحون عنده ويطالبوه بالزواج... وكان بعض الناس يضحكون عليه لأنه ضعيف كتير فكان يزعل ويصلي للرب يسامحهم.. ولأنه ما بقى فيه يتحمل استسمح من الراهب جاروجي أن يبعته إلى دير مارشمعون فسمح له..

وعندما وصل إلى الدير لاقى ترحيب كتير من الرهبان وبعد مدة سلموه رئيس الدير، وكانت النسوان يحملون أولادهم المرضى فيصلي لأجلهم ويمسح جبينهم بالميرون وتاني يوم يجيبوا خبز أو حنطة إلى الدير.. وبعدين انتخبوه

مطراناً للأبرشية كلها وأيده الرب ومنحه معجزة إحياء الأموات ثلاث مرات خلال حياته وحاكى (كلم) الراهب يوحنا بعد موته بسنة كاملة».

فقلت لها: «ماما كيف هيك كيف حاكى الراهب المدفون بالقبر؟» وعند سؤالي أمسكت المسبحة ورسمت بيدها إشارة الصليب على صدرها ووجهها.. فقلت لها: «ماما القصة كثير طيبة» وصلبت على صدري ووجهي كما فعلت هي.. وكررت سؤالي: «ماما احكيلي كيف حاكى الراهب يوحنا؟» فصلّبت ثانية.. قائلة: «كان يأتي إلى الدير وينام فيه الناس الغريبين (الغرباء) والناس يلي يشتغلون بالتجارة يرتاحون بالدير وبعدين يروحوا يكملوا شغلهم وتجارتهم»..

وفي يوم من الأيام وصل للدير تاجر عربي وكان معه خيول وجمال محملة بضائع، وكان معه ليرات دهب كتير فترك الدهب مع راهب اسمه يوحنا وكان صديقه يعرفه من زمان وسافر مع خيوله وجماله ليبيع بضاعته، وقال للراهب إذا رجعت بترجعلي الدهب وإذا متّ تعطيهم للعبيد يلي معي ياخدوهم لأهلي.. بقي الراهب ساكتاً لا يرد عليه ولا يكلمه وأشار له أن يخفيها ويحفر لهم بأرض غرفة الراهب..

وغاب التاجر مدة ثلاث سنين وربح مال كتير، وفي هذه الفترة مات الراهب قبل ما يرجع التاجر بسنة كاملة، ولما رجع التاجر إلى الدير سأل عن صديقه الراهب فقال له الرهبان إنه مات قبل سنة، فسألهم إذا كان أعطاهم ليرات الدهب يلي تركها عنده أمانة لحين عودته فقالوا له لم نسمع منه قبل موته أي كلام عن دهبك.. وقالوا له يوجد تلميذ للراهب يوحنا ويمكن أنه أوصاه بشيء أو أعطاها له وهو لا يكذب أبداً وهو صادق وقديس مثل معلمه يوحنا..

راح التاجر لعند التلميذ وسأله عن ليرات الدهب فجاوبه بأنه لا يعلم ولا يعرف شيئاً عنها، فغضب التاجر وطلب من عبيده أن يمسكوا التلميذ ويربطوه ويعذبوه حتى يقرّ بالدهب، فسمع الرهبان بكاء الراهب المسكين وشاهدوه

مربوطاً بجنزير من الحديد وهو يتوجع ويحلف أنه لا يعرف شيئاً عن الذهب.. عند ذلك أخبروا ماركبرييل بالقصة فجاء لعنده وشاهده مربوطاً وهو يبكي من الوجع فبكى لبكائه ونظر بلطف ومحبة إلى التاجر وقال له: تعال معي.. فردَّ عليه إلى أين!! فقال لنسأل الراهب يوحنا عن دهبك!! فاستعجب التاجر وأجابه وكيف بدك تسأل واحد مات من سنة؟ فقال تعال أنت والتلميذ يلي تعذبه، فلحق به التاجر والتلميذ وبقية الرهبان وأخذهم إلى بيت القديسين، ووقف أمام قبر الراهب يوحنا وأقام الصلاة ودعا الرب أن يخلص عبده المتهم من الظلم ويظهر الحقيقة وأين الدهب يلي تركه التاجر مع الراهب يوحنا.. وبعد أن خلص من الصلاة ناداه بصوت قوي وقال: «ببركة الرب الذي عملت البِر قدامه.. وأقمت الصلاة بصدق وخدمته بالحق.. أخبرنا أيها الأب المبارك أين وضعت دهب صديقك التاجر ولمين أعطيته».. ومباشرة سمعوا صوتاً من القبر يقول: «الدهب في موضع وضعه التاجر بيده وهو يعرف المكان لأنه أوصاني بالدهب وخبأه بيده بأرض القلاية التي كنت فيها»، فتذكر التاجر المكان وراحوا معه وحفر الأرض بيده فوجد ليرات الدهب كما وضعها وأخفاها بيده..

ومن ذاك الوقت بقي التاجر في الدير ونادى على عبيده وأعطاهم أجورهم ونصيبهم من الدهب.. وقال لهم «صرتم أحراراً ما بدي بقى منكم شي روحوا أين ما بدكم» وتبرع بالباقي من الليرات والمال يلي كان معه إلى الدير، وطلب من ماركبرييل أن يسميه باسم صديقه يوحنا وهيك صار مسيحي وبقي بقية عمره في الدير حتى مات فيه».

وبعد مدة مات التاجر وقبروه داخل الدير وبعد كم سنة احتاجوا طاسة حتى يسكبوا الموي (الماء) ويغسلوا الأولاد الصغار ومنشان الشرب.. لأن النسوان يلي ما كانوا يحبلون كانوا يزورون الدير ويتغسلون فيه ويصلون حتى يصير عندهم أولاد.. فدخل أحد الرهبان لغرفة الموتى وأخرج جمجمة التاجر

يلي مات بالدير وعملوا من طاسة راسو طاسة لصب الماء وصار اسمها «طاسة العربي»، وكانت كل عروس تتزوج وما تحبل تروح الدير وتتغسل بطاسة العربي فيرزقها الرب الأولاد.

كنت استمع لهذه الحكاية وأبكي على ما سمعته منها وكنت في بعض الأحيان أشرح بعض الكلمات لروما لصعوبة فهمها بالنسبة لها.. عندما سمعت نهاية الحكاية تذكرت ما حصل معي في بداية حياتي العائلية فبعد أن رزقني الرب بابنتي يلدا تأخر حملي الثاني حوالي خمس سنوات، وفي إحدى زياراتي لدير ماركبرييل رأيت طاسة العربي حيث تم تلبيسها بطبقة من المعدن «وأعتقد أنه من النحاس حتى لا تتفتت وتتعرض للكسر من كثرة الاستعمال» فدخلت إحدى الغرف المخصصة لاغتسال النساء واستخدمت تلك الطاسة بالاغتسال من جرن الماء المخصص لهذه الغاية وعلى أثرها حصل حملي الثاني وجاءتني ابنتي مليسيا.

وهكذا أسدلت الستارة على فصول آخر حكاية سمعتها منها في تلك الإجازة فهي قد حدثتني بأشياء كثيرة لكنني فضّلت أن أكتب حكايتها هذه لما تركته بداخلي من ذكريات وشجون قد ينتفع منها قارئ ما في يوم من الأيام.

اجتمع الأصدقاء عندنا في الساعة التاسعة ليلاً وأمضينا سهرة طويلة على شرفة البيت بينما خلدت والدتي للنوم الهادئ، فكنت أطل عليها من زجاج باب غرفتها المتصل مباشرة بشرفة البيت. كانت كملاك صامت أسدل جفونه يخبئ خلفهما الأحلام والصور ويعكس وجهها حمرة الضوء الخافت المتسلل إليه من زجاج الشرفة.. قال أحد الأصدقاء بعد أن شاهدني أطيل النظر إليها «لا تخافي.. دعيها نائمة.. فإن أمعنت النظر كثيراً في وجهها فقد ترى حلماً قد يكون جميلاً وقد يكون كابوساً يزعجها».. ضحك الحضور ورد بعضهم «طول بالك يا شيخ.. إن من تنظر لوجهه يرى الجنة.. ولا يرى

الكوابيس» كان إطراؤهم هذا محبباً وأضفى لوناً آخر على الأحاديث الدائرة فدخلنا في دائرة الأحلام حتى نهاية السهرة.. وودعتهم بحرارة ووعدتهم بالعودة إلى دمشق في شهر آب القادم لأن قلبي لا يقوى على أن أطيل غيابي عن ذاك الملاك النائم.

استيقظت باكراً في صباح النهار الأخير من إجازتي ٢٠١٢/٦/٤ وأنهيت على وجه السرعة توضيب حقائبي وتفرغت للاتصالات الهاتفية من أجل عودة الفتاة الأثيوبية... كنت قلقة وخائفة من عدم إمكانية تأمين عودتها. وبعد الغداء ودعت ملاكي (أمي) باكية على مفارقتها.. حيث قالت (روما): «ماما لا تحملي هم.. والله والله سأخدمها مثل أمي ولن أغفل عنها لحظة واحدة».

كان موعد إقلاع الطائرة بحدود السادسة مساءً، وكما هي العادة في كل مرة، فقد أقلعت الطائرة في موعدها لتحط في مطار حلب لمدة ٤٠ دقيقة ومنه إلى مطار استوكهولم الذي وصلته فجراً حيث كان زوجي شابو في انتظاري.

خلال الرحلة استعرضت شريط إجازتي هذه لأرى أين أخطأت وأين أصبت وصليت للرب ألا يحرم أماً من أبنائها لأي سببٍ كان.

التواصل مع أمي

بوصولي إلى بيتي في السويد فتحت التلفاز لأتابع الأخبار السورية فقال لي زوجي – بعدك.. ما.. وصلتِ من سورية– «ارتاحي شوي.. أخبار.. أخبار»، كان معه حق حيث خففت صوت التلفاز وفتحت الشاشة المرتبطة مباشرة مع كاميرا خدمة السكايب باللابتوب عند والدتي، فقد تعلمت الخادمة على فتح واستخدام السكايب، لقد كانت مؤهلة لاستيعابها بسرعة وأوصيتها أن تبقي السكايب مفتوحاً.. وكان اللابتوب بإحدى زوايا الصالون بحيث أرى على

مدار الساعة كل ما يحصل عندها ولم يكن الاتصال لينقطع إلا في حالة انقطاع الكهرباء.

لم أكن مكتفية بذلك لأنني قمت بتفعيل هذه الخدمة سابقاً في هاتفي الجوال وهاتف السيارة، فكان الاتصال بالصوت والصورة -كما أسلفت- على مدار الساعة، فلم أشاهد أي حركة داخل البيت فقد كان الوقت مبكراً وعلى ما يبدو مازالتا نائمتين.

غادر زوجي إلى عمله فعدت ورفعت صوت التلفاز لأستمع للأخبار وأنا أعمل على ترتيب أغراضي وبين الحين والآخر ألقي نظرة على شاشة السكايب، في الساعة التاسعة صباحاً بتوقيت استوكهولم.. العاشرة بتوقيت سورية.. سمعت صوت والدتي عبر السكايب تقول: «وديني الحمام» فتوقف أمام الشاشة وإذا بهما تخرجان من غرفة النوم.. بيدها واتجهتا إلى الحمام حتى سمعت صوت إغلاق بابه.. أكملت ما كنت بدأت به ووضعت كوباً من القهوة على طاولتي أنتظر رؤيتهما ثانية.. مضت نصف ساعة تقريباً وإذا بهما تخرجان من الحمام حيث شاهدتني أجلس أمام الكاميرا فأومت لي بيدها.

وقفت (روما) أمام الكاميرا وهنأتني بالسلامة قائلة: «كنت أحممها». قلت لها يعطيك ألف عافية. التفتت والدتي وسألتها «مع مين تحكين» أجابتها: «عم أحكي مع سهام» ونقلت اللابتوب إلى الطاولة.. نادتني «سهام.. وصلتِ السويد.. الحمد لله على سلامتك» قلت لها: حمام الهنا والصحة يا رب».

تابعت ما قامت به الخادمة وأنا أشرب قهوتي حتى وضعت طعام الإفطار أمامها وبقيت أحدثها حتى أكملت طعامها ثم شاهدتها حين أحضرت لها الدواء.. قالت حينها «تشوفيني أشرب الدوا» أجبتها: (صحتين أمي لازم تشربين الدواء حتى تقوي).

سألتُ روما: ماذا ستفعلين؟ قالت: «سأمسح البيت وأسقي الوردات وبعدين أقعد ألعب مع ماما (أوغلان) بورق الشدة».

هذه العملية من التواصل كانت مستمرة لا تنقطع حيث كنت أراهما وأنا أقود السيارة وخلال العمل حتى في وقت الاستراحات القصيرة بين ساعة الترجمة في دوائر الهجرة أو المحكمة أو المشفى، كنت أفتح هاتفي لأراها جالسة أمام التلفزيون أو أنها تمشي داخل البيت.

لم تكن هذه المتابعة اليومية سهلة على الإطلاق وأرجو ألا يعتقد أحد أن هذا الأمر من باب البذخ المادي أو الترف المعنوي على الإطلاق.. لم أكن أقصد ذلك أبداً.. إنما من باب الحرص الشديد ولا أعتقد أن أحداً غيري يعلم مدى حاجة والدتي للرعاية والاهتمام والملاطفة ومدى حاجتها لمن يتحدث معها دائماً ويسألها ليستجرها للحديث والكلام.

كنت أخاف أن تنسى الكلام.. فمن خلال تجربتي ومشاهدتي في المشافي السويدية رأيت الكثير من مرضى الزهايمر قد فقدوا القدرة على الكلام لأن أحداً لا يتكلم معهم.

هذا جزء واحد من المشكلة وما بقي من أجزاء فهي مسائل شخصية صرفة تتعلق بها فقد وصل بها الأمر إلى مرحلة العجز التام عن القيام بأي شيء تحتاجه نفسياً أو تحتاجه جسدياً.

قلقي على أمي وسورية

كنت أقوم بأقصى ما يمكن لمساعدة والدتي ولتحسين وضمان سلامتها وراحتها وشفائها فهي بعيدة عن المقربين إلى قلبها.. لم تعد تسمع أصواتهم ولم تعد تجلس بينهم.. تحدثهم، تروي لهم حكايات ودروس وعبر الماضي وإن اتصل بها يوماً أحدٌ منهم فإنه يتصل على استحياء ورفعاً للعتب مع علمه بأن قلبها المحب لا يعرف العتب.

خادمتها الوحيدة عوضتها عن كثرة الأقارب!! أما الأصدقاء رغم قلة عديدهم فقد كانوا لها عوضاً عن لفيف القربى وحبل النسب حين وقفوا إلى جانبها يمدون لها يد العون.. يسعفونها عند الحاجة يأتون لها بالطبيب والدواء.. كانت تحب أبناءها كثيراً ولم توافق على حضورهم لأنها تخاف عليهم كأي أم تخاف على أبنائها، لأنني عندما كنت أقول لها بأن إخوتي سيأتون لعندك كانت تقول «خليهم هلق.. أخاف يخطفوهم بالطريق.. قوليلهم لا يجوني». فتذكرت عندما طلبت من كبرييل وكميل وجمال عند مغادرتهم البيت أن يبدلوا أسماءهم إذا سألهم أحد عنها.

أليس في ذلك مقاربة بينها وبين ما تعانيه الأم الخالدة سورية؟؟ بل أرى في الحالتين تطابقاً!!

أولئك الذين وصفتهم سورية بكل أدبياتها وخطاباتها ومراحل تعليم أجيالها وصفتهم بالأشقاء العرب، فتحت لهم ذراعيها وحدودها يأتون ليأكلوا من خيراتها ويتنعموا بهوائها ويتملكوا ما طاب لهم من مزارع ومنازل وأموال، وهم أول من قاطعها وأول من غدر بها وأول من أشهر سكينه في وجهها واستل خنجره المسموم طاعناً به ظهرها.

سورية الخالدة نادت أبناءها الشرفاء فهبوا لنجدتها واستنفروا لإنقاذها وانفردوا في إعطاء دروس الرجولة والفداء والذود عن كرامة أمهم للعالم أجمع، فقدموا الدماء والأرواح لتبقى مرفوعة الرأس مشرقة الجبين، وأما أصدقاؤها فلم يتأخروا في تواجدهم قربها ورفعوا الصوت والأكف في وجه أعدائها الذين أطلقوا جراثيم المرض في جسدها ليوهنوا مفاصلها وينالوا مناعة جسدها..

وأعتقد أن أحداً لن ينسى الصفعة الثنائية التي انطبعت على وجوه «أشقائها العرب» من كفيّ مندوبي روسيا والصين في ٢٠١١/١٠/٤ فلم يشعر

أدعياء القربى والنسب بالذل والهوان من هذه الصفعة التي سيذكرها التاريخ طويلاً، ولم تثنِ عربان القيم والأخلاق المتقلبة والمتحركة كرمالهم عن الانزلاق أكثر والانغماس أكثر في مستنقعات غرف التآمر على شقيقتهم فكان لزاماً أن يُصفعوا ثانية مرتين خلال العام ٢٠١٢.

هؤلاء هم الأصدقاء الذين قصدتهم . فيما أسلفت به من كلام . يحفظون الود ويرعون العهد.. فكان بهم عوض الخير في الحالتين.

هذا بعض ما كنت أفكر به وبعض ما كان يؤرقني.. كنت مضطرة لأتابع شاشتين في وقت واحد داخل البيت.. شاشة الأخبار وشاشة السكايب.. فكلاهما تعرضان لي ما كنت أعتبره مأساة!! بالرغم أن الكثير من اللمحات المطمئنة التي شاهدتها فقد كنت أعتبرهما صديقتين لا تسكتان عن الحديث تفرحاني حيناً وتبكياني حيناً آخر.

عوضني السكايب بعض الشيء وخفف الكثير الكثير من الهواجس والشكوك التي كانت تراودني قبل استخدامه حول العناية والرعاية والاهتمام الذي توفره الخادمة لوالدتي.. كم كان مؤلماً هذا الشعور قبل السكايب وبعده.. لن أمل من القول إنها كانت تسألني في كل مرة أحدثها فيها السؤال نفسه «ايمتا تجين عندي؟».

كانت الأخبار تتزايد والإشاعات تتسرب عن المدى الذي قد تصل إليه العقوبات الأوروبية والإجراءات الضاغطة على سورية، فقد انتابني الخوف من أن تصل العقوبات إلى حد منع الطائرة السورية من الهبوط في المطارات الأوروبية والتي كثر الحديث عنها كما ذكرت.

ولأول مرة كنت أتمنى أن تسرع الأيام لتصل بي إلى شهر آب ٢٠١٢ فقد برمجت التزاماتي لأكرر سفري إلى دمشق في هذا الشهر..

والدتي تشارك في المسيرة وتحمل العلم

كثيرة هي التقلبات التي شهدها شهرا حزيران وتموز في سورية ومأساوية الأحداث الدامية التي نفذها الإرهابيون في مناطق عديدة منها.. فكانت تقابلها مسيرات التأييد والوفاء والولاء لسورية ولجيشها ولوحدتها ولنصرة قيادتها تلك المسيرات التي كانت تملأ ساحات وشوارع دمشق، حيث شاهدت عبر الفضائيات جموع المواطنين تملأ أوتستراد المزة وساحة الأمويين، لقد فاجأتني إحدى الصور التي أرسلها أحد الأصدقاء حين رأيت والدتي تحمل العلم السوري يحيط بها بعض الشباب المشاركين في المسيرة، حيث مشت فيها متنكبة العلم بقدر ما أسعفتها قدرتها على احتمال السير بين الجموع.. وقد عرضت صورتها هذه بعض مواقع الانترنيت.. أبكتني حين رأيتها.. بكيت فرحاً.. بكيت اعتزازاً وفخراً بها.. نعم هذه أمي تحمل العلم.. أحبت سورية وأورثتنا حبها.

أذكر في ذلك اليوم بأنني لم أشاهد أي حركة لها أو لخادمتها داخل البيت.. اتصلت مع (أبو نورس) فسمعت الهتافات تصم الآذان وسألته عن أمي وبصعوبة فهمت من كلامه أنهم موجودون في المسيرة.. لم أستوعب الأمر حتى وصلتني الصورة.

بقيت أتابع الأخبار وأراقب شاشة السكايب حتى شاهدتها تدخل البيت معه ومع عائلته.

كانت متعبة قليلاً.. تابعتها بالنظر حتى جلست على كرسيها.

نادتني قائلة: «سهام.. ليش مو تجين معنا رحنا مشينا بالمسيرة وحملت البيرق.. وغنيت مع الخلق.. نحنا نحبك يا بشار.. وبالروح والدم نفديك يا بشار..» لم تنسَ هذه العبارات حيث أكد لي أنها بقيت ترددها طوال الطريق من أمام ملاعب الجلاء حتى وصلت البيت.

أما حكاية (ماريا) فكان لها شأن آخر فالاتصالات معها بشكل يومي من السويد؛ حيث تم تمديد بطاقة سفرها من خلال صديقه بالخطوط اليمنية أكثر من مرة، مع ما يترتب على ذلك من غرامات التمديد وهذا لم يكن مهماً بقدر أهمية تأمين عودتها.

حين كنا نتحدث بشأنها على مسمع من (روما) أحياناً لم يكن الأمر مريحاً لها فقد شعرت هي الأخرى بقيمة استقلاليتها في البيت وأبدت رغبتها بالبقاء في خدمتها لمدة سنة.. أكثر من مرة.. حتى أنها استغنت عن ارتداء الحجاب وعندما شاهدتها بدونه عبر السكايب!! سألتها عنه.. وكنت سابقاً مرتاحة لوجوده على رأسها لأنه يحفظ شعرها من التساقط.

أضحكتني من جوابها حين قالت: «ماما أم حنا قالت لي.. اشلحيه عن رأسك ما حدا عندي غيرك.. مالو لزوم»، وأضحكتني أكثر عندما قالت: «أنا كمان عم صلي مع ماما أم حنا وحفظت منها.. سلام لك يا مريم».

قلت في نفسي «هذه نعمة أخرى فوالدتي أصبحت تعمل بالتبشير» الحق يقال إنها أتقنت عملها، وتأكدت بالمشاهدة عبر السكايب وبشهادة الأصدقاء أنها كانت تنجز عملها وأبدت كل اهتمامها بوالدتي طيلة وجودها معها وبكل إخلاص.

امتناع مطارات أوروبا عن استقبال الطائرات السورية

في مطلع شهر تموز ٢٠١٢ امتنعت المطارات الأوروبية عن استقبال الطائرات السورية بما فيها مطار استوكهولم تطبيقاً للعقوبات الأوروبية المتخذة بحق سورية.. هذا الأمر شكل عامل ضغط آخر ليس لي وحدي وإنما لكافة السوريين المغتربين الذين اعتادوا أن يمضوا شهر الصيف في سورية.. بدأت أتواصل مع الأصدقاء وتبادلنا الآراء بشأن مجيئي خلال شهر آب، بعضهم

اقترح أن أسافر من استوكهولم إلى موسكو ومنها إلى سورية.. وكان خط استوكهولم استانبول.. بيروت.. دمشق خياراً آخر.

بالرغم من التوقيت غير المناسب لوصول الطائرة إلى مطار بيروت بالواحدة والنصف ليلاً فقد فضلت هذا الخيار.. كان الوقت مازال مبكراً لشراء بطاقة السفر، فعودة الخادمة من أثيوبيا لها الأولوية.

على مدار شهر حزيران نجحنا في الحصول على الموافقات المطلوبة التي من شأنها السماح بعودتها مجدداً وفقاً للقوانين والأوامر الإدارية الناظمة لهذا الموضوع لتبقى عودتها متوقفة على استلامها جواز سفرها الجديد.. كنت أتصل معها بشكل يومي لمرتين أو ثلاثة وفي كل مرة أتوقع منها أن تُخبرني بأن جواز سفرها أصبح في حوزتها لكن هذا لم يحصل طيلة شهر تموز.. أحياناً كانت تقول إن والدها طلب منها عدم العودة إلى سورية عندما كان يستمع إلى الأخبار من التلفزيون الأثيوبي والمحطات الإذاعية.. وإنها كانت تجيبه بأنها وعدتني ووعدت ماما أم حنا.. فهي كانت قد حملت معها بعض الصور الشخصية برفقتها وبرفقة خالي شكرو الذي أمضى أكثر من أسبوع في زيارة أخته أم حنا. إضافة لصور تجمعني مع بعض الأصدقاء، يبدو أن والدها شعر بالاطمئنان على ابنته بعد مشاهدته الصور التي حملتها معها كما قد فهمت منها بأنه لم يعارض عودتها بشكل قاطع وإنما طلبه جاء من باب النصيحة خوفاً عليها.

لم ينقطع اتصالي كذلك مع صديقنا لأعلم منه تفاصيل كل شيء وخاصة عن حالة والدتي وعن الخادمه... حيث اضطررنا لأن نشتري لها بطاقة سفر جديدة لرحلة (أديس بابا- صنعاء) فقط في حال لم يُسمح لها بالسفر من صنعاء إلى بيروت.. إضافة لبطاقة السفر الموجودة معها والتي سافرت بداية بموجبها ودفعت قيمتها ذهاباً وعودة من مطار بيروت إلى مطار أديس بابا.

تم شراء البطاقة الجديدة لرحلة أديس بابا- صنعاء ذهاباً وإياباً بناءً على تأكيدها بأنها ستستلم جواز السفر خلال يومين من بداية شهر تموز.. على أن يكون سفرها بتاريخ ٢٠١٢/٧/٨، وعندما لم تستلم جواز السفر بدأت أدفع غرامات تمديد بطاقتي سفرها (كنت بواحدة فأصبحت باثنتين).

أثناء أحد الاتصالات بشأنها سألني: «هل اتصل معك كبرييل اليوم؟" أجبته:" أنه لم يتصل حتى الآن لأن فارق الوقت بيننا سبع ساعات».

فأوضح سبب سؤاله.. بأن أخي كبرييل اتصل معه وأخبره بأنه سيأتي إلى سورية في شهر أيلول القادم مع وفد المغتربين السوريين في البرازيل وبعض دول أمريكا اللاتينية.. ومنهم من سينضم إلى الوفد قادماً من أوروبا.. تضامناً وتأييداً لسورية وقائدها.

أسعدني هذا الخبر لأنها ستكون فرصة جميلة بأن أكون وأخي كبرييل معاً عند والدتي جميلة و(هذا اسمها) وأخذت أتصور وأتخيل كم ستكون هي سعيدة بوجودنا معها.. فهو من بين بقية إخوتي الأكثر شبهاً بها.

شارف شهر تموز على نهايته وبدأت الاستعداد لإجازة الصيف فأخذت أتردد إلى المحلات أيام عطلتي الأسبوعية وأحياناً بطريق عودتي من عملي.. كان يتملكني شعور غريب نحو والدتي حين أراها عبر السكايب أو عندما أكون بجانبها فأنا لا أريد أن أصدق أنها مريضة وأحاول تكذيب ما تراه عيني حين تمشي بمساعدة الخادمة أو حتى بمساعدتي، وكثيراً ما تركتها تمشي بجانبي مستندة بكلتا يديها على العربة الخاصة التي رافقتها من السويد.. لم أكن أريد أن تمحى من ذاكرتي صورتها حين كانت تمشي برشاقة وقوة إلى بعض المحلات للتسوق أو داخل أروقة المطارات حين السفر.. لم أكن أرغب أن يغيب صوتها عن سمعي كمتحدثة بارعة تمزج في حديثها أوراق الماضي لتنطق بها حكمة ونصائح ترضي أذواق المستمعين لها.

كنت أغضب من نفسي ومن الجميع حين أراها تتناول طعامها وتأخذ دواءها بمساعدة غيرها.. كنت أتمنى أن يواسيني أحد من أقاربي من إخوتي ومن أصدقائي.. بل أن يجاملني ليخفف عني ما كنت أخفيه وأدفنه في داخلي من حزن وألم عليها، فكثيراً ما استعنت بالنشرات الطبية وبالدراسات المنشورة في الانترنيت وبالأسئلة المباشرة لأطباء أعرفهم أو ألتقيهم صدفة أثناء عملي في المشافي لأعرف المزيد عن مرض الزهايمر ولأعرف أكثر عن أمثل الطرق للتعامل مع المصابين بهذا المرض.

وصلت لقناعة بأن أقصى ما يحتاجه مريض الزهايمر هو الاحترام والابتسامة والعطف، لذلك كنت أطبق هذه القناعة حرفياً بل كنت أزيد عليها حيث كنت أمسك بيديها وأضع الموسيقى الراقصة أو شريط حفلة عرس ابنتي وأرقص معها وأغني لها، فكانت أحياناً تزغرد للعروس لم تكن تريد أن تظهر تعبها.. لكنني حفظت درسي فعندما تزغرد تحين الاستراحة، وفي إحدى المرات بعدما جلست على كرسيها وضعت الطاولة أمامها.. نظرت وقالت وهي تضحك: «أهل هالعرس شو بُخلى.. رقص ورقصنا.. وضيافة ما شفنا» فضحكت من أعماقي وأعتقد بأن الجيران سمعوا ضحكتي وقلت: تكرمي أم حنا أحلى ضيافة تستاهلينها.

فأحضرت لها الفواكه والحلوى وجلست أطعمها ما تشتهيه، كانت تحب ثمار الرمان والمشمش فأقشر لها الرمان، وأما حبات المشمش فكانت تفرح بتقسيمها بيدها وتنادي على خادمتها لتشاركها.

تكررت اتصالات أخي كبرييل مستفسراً عن تاريخ سفري فأعلمته أنني كنت أرغب أن أصل إلى دمشق قبل منتصف شهر آب لأقضي عيد السيدة في مشتى الحلو مع والدتي، لكنني سأتأخر عن هذا الموعد بسبب التزامات عائلية،

وعلمت منه بأنه سيأتي من البرازيل في منتصف شهر أيلول مع وفد المغتربين.. فخطرني أن أتأخر بالحجز والسفر إلى النصف الثاني من آب وبذلك ألتقي معه ونمضي فترة لا بأس بها مع والدتي.

أتممت كافة احتياجاتي خلال شهر تموز والنصف الأول من شهر آب وأنهيت شراء مستلزمات والدتي وبعض الهدايا للأصدقاء لكن هاجس عودة (ماريا) لم ينتهِ.

اتصلت بها مراراً وتكراراً أحرضها لمراجعة دائرة الهجرة حتى أنني قلت لها: «إذا ما عندك رغبة بالعودة فأنا لم أعد أحتاجك طالما (روما) عند الماما».

شعرت باختناق صوتها على الهاتف وأقسمت بأنها تذهب يومياً من مكان سكنها البعيد عن المدينة للحصول على الجواز، وبأنها تعرضت للسرقة وفقدت هاتفها عندما استقلت سيارة لنقل الركاب.. وعدتها أنني سأحمل لها هاتفاً بديلاً من السويد وأعطيها كافة النفقات التي صرفتها.

وكما يقال «كل آتٍ قريب» وربما زاد في تقريبه تسارع الأحداث الشخصية منها والعامة وأسرعها كانت الأخبار حول سورية وعنها، فالتفجيرات أصبحت سمة تلك الأيام من دمشق (جرمانا) إلى حلب وإدلب إلى اغتيال ما أصبح تعرف بخلية الأزمة، ليصل الأمر إلى فرار رئيس الحكومة إضافة لمخاض بعثة كوفي عنان التي مهدت لولادة بعثة الأخضر الإبراهيمي، وغير ذلك من الحوادث المؤسفة التي أودت بحياة الكثير من أبناء سورية..

رغم ذلك بقيت الأم الخالدة (سورية) عصية على العواصف لم تحقد على أبناءٍ ضلوا فأبقت ذراعيها مفتوحتين لهم تسامحهم.. وتبلسم جراحهم وهي الجريحة.. تخفف من آلامهم.. وهي المتألمة.. لم تقطع الحبل السري بينها وبينهم.. تطعمهم من أحشائها وتسقيهم من عيونها.. حافظت على رسالتها وتمسكت بها!! هذا ما

كنت أتحدث به وهذه قناعتي فبالرغم من اغترابي عنها وأنا بسن السادسة عشرة لكنني بقيت متصلةً بالحبل السري معها فلم ينقطع يوماً بيني وبينها.

هذه الأم المتسامحة كيف لنا أن ننساها!! كان كل يوم يمر تزداد فيه ثقتي بأن والدتي أنصفتني في وصيتها وأنصفت نفسها حين جاءت من وراء المحيط إلى أحضان الأم الخالدة، وأصبح وجودي بقربها تاريخاً لذاكرتي لأستذكر ما كنت أريد استذكاره، فأقول لمن يسألني عن أي حادثة في سورية: قبل إجازتي الشتوية أو بعدها أو قبل إجازتي الربيعية أو بعدها.. الخ رغبتي بالسفر الدائم إلى سورية لا تضاهيها رغبة، فكيف الحال سيكون بوجود والدتي في أحضانها في مدينة التاريخ وقلبه النابض.. دمشق.. بالتأكيد سآتي إليها مشياً على الأقدام إن اضطررت لذلك.. وهذا ما كان يدفعني لشراء بطاقة الطائرة قبل أكثر من شهر على موعد السفر.

تأخرت في الحجز لمدة أسبوع من بداية شهر آب لمراعاة موعد وصول كبرييل في شهر أيلول وأبلغته بأنني سأكون في دمشق قبل نهاية شهر آب، وأوصيته على عدة أنواع من البشاكير البرازيلية لحاجة والدتي إليها، فهي بالتجربة من الأفضل بالعالم إن لم تكن الأفضل لاستخدامها في تنشيف جسمها من الماء بعد الحمام، تلافياً لأية أمراض جلدية قد تصيبها بسبب عدم التنشيف الجيد وتجفيف جلدها من الرطوبة واشتريت أفضل أنواع الكريمات الجلدية بكميات تكفيها لسنة كاملة.

العودة إلى دمشق عبر بيروت

حان موعد سفري وعلى ما أذكر بتاريخ ٢٠١٢/٥/٢٢ على الخطوط الجوية التركية عبر مطار استانبول الذي انتظرت فيه ست ساعات ووصلت مطار بيروت بالساعة الثانية بعد منتصف الليل.

وبخروجي من البوابة المخصصة للقادمين وجدت (أبو نزيه) بانتظاري وتوجهنا مباشرة باتجاه دمشق بعد استراحة قصيرة تناولنا فيها القهوة بطريق شتورا.. وصلنا دمشق حوالي السادسة صباحاً كانت رحلة متعبة في مسارها.. سعيدة في نهايتها.. كانت والدتي ماتزال نائمة.. لم أوقظها.. بل نمت في سريري.

استيقظت في التاسعة صباحاً حين لامست وجهي أصابع أمي كانت واقفة بجانب السرير.. قالت: «صباح الخير»، وجلست قربي فاستويت في سريري واحتضنتها بشوق وحنان.. شذى أنفاسها كأنه من ريح الجنة، سألت (روما): ما هذا العطر الذي تعطّرت به؟ قالت: «لم أضع لها أي عطر لكنها تحممت الآن وجاءت عندك».. نهضت من فراشي برفقتها حين قالت: «قومي نفطر.. ايمتى وصلتي.. الحمد لله على سلامتك» قلت لها: «إيش بدك تفطري يا أحلى أم حنا». قالت: «خير كتير.. تاكلين تين وعنب عنا كتير بالبراد.. هلق موسم التين والعنب.. ايش تريدين نطعميكِ».

بعد أن تناولنا فطورنا بدأت تسألني كما في كل مرة عن زوجي والأولاد وعن إخوتي وسألتني عن حماتي بقولها «تشوفين بسّة.. كيف حالها» وابتسمت ناظرة إلى خادمتها وهي تقول لها: «اسم حماتها بَسّة» أخبرتها أنني زرتها في المشفى قبل مغادرتي السويد.. جوابي هذا أثار انتباهها لتقول «هي مرضانة.. مسكينة بَسّة.. كانت رفيعة كما العود.. كانت قوية وتمشي كتير بسرعة.. ما فيه حدا يلحقها.. أنا أحبها.. الله يشفيها.. أتمنى أشوفها». أحببت منها هذا الجواب.. فهذه هي أخلاقها وطبيعتها تحب الواجب وتحب السؤال عن الأشخاص الذين تعرفهم..

كانت (روما) تواقة لتعرف آخر أخبار (ماريا) لأنها لم تتأخر في السؤال عنها بعد أن أعطيتها الهدايا التي أحضرتها لها فأخبرتها بأنها لم تستلم جواز سفرها حتى الآن وهي تراجع بشأنه يومياً.

فعقبت بقولها: «يمكن تكون غشيمة ما عم تعرف تتصرف.. لازم تروح تدفع مصاري بيعطوها الجواز».

عندما سمعت كلامها هذا ظننت بأنها تريد وصولها فربما قد ملّت من وجودها برفقة والدتي وحين أجبتها إنها ستستلمه قريباً وعندما تأتي سترتاحين أنت وتعودين حيث كنت.

قالت: «لا ماما أنا هون عند ماما أم حنا مبسوطة ولا أقصد أنني أريد ترك الخدمة عندكم» وأسرعت باتجاه أمي قائلة لها: «يالله ماما لازم نروح درس الرياضة»، فألبستها ثيابها وساعدتها بذلك وأخذت بيدها إلى المصعد وأمضت قرابة النصف ساعة تمشي معها على الرصيف.

خلال فترة بعد الظهر بدأ الأصدقاء بالاتصال معي ومنهم من جاء لزيارتي وعند المساء اصطحبتهما إلى السوبر ماركت حيث دخلت والدتي مباشرة إلى البراد فقال لها صاحبه: «وينك هاليومين ما شفناك يا حجة» فأجابته مباشرة: «أين بدي أكون.. في البيت.. أنا اسمي أم حنا.. مو حجة» ضحكنا جميعاً وضحك من سمعها من زبائن المحل.. ثم عدنا إلى البيت حيث قالت: «كل مرة بقول يا حجة يا حجة.. أنا اسمي أم حنا».

بدأت هذه الإجازة منذ صباح اليوم التالي بالمشي الصباحي في ملاعب الجلاء وحولها لمدة ساعة تقريباً وبشكل يومي أعود بعدها للاهتمام بوالدتي، ففي كل يوم شيء جديد بالنسبة لها، فكانت لزيارة الأطباء المشرفين على وضعها الصحي الأولوية في بداية كل إجازة، وما أن أنتهي من هذا الواجب حتى تبدأ مشاوير التسوق والزيارات والاستقبالات مع الأصدقاء وفي وقت الفراغ كنت أقوم بتحضير الطعام.. ومن الحلويات الكاتو والهريسة.

في إحدى الأمسيات كنا نجلس على الشرفة حيث وضعت لها قطعة من الهريسة (النمورة) فقالت لي «سهام.. مو تشوفين هناك عالطريق عساكر

حاملين البارودة.. هدول يحرسونا.. وديلهم نمورة ياكلون.. هدول خطية حرام لازم توديلهم ياكلون».

لم أتمالك نفسي فقمت وقبّلت يدها.. يا الله ما أجمل هذا الطلب.. قلت: «تكرم عينيك أم حنا.. هذا واجب فوراً أمرك يُنفذ» فأكملت «لا توديلهم بالصحن.. وديلهم الصينية كلها» أبكتني عاطفتها هذه، فذهبت مباشرة إلى المطبخ تتبعني (روما) فأعطيتها الصينية بكاملها مع عدد من الملاعق والماء. بعد قليل عادت وهي تحمل ما أخذته وقالت: «رفضوا قبول الصينية ولم يأخذوها مني». يبدو أنهم لم يثقوا بمحتوياتها، خاصة وأن الفتاة التي تحملها لهم ذات لون أسمر لا يخفي جنسيتها الأفريقية، هكذا قدرت الأمر.. قلت لها: «ارجعي لعندهم وأنا سأقف على البلكون».

عادت إليهم وأشارت لهم على شرفة بيتنا.. فقلت لهم «أنا حبيت أبعتلكم ضيافة من عندي» عند ذلك قبلوا ما أرسلته لهم.

في مساء اليوم التالي زارنا بعض الأصدقاء وخلال السهرة والساعة تقارب التاسعة رن جرس البيت فذهبت لأرى من العين الساحرة، وحين أشعلت لمبة الإنارة شعرت بالخوف وتراجعت قليلاً للوراء حين رأيت شخصاً لا أعرفه يرتدي لباساً مموهاً ويحمل بندقية معلقة في كتفه.

أحس ذلك الشخص أنني رأيته لأنه سمع حركتي خلف الباب حينها قام بحركة ذكية حيث رفع الصينية أمام العين الساحرة وهو يفتلها بيده كمقود السيارة. عند ذلك فتحت الباب وأخذتها منه وكانت نظيفة مغسولة بالماء وشكرني على مذاق النمورة الطيب.. كان الأصدقاء يجلسون مع والدتي على الشرفة فعدت إليهم وأخبرتهم بما حصل، لأنه بتلك الفترة كان يوجد تخوف عند الناس من الإشاعات التي كانت تسري عن قيام عصابات السرقة بالسطو على المنازل في بعض الأحياء.

لم يكن طلبها بإرسال النمورة للعناصر حالة طارئة عندها.. ولم يكن وليد صدفة.. إنه موروثها المختمر بداخلها، إنها حين شاهدتهم تذكرت القيم التي نشأت عليها والسلوك الوطني الذي كانت تمارسه وتشارك فيه مع والديها وما سمعته منهما، هذا السلوك الذي أنشأتنا على تبنيه والسير في ركابه منذ نعومة أظفارنا. سألتها: «ماما ليش طلبتي أبعتلهم النمورة؟».

وضعت كلتا يديها على الطاولة الصفراء التي وضعتها على الشرفة تحيط بها كراسيها المختلفة الألوان وأحواض الورد المتفتح فبدت وكأنها تمسك بزهرة كبيرة من النرجس.

يبدو أن سؤالي أتاح لها الفرصة المناسبة لإعطائي درساً في الوطنية.. اعتدلت على كرسيها واتجهت بنظرها إلى العساكر الواقفين على تقاطع الطريق قائلة: «من زمان عندما كان أبوك عسكري كان يجي مأذونية وحين يكون ماشي بالطريق كان الجيران يطلعوا يشوفوه ماشي بالبدلة العسكرية.. كانت البدلة العسكرية شرف لمين يلبسها..» ومرة من المرات مرق بالمالكية طابور طويل من العسكر ولما قعدوا يرتاحوا قال أبوك هدول عسكر سوريين.. يا بنتي وعينك تشوفي الناس.. الجيران.. النسوان.. الختايرة وكل واحد يفوت بيته وياخدلهم شو فيه عندو.. من الأكل والشرب والعقودة والبستيق (ما يعرف بالملبن).. والأولاد الصغار يحملون لهم طاسات يشربون فيها ويلي ما عندو كتير مونة كان يعطيهم كشك ناشف وجوز وزبيب وكل عيلة جابتلهم قدر استطاعتها.. والله يا بنتي هيك ساوينا.. وهلق رأيتو هالعساكر تذكرت شو عملنا من زمان.. يا بنتي نحنا بنكون نايمين في البيت ونترك أبوابنا مفتوحة.. العساكر كانوا يحمونا ويحرسونا هدول ولادنا.. الله يخليهم لأهاليهم.. كل يوم شو تطبخين بعتيلهم.. قوليلهم أم حنا تدعيلكم كتير.. وصيهم حاجي يقوصوا بالليل يخوفوني.. قاطعتها بقولي: «لا بقى تخافي بيكونوا شايفين حرامية

سراقين بيقوصوا بالهوا ويركضوا يكمشوهم» قالت: «إذا كان هيك كويس كتير مليح هيك بنّام مرتاحين».

اعتبرت كلامها هذا درساً حقيقياً رغم بساطة ألفاظها، درساً مهماً من دروس الوطنية والسلوك الوطني، فقد لخصت لي أهمية دور الشعب بشكل عام في الاحتضان وأهمية الحاضنة الشعبية للجيش وأن هذا التلاحم والتكامل بين الجيش والشعب هو بوابة العبور من نصر إلى نصر آخر.

عندما فكرت بإيجاز رحلة والدتي الأخيرة في هذه الحياة.. شعرت بالندم الشديد لأنني لم أسجل لها كافة الأحاديث والحكايات التي كنت أسمعها منها.. ووجدت أن بعض المقاطع التي سجلتها بالصوت والصورة لا تعطيها حقها حتى ولا جزء منه.

كانت هذه الإجازة من بين الإجازات الأطول التي أمضيتها برفقة والدتي وكان هناك متسع من الوقت لأسمع منها المزيد من ماضيها وطفولتها.. كان همي (كما أسلفت أكثر من مرة) هو تنشيط ذاكرتها فكنت أسألها عن أشياء كثيرة وعن مشاعرها وعن تصرفاتها وعن الطريقة التي مرت بها وعن حياتها الأولى بعد زواجها. كل ذلك بقصد تحريض ذاكرتها من خلال استحضار الصور المتعلقة بكل حالة. كانت تجيبني وكأنها تعيش اللحظة فإن أعجزتها العبارة لا تعجزها الحركة والإشارة بيديها وحتى بصوتها عندما يستدعي موضوع حديثها ذلك..

زيارة خاصة لأم حنا

لم تبخل علينا الدكتورة بثينة بزيارتها رغم الظروف الصعبة السائدة فقد زارتنا خلال هذه الإجازة نهار يوم الجمعة ومعها ابنتها نازك وحفيدها الصغير (نجم)، فقد رُزقتُ والدكتورة بحفيدين في وقت متقارب، فابنتي (يلدا) رُزقت بـ (أوليفيا)، ونازك ابنة الدكتورة رزقت بـ (نجم) وكان يبدو قمراً.. أعلمتها أن

(أم حنا) زارت سابقاً كنيسة بيت لحم في القدس وهذه الزيارة بمثابة الحج في الإسلام وحصل معها موقف ظريف.. اقتربت منها وأمسكت بيدها كانت تحبها وسألتها «أن تروي لها هذه القصة عن زيارتها للقدس».

أبدت (أم حنا) الاهتمام بالسؤال وضحكت قبل أن تجيب بأي كلمة.. يبدو أنها استحضرت صور وأحداث الحج الذي شاركت فيه.. أخذت منديلاً من علبة المحارم ومسحت به وجهها وفمها ونحن ننتظر كلامها.. ضحكت ثانية وقالت: «كنت أعيش في السويد وفي يوم من الأيام خبرونا بالكنيسة يلي يحب يروح إلى القدس زيارة لقبر المسيح يسجل اسمه ويدفع مصاري.. أنا قلت: ليش لا.. والله أروح أزور قبر المسيح وأصلي عنده وأطلب لزوجي وأولادي يتوفقوا بحياتهم وأكسب رضى ستنا العدرا تبقى تحميني وتحميهم.. كان عندي شنطة (حقيبة) أحط فيها تيابي أين ما كنت أسافر».

خلال حديثها كانت تتوقف قليلاً لتتناول قطعة فواكه فأطلب منها إكمال الحديث.. كي لا تنسى أين توقفت.. فأكملت قائلة: «هيك بعد جمعة سافرنا إلى القدس وحين نزلنا في المطار وكل واحد أخد الشنطة يلي تخصه.. وقف عسكري يفتش (الشنط) سألني لمين هالشنطة.. قلت شنطتي.. قال مين ضبلك تيابك فيها.. قلتلو أنا ضبيتهم بإيدي.. قرفص عالأرض وكان بدو يفتحها.. قلت له أوعى تفتحها.. أنا أفتحها قدامك». فسألتها ماما ليش منعتِه يفتح الشنطة.. أجابت: «كيف أخليه يفتح الشنطة خفت يحط فيها مخدرات ويتهمني». أضحكنا قولها هذا، فقلت لها: «برافو ماما كملي الحكاية». فقالت: «بعد سألتو قلت.. أنت إسرائيلي.. قال نعم وطلب أعطيه جواز السفر.. قلت له: لا.. لا تحلم أسلمك جواز سفري.. أنا من سورية وأعرف انتو لا تحبونا ولا نحبكم ومو ريد تطبع ختمك عالجواز بعدين يفكروني بسورية داسوسة.. وبعد راح جبلي كرتونة هيك قد الكف وحط

الختم عليها.. كلشي كان معي ضحكو كتير.. بعدين طلعنا من المطار ورحنا زرنا قبر المسيح وصلينا بالكنيسة وشعلت فيها شموع وبخور.. وطلبت من المسيح والعدرا تحمي زوجي وأولادي».

ثم مدت يدها أمامنا وكشفت عن ذراعها قائلة: «شوفي هالدقة بيدي» يدقونها على يد زوار قبر المسيح.. وبعدين رجعنا السويد.. بعدما خلصنا من هالزيارة وهيك صرت «مقسية» بمعنى أنها زارت بيت المقدس.

أعجبت الدكتورة بما سمعته وقالت لها: «والله مانك قليلة يا (أم حنا) برافو أنك تصرفتي هكذا وليس غريباً عليك وعلى جميع أولادك محبتهم لسورية».

عادت والدتي للكلام لتؤكد ما قلته وأخذت تشير بكفها وأصابعها كيف كانت تتصرف تلك اللحظة وقالت: «قال يفتح الشنطة والله مو خليه يفتحها أو ياخدها شو ما كان صار... قلتلو إذا بدك أرجع عالطيارة برجع وما بعطيك جوازي تحط ختمك عليه.. يا أختي ما بنحبهم وما بيحبونا».

سردت قصتها هذه وطغت على وجهها مشاعر الاعتزاز والافتخار بما قامت به حين كانت نبرة صوتها تعكس لنا هذه المشاعر من الأحاسيس.

كررت خلال هذه الإجازة اصطحابها إلى المولات التجارية مرة بقصد الغداء ومرة بقصد العشاء واصطحبتهما إلى الكنيسة في صيدنايا وإلى دير الشيروبيم حيث الهواء النقي والبيئة الصحية وحين كانت تشعر بالملل والضجر أحياناً كانت تطلب أن أعود بها إلى البيت بقولها «بيتنا أطيب شي.. خلينا نرجع البيت خفيف.. ما فيه أحسن من بيتنا».

كبرييل مع وفد المغتربين

أخيراً وصل أخي كبرييل إلى دمشق (ما زاد من فرحة والدتي وسرورها فالآن أصبح معها ولدان من أولادها).. حيث كانت زيارته هذه للمشاركة مع

وفد للمغتربين السوريين في زيارة سورية ومقابلة السيد الرئيس، تغير مزاجها قليلاً فأصبحت أكثر جرأة في طلباتها فكانت تسأله حين يود مغادرة البيت «أين تروح.. لا تتعوق.. لا تمشي بالليل».

كانت أياماً جميلة جداً فلم يخلُ البيت يوماً من الأصدقاء وهذا كان عاملاً مهماً لوالدتي فقد شعرت بحركة الحياة، كنت أحياناً أضع شريطاً لحركات التنحيف الرياضية مع الصوت والصورة لمدة /٤٥/ دقيقة وأقوم بتنفيذها أمامها وكانت تبدو لمن لا يعرفها بأنها حركات راقصة.. كانت تضحك وهي تشاهدني أمامها.. وكثيراً ما قالت: «عجيبة مو تتعبين.. حاجي ترقصين.. أنا اتعبتو عنك اطفيه حاجي تنطي قدامي عوجتيلي رقبتي وأنا أطّلع عليك.. كلو.. هيك وهيك» ومدت ذراعيها وهي جالسة مع التفاتة إلى اليمين واليسار. كانت تريد أن تقلدني فضحكت وأضحكتني.

كل ذلك لم ينسني الاتصالات مع (ماريا) التي تأخرت جداً في استلام جواز سفرها، فأكدت لي أنها ستستلم الجواز في ٢٠١٢/٩/٢٥ وأن دائرة الهجرة أعطتها ورقة مختومة لمراجعتها بهذا التاريخ لتسليمها الجواز.

هكذا اقترب موعد عودتها بحسب ما أخبرتني به هذا ما جعلني أجري مقارنة واقعية بينها وبين (روما)، فوجدت أن الميزة الجيدة التي أعطت (روما) تفوقاً عليها من وجهة نظري: هي حرصها على استخدام المواد التي أشتريها بالشكل الأفضل وعقلانيتها في التصرف بما أتركه بين يديها من نقود وأشياء تحتاجها والدتي.

لمست وفراً في المصروف اليومي والأسبوعي عن الأيام التي كانت تعمل فيها (ماريا) قبل سفرها.. فعلى سبيل المثال كنت ألاحظ بأن (ماريا) عندما كانت تريد أن تأخذ محرمة من يد والدتي فإنها تعمد إلى سحب اثنتين أو

ثلاث من علبة المحارم لتمسك بها المحرمة، وتأخذ عدة محارم لتلتقط ورقة صفراء سقطت من إحدى نباتات الزينة داخل الصالون.

قد يلفت كلامي هذا نظر البعض ليقول: «والدتك تعاني المرض وتحتاج للرعاية والاهتمام فمن غير المعقول التوقف عند هذا الأمر». فلو أن من يقول ذلك يعلم أنني ذكرت ما ذكرته على سبيل المثال فقط وما خفي أعظم.. لعذرني وهذا المثال أثاره ولفت نظري إليه بعض السيدات اللواتي جئن في زيارة لوالدتي.. بل دفع ببعضهن ليقلن لي «ليس لنا مصلحة بأن تشاهد أي خادمة عندنا ما تتصرف به عندكم».

اهتمامي الزائد هذا دفع (روما) لتسألني: «ماما أتمنى أعرف ليش مهتمة فيها لترجع لعندك.. أنا فيني ابقى سنة عندك». كررت هذا الكلام أكثر من مرة.. فكنت أوضح لها الأمر وأجاملها بحيث تبقى على ثقتها بأنني لن أتخلى عنها إذا أحبت البقاء وأنني لا أستطيع أن أطلب منها عدم العودة طالما هي متمسكة بها.

السيد الرئيس يستقبل وفد المغتربين

غالباً ما كانت تتم هذه الأحاديث في غياب كبرييل الذي كان منشغلاً بالاتصال واستقبال أعضاء الوفد الذي اكتمل عقده في ٢٠١٢/٩/١٨، وعلمت أنهم على موعد لمقابلة السيد الرئيس بتاريخ ٢٠١٢/٩/٢٠، وباعتباري مغتربة في السويد ومتواجدة بدمشق فقد أبديت رغبتي في المشاركة بهذا الوفد، وهذا ما تحقق لي حيث تشرفت وبقية أعضاء الوفد بمقابلة سيادته.. مازالت ابتسامته التي سبقت يده لمصافحتنا في ذاكرتي.. أدركت حين تحدث إلينا لماذا هو محل حسد وغيرة بعض من يسمون أنفسهم بملوك وأمراء وأولئك الذين يسميهم الإعلام رؤساء لبعض الدول التي أشهرت سيف العداء له بشكل شخصي ولسورية بشكل عام، والتي جاءت على خلفيات تاريخية وحضارية، فهم حاقدون على تاريخ سورية وحضارة شعبها حاقدون على ماضيها المجيد وتراثها..

تحدث عن أبعاد المؤامرة التي تستهدف سورية بكل وضوح وصراحة.. لمست مدى ثقته بشعبه وإيمانه بوطنه وصلابته في مواجهة الإرهاب.

استمع لأعضاء الوفد بكل هدوء واهتمام وجدية وأشعر كل من تحدث بأهمية حديثه.. أعطانا من وقته ما سمح لنا أن نقول ما نريد قوله. خرج جميع أعضاء الوفد من اللقاء بانطباع واحد وقناعة تامة بأن السيد الرئيس لا هدف له سوى توفير الأمن والطمأنينة والسلام لسورية بشعبها وجغرافيتها.

سألتني والدتي عندما رجعت إلى البيت عن الرئيس بقولها: «سلمتي على الرئيس.. كيف صحته.. إن شاء الله بخير.. أنا كتير أحبه.. قلتي له (أم حنا) تسلم عليك.. أنا أصلي للرب يحميه..». حدثتها عن اللقاء وبأن الرئيس يحب الناس ويحب سورية وهو يعرف بأن هدف ما يحصل فيها هو تخريب جميع المنجزات التي حققها شعبها منذ استقلالها وطمس هويتها الإنسانية.

القربـان..

كانت أحاديث السهرة التي أمضيناها مع الأصدقاء ذلك المساء حول هذا اللقاء قلت لوالدتي: «ما رأيك أن نذهب إلى مشتى الحلو لتمضية عدة أيام فيها ونقدم القربان الذي نذرناه فداء عن سورية»، أجابتني: «يلي تشوفيه.. نروح نزور السيدة.. ونصلي في كنيستها».

توجهنا صباحاً إلى مشتى الحلو.. لم نتوقف خلال الطريق أبداً حيث كنت ألاحظ بأن السيارة تسلك الطريق بسرعات عالية، وخاصة قرب النبك وقارة ومنطقة حسياء وتحويلة حمص طرطوس خوفاً من أعمال القنص التي كانت تحصل بين الحين والآخر على هذه المقاطع من الطريق.

وصلنا إلى بيت المشتى بعد ثلاث ساعات تقريباً حيث كان (أبو إبراهيم) وعائلته في انتظارنا.. كانت والدتي متعبة بعض الشيء.. بينما (روما) في

غاية السعادة، فهي المرة الأولى التي يتاح لها فيها مشاهدة الجبال الساحلية المغطاة بخضرة الأشجار، أبهرها المكان، وتمنت لو أننا نبقى في بيت المشتى لنهاية العام.

بعدما استراحت والدتي لمدة ساعة تقريباً بدأت تتفقد غرف البيت ووقفت على الشرفة المشرفة على وادٍ تملؤه الأشجار الحرشية منها والمثمرة.. فتبدو كنهر من الخضرة ينساب مع انسياب النهر الذي يظهر حيناً ويختفي حيناً آخر تحت الظلال..فكانت أي بقعةٍ صغيرة تظهرُ من مائهِ عند تمايل أشجارهِ حين يلاعبها هواء واديه النقي كمرآة صقيلة لامستها أشعة شمس الغروب، تبدو كأنها انعكاس النجوم البعيدة على صفحة السماء تحجبها الغيوم حيناً وتظهرها حيناً آخر.

شدني هذا المنظر الشاعري فصممت على اصطحاب والدتي في جولة بجوار تلك المناظر خلال الأيام التي نمضيها في مشتى الحلو من إجازتي التي انتصف عمرها تلك الأيام.

خلال تفقدها غرف البيت واختيارها الغرفة التي ستنام فيها أعجبتها غرفة النوم الثالثة التي تم طلاؤها بلونٍ جميل من مشتقات لون البنفسج، وهكذا كانت ألوان أغطية سريرها التي اخترتها بعناية حين اكتشفت أنها تحب هذا اللون وذلك عندما ساعدتها أثناء الإجازة السابقة بارتداء كنزة خريفية خفيفة أحضرتها معي من السويد، فقد فرحت بها وقالت وهي تتلمسها وتنظر إليها: «شو هاللون الحلو يا سهام.. ايش طيب وكويّس.. أنا أحبه.. من زمان كتير أبوك – الله يرحمه – كان عنده قميص من اللون نفسه وكان يحبه ويلبسه تحت الجاكيت لما يريد يروح مشوار أو يروح زيارة».

هذا الوصف شجعني أن أهيئ لها غرفة نومها وأغطيتها وبعض ثيابها لتكتمل اللوحة حين تدخل إليها، وهذا ما حصلت عليه عندما جلست على

سريرها وهي تقول: «سهام.. خليني هون.. عجبتني هالغرفة كتير واسعة.. قدامها الحمام.. وتفوتها الشمس.. شو بدي أحسن من هيك الله يعطيك العافية.. ايمتا دهنتيها هيك.. حلوة كتير.. أنا مبسوطة فيها». قبلت يديها قائلة: «ماما مش هالغرفة وحدها تنامي فيها.. البيت كله لك.. كل يوم تنامي بغرفة أين ما يعجبك تنامين.. أهم شيء عندي سعادتك ورضاكِ».

اتجهت منها إلى المطبخ المفتوح على الصالون المتصل بشرفة البيت بباب زجاجي عريض فهو أشبه بباب غرفة نومها ببيت الشام المتصل بشرفته بالطريقة نفسها لكن ما يميزه عنه هو وجود طاولة الطعام قربه.

أوقفها قرب الطاولة هذه منظر صحن دائري كبير مليء بثمار التين المختلف الألوان والأنواع والأحجام، وصل إلى مكانه هذا بجهد الرجل الطيب (أبو يامن) –كما علمت– وصل نظرها إليه قبل يدها التي قصرت عن الوصول إليه رغم محاولتها فالطاولة كبيرة وهو يتوسطها.

قالت: «ناوليني شموط من هالصحن الحلو.. من أين جبتيه.. أنا أحب التين.. كنا نساوي مونة لأيام البرد..». استمعت إليها وأصغيت لما تقوله باهتمام فشعرت أنني بحاجة لما تقوله فوجدت في ذلك على ما يبدو أنها مناسبة لإعطائي درساً لأستفيد منه في حياتي كصاحبة بيت تحتاج للاحتفاظ بمؤونة الشتاء.. وذلك من خلال قولها: «شوفي ايش تعملين حتى يبقى عندك أيام البرد.. لما يكون أخضر متل يلي بالصحن.. تحطيه على طبق قش وتكبسيه شوي بكعب الفنجان أو بإيدك.. بعدين.. تتركيه بالشمس وتغطيه بقماش أبيض ناعم وحين ينشف تشكّيه بالإبرة الكبيرة والخيط وتعمليه كما العقد وتعلقيه على الحيط.. والمهم يكون بمحل ناشف ما يصيبه رطوبة.. هيك كنا نعمل أيام زمان.. وكنا بأيام البرد والتلج نجيب عقد التين ومعه نكسر الجوز وناكل ونطعمي الأولاد.. وحين كان رجال الضيعة يشتغلون بالأرض أو يسافرون محل بعيد كان كل واحد ياخد معه عقد التين زوادة».

كلامها هذا أثار فضول (روما) فبدأت تسألها عن كل نوع بصحن التين بحسب لونه.

خلال حديثها عن طريقة تحضير عقود التين لم أعطها من الصحن ولا شموط تين حتى لا أقطع عليها الكلام، وتركتها تتحدث حتى أتمت ما أرادت قوله في هذا الدرس التعليمي، وقد لمت نفسي لأنني لم أضع الصحن قريباً منها لأنها كانت تلتفت مرة نحوي ومرة نحو الصحن.

ساعدتها بالجلوس على الكرسي ووضعت ثمار التين أمامها وبدأت تأكل منهم دون تقشير.. سألتها: «تريدين أن أقشر لك الشموط»؟ فجاوبتني وهي تقسم واحداً وتنظر لداخله بشهية قائلة: «شوفيه متل العسل.. حرام أقشره إذا بدك ناوليني رغيف خبز.. التين طيب مع الخبز كتير.. واقعدي كلي معي». نظرت إلى (روما) قائلة: «ليش مو تاكلين» وأعطتها شموط بيدها وقالت لها: «اقعدي جنبي كلي». ضحكت وهي تمد يدها إلى الصحن وتناولت شموط أسود اللون قائلة: «ماما كل واحد ياكل الشموط يلي يشبهه». ضحكنا جميعاً معها.. أدركت حينها أنها أرادت إظهار شيء من المرح على الحديث، فقلت لها: «والله مانك هينة وين مخباية هالشطارة عني».

حين جلست على الكرسي المقابل لهما وبيدي رغيف الخبز مدت يدها باتجاهي فقسمته بينهما.

كانت تضع نصف الشموط بقطعة الخبز وتأكلها كما لو أنها سندويشة بيدها، لفت نظرها أنني أراقب طريقة أكلها فقالت: «كلي متلي.. هيك بالخبزة» وقسمت الشموط لنصفين وضعتهما طولياً بجانب بعضهما وطوت عليها قطعة الخبز وأعطتني إياها فأخذتها وأكلتها. للحقيقة كانت طيبة المذاق.

عندما شاهدتني أتناولها قالت: «اسمعي إيش أحكيلك قصة كانوا يحكونها من زمان في بيت جدك ويضحكون كلهم لما يسمعوها».. قلت: «تفضلي يا أحلى أم حنا نسمع منك»، وقمت لأحضر لها كأس الماء وناولته

لها.. أخذته من يدي قائلة: «مو تعرفين تقعدين لما الواحد يريد يحكي كلمة». هذه الملاحظة أضفتها مباشرة إلى قائمة الملاحظات التي أحتفظ بها في ذهني ويجب تلافيها والابتعاد عنها من قبل الأشخاص الذين يتعاملون مع مريض الزهايمر، توجهت إليها مباشرة وقبلت وجهها ويدها واعتذرت لها قائلة: «ماما أنا كتير آسفة مش قصدي عدم سماعك.. قصدي أعطيك كاسة الماء تشربين لأن التين حلو».

الكرم أكرم من صاحبه

وأخذت شموط التين من يدها وقسمته -كما تفعل هي- داخل قطعة الخبز وأعطيته لها، تناولته من يدي وقالت: «كان شخص فقير كتير ما عندو أكل بالبيت زيادة وكان بخيل مو يحب يطعمي حدا من مونة البيت.. وكان عنده كرم تين كبير وبعيد عن البيت.. وكانت الأيام أيام صيفية وهو قاعد بالبيت شاف خمسة من رفقاتو جايين لعنده.. ورفقاته غريبين عن الضيعة من ضيعة بعيدة.. قام استقبلهم وقال لنفسه.. هلق إذا أحطلهم أكل.. بدهم ياكلوا كتير وكل مونة البيت مو تكفيهم.. وبعد ما قعدوا شوي نادى على ابنه وقال.. روح مع عمك أبو جورج لكرم التين وبعد شوي ألحقكم.. أنا بدي روح اشتري خاروف أدبحه منشان عمك أبو جورج وضيوفنا يتغدون عنا.. ومشي جنب ابنه شوي وقلو من غير ما يسمعوه.. اسمع شو بقلك وأوعى تنسى وتخالفني قلو ابنو.. على عيني أبوي ايش تأمر بيصير.. قلو.. هدول جوعانين ولما تفوتوا كرم التين اتركهم وروح بعيد عنهم تعمل حالك عم تقطف التينة وخليك بعيد عنهم ولما بتشوفهم بلشوا يقشروا الشموط.. قشر متلهم.. ولما تشوفهم يقسموا الشموط ويرموه عالأرض ويقطفوا غيره بتتركهم شوي وبعدين بتقلهم والله أبوي تأخر يمكن مشغول بالخاروف خلونا نرجع البيت وإذا كان بالطريق بيرجع معنا».

وضحكت كثيراً وكأنها تشاهد المنظر الذي تحدثت عنه.. فقلت لها: «وبعدين شو صار»؟ فأكملت: «بعدين قلهم متل ما وصاه أبوه ولما شافهم يقشرون الشموط ويقسموه ويرموه عالأرض قال: شو رأيك عمي أبو جورج نرجع البيت فقال له: أبوك يمكن بالطريق لعندنا.. قال له: بيرجع معنا.. وهيك رجعوا للبيت.. ولما وصلوا قلهم لا تآخذوني بكل الضيعة ما لقيت خاروف اشتريه وأنا خجلان منكم ورحب بهم أحسن ترحيب وقلهم لا يهمكم.. بيت السبع مو يخلى من العضام.. عندي طبخة برغل من مبارح مطبوخة مع عضام الجدي وعمل حالو بدو يشعل النار حتى يسخن الدست يلي فيه طبخة البرغل الكبيرة.. فوقف أبو جورج ورفقاتو وحلفوا مو ياكلون شي أبداً وصاروا يشكروه ويقولون.. نحنا نعرفك مو جايين نجربك.. انت قدها وأزود..

وطلبوا يشربوا ليطفوا عطشهم فشرب كل واحد منهم قدر سطل ماء.. وأعقبت قولها هذا بضحكة.. أضحكتنا.. قلت لها: «القصة كتير حلوة». أجابت: «مو تسمعين المتل يقول «الكرم أكرم من صاحبو» بس هون الرجال طلع شاطر خلص نفسه وما دبح الخاروف.

أدهشتني بطريقة سردها وتفاعلها مع أحداث قصتها القصيرة هذه التي تحمل مدلولاً طريفاً باعتباره تناول مفهوم الشبع عند الإنسان.. فقلت لها: «ماما لما أشوفك تقشرين نروح المطعم». تبسمت لكلامي وقالت: «اكتفيتو حاجي.. حطيهم بالبراد أحسن».

أمضينا عدة ساعات في البيت كانت الكهرباء غير منتظمة فكثيراً ما كانت ساعات الانقطاع مزعجة بالنسبة لها باعتبارها طالبتني أكثر من مرة بفتح التلفزيون لتشاهد مسلسلاً كانت تتابعه.

اصطحبتهما إلى قمة جبل السيدة حيث أدينا الصلاة في كنيستها كما هو الحال في كل إجازة أقضيها في تلك المنطقة.

وكثيراً ما ذهبت مشياً من البيت إلى قمة الجبل.. أحياناً بمفردي.. وأحياناً برفقة صديقتي بالرغم من تنبيه (أبو إبراهيم) بعدم الذهاب بمفردي خشية أي طارئ قد أواجهه، وبخاصة الكلاب الشاردة أو أن يتعرض لي خلال الطريق أحد الغرباء المتواجدين في المنطقة ممن توافدوا إليها حديثاً.

قمة سعادتي كانت عندما كنت أراها تمشي دون مساعدة وهذا ما كان يدفعني مساء كل يوم إلى السير برفقتها على الرصيف الجميل أو ما يسمونه هناك بـ(الكورنيش) الممتد بين الساحة والمنتجع، حيث الهواء النقي والمناظر الطبيعية الخلابة.

كانت تنظر إلى الشباب والصبايا والأطفال من حولها وتقول: «الله يعمر هالبلد الطيب.. الله يحمي سورية.. شو طيبة.. سورية يا بنتي بلد الفقير.. مو يجوع فيها حدا».

هذه هي ثقافتها التي ورثتها.. ثقافة المحبة والسلام.. ثقافة حب الإنسان واحترامه.. ثقافة التعايش مع جميع البشر وقبولهم كإخوة في رحلة الحياة.

بعد أن أنهينا ما علينا من واجبات داخل وخارج الكنيسة.. أمضينا بعض الوقت نشرب الشاي فوق تلك القمة الهادئة الشبيهة بقرص دائري الشكل تزينها شجيرات السنديان والبطم، حيث لفت نظر والدتي شجرة بطم قديمة كانت أغصانها ضعيفة تكاد تسقط عنها بينما جذعها متشبث بقمة الجبل فتبدو كعرف طائر الهدهد.. وقفت بجانبها ولامست بيدها المرتعشة جذعها وخاطبتها قائلة: «أنا وأنت صرنا عجايز.. انت رفيقتي لو كنتِ أعمر مني.. أنت وحدك هون متلي أنا بالشام.. أين شخودك (أغصانك) أين راحو.. ليس مو (يفيّو) عليكي (يظللوا).. ».

كانت تتلفظ بهذه الكلمات وهي تنظر إلى الأعلى لترى بقية أغصانها فجذعها قوي ثابت الجذور متمسك بتربة الجبل.

عندما شاهدتنا نستمع إليها أكملت بقولها: «هيك يا رفيقتي حال الدنيا نبقى متمسكين فيها حتى يجي وقت نبقى لحالنا.. لا تزعلي خليك هون عند الكنيسة يمكن تشوفيني السنة الجاي ويمكن آخر مرة أشوفك وتشوفيني فيها.. تبقى تذكريني.. هلق خاطرك يا رفيقتي».

استمع لكلماتها الشباب الصغار والكبار الموجودون وكانوا ما بين مبتسمٍ ومتعجب.. أما أنا فقد خذلتني أعصابي فلم أعد قادرة على استماع المزيد مما كانت تتلفظ به، فتنحيت جانباً فقد غلبني النحيب ووصل صوت بكائي إلى سمع الموجودين حيث قال أحدهم: «اتركوها لا حدا يروح عندها»، فقد أدركت جيداً وفهمت بدقة معنى ما قالته وما تلفظت به، فقلت في نفسي: «حتى وإن لم تكن تقصد ما تقوله وحتى لو كانت لا تدرك بأن ما تقوله رسالة خطيرة فيها من التقريع والتأنيب ما هو أصعب من جلد السياط.. فقد أنطقها الرب ما نطقت به لأفهمه أنا وأنقله لغيري من إخوتي وأقاربي وأصدقائي، وهأنا أعتبر نفسي بأنني أديت هذه الأمانة من خلال تدوينها بالطريقة التي سمعتها».

كان بعض الشباب الموجودين يشربون السجائر بعيداً عنها وبعضهم يمسك بكأس الشاي يشرب منه حيناً ويكمل سيجارته بعدها.

سمعت (أبو إبراهيم) يقول: «ياالله.. لازم ننزل عن الجبل طلع الهوى والغيم ملأ الجو».. لم نكد نصل إلى السيارة حتى بللنا المطر.. فقلت لها: «شوفي هالمطر شو طيب». فأجابت: «نشكر الرب». وصلبت بيدها «المطر نعمة ورحمة الرب عليا والمطر عم يقول.. قربانكم مقبول».

أمضيت تلك الأيام بغاية السعادة برفقتها لم تنسَ أبداً أنني وعدتها بدمشق أن نوفي ما نذرته فداء لسورية، عندما قالت: «سهام ايمتا نعمل القربان.. أين الخاروف.. مين يساعدنا.. أين نروح نشتريه.. تحملين مصاري يقدينا.. لازم نوزع ونطعمي الفقاري (الفقراء).. الرب يقبل منا والعدرا تساعدنا وتبعتلنا ولاد الحلال..». كانت في كل مرة تتكلم فيها بهذه العاطفة الصادقة (تبكيني) وتفرحني بالوقت نفسه.

اتصلت مع (أبو إبراهيم) الذي لم يتركنا خلال زيارتنا هذه إلا لعمل يقضيه من أجلنا، وطلبت منه شراء الخاروف لنقدمه قرباناً عن سورية وعن والدتي عسى ربنا أن يساعدهما ويخلصهما من محنتيهما- محنة الإرهاب ومحنة الزهايمر-.

اتفقنا أن نقدم قرباننا صباحاً.. أجابني: «ما عليك سوى أن تأخذيها بالسيارة صباح الغد إلى قمة الجبل ونلتقي أمام الكنيسة وأنا سأتولى الباقي ولا تهتمي لشيء آخر».

مساء ذلك اليوم قالت لي والدتي بعد العشاء: «سهام.. لازم نقوم ننام حتى نقوم الصبح نتحمم ونروح الكنيسة فوق الجبل». أثار قولها هذا أسئلة (روما)، فسألتني الكثير عن معنى القربان وحدثتني عن عاداتهم في أثيوبيا في تقديم النذور.. ثم خلدنا للنوم بعد الاستماع لنشرة الأخبار التي لم أكملها بسبب انقطاع الكهرباء.

استيقظنا باكراً صباح اليوم التالي حيث توليت مساعدة والدتي في الاستحمام وانطلقت بهما إلى قمة الجبل بحدود الثامنة صباحاً.

وجدت (أبو إبراهيم) وعدداً من الشباب وبعض أولاد أخيه (أبو يامن) بانتظارنا فلم يتأخروا في التوجه إلى جانب السيارة الأمامي حيث تجلس والدتي بجانبي، وساعدوها في النزول منها ومضينا معاً لداخل الكنيسة فأدينا الصلاة فيها وأشعلنا عدداً من الشموع لسورية وطلبت الراحة والسلام لروح والدي وأخي نبيل..

في هذا الوقت تولى (أبو إبراهيم) وشخص آخر (ذبح الخاروف) أمام مدخل الكنيسة، وقاما بتعليقه وتقسيمه حصصاً متساوية تقريباً بأكياس أحضرها خصيصاً لأجل هذا العمل، وكتبت عليها أسماء العائلات الفقيرة التي سيرسلها لهم وكلّف ثلاثة من الشباب الموجودين بتوزيع تلك الحصص..

أشعل بعض الموجودين الفحم بمكان قريب وتم شواء كمية من لحم الخاروف كانت رائحة الشواء أشبه برائحة البخور.

عندما استنشقت والدتي هذه الرائحة قالت: «الله يقبل قرباننا.. شو طيبة هالريحة مثل البخور». وعندما مضغت قطعة من اللحم المشوي قالت: «طعمها متل المسك.. شو طيبة.. الرب يقبل منا القربان».

أضفى هطل المطر جواً ساحراً على المكان لتبدأ بينه وبين أوراق السنديان وشوشة تتشنف الآذان لسماعها.. توجهنا مباشرة إلى مطعم البانوراما حيث اقترب موعد الغداء وجلسنا نستمع إلى الموسيقى والأغاني الهادئة وتناولنا الماء والعصير بانتظار الغداء. وما هي إلا نصف ساعة حتى امتلأت كراسي المطعم بالزبائن وارتفع صوت الموسيقى قليلاً، وما أن بدأ عمال المطعم بإحضار أطباق الطعام للزبائن حتى بدأ المطرب بالغناء، ومع مرور الوقت بدأ يغني الأغاني الشعبية لتبدأ حلقات الدبكة حول الطاولات وبمكان وقوفه..

بدت ملامح الفرح والارتياح على وجه والدتي فبدأت تصفق ونحن معها عند انتهاء كل أغنية، وتصفق لبعض الشباب والصبايا الذين يمسكون بأيدي بعضهم عند اقترابهم من مكان جلوسنا.. فسألتها إن كانت تشعر بالارتياح ولا يزعجها الصوت؟ قالت: «كتير أنا مرتاحة.. ايش كويسين.. يابو المتل بيقول.. يوم الفرح لا تتركه.. يوم الحزن تلحق عليه».

بهذا الجو من الفرح تناولنا غداءنا (وكان اللحم المشوي لوجبة الغداء من قربانها).. طلبت منها أن تروي لنا شيئاً من الماضي حين كانت صغيرة، وفي كل مرة أطلب منها ذلك أختم سؤالي بعبارة «عندما كنت صغيرة». ضحكت وقالت: «الصغير مو يبقى صغير.. صحيح أنا قصيرة يابو بس صرت كبيرة». فضحكنا جميعاً وعندما أرادت أن تبدأ بالحديث ارتفع صوت الموسيقى مع صوت المطرب، فتوقفت عن الكلام وقالت: «احكيلك لما نوصل البيت.. خلينا

هلق هون شوي.. شو طيب الجو.. الدنيا شتي حولنا.. والناس يدبكون قدامنا» فكان عندها خلال هذا الغداء لكل سؤال جواب.

لم أرغب أن أشوش على حالة النشوة هذه وهذا التحفز الذهني وإنما أحببت أن أستغل الفرصة لسماع المزيد من كلامها وحديثها.

وقد لفت نشاطها الذهني هذا انتباه الحضور وبخاصة (روما) التي قالت: «ماما أنا شايفة الماما أم حنا عم تحكي كتير شغلات حلوة.. بالشام ما بتحكي هيك.. يمكن الجو بالمشتى ناسبها أكثر من جو الشام».

فأوضحت لها بأنها تكون كما تشاهدينها الآن عندما يكون الجو والمحيط الذي تعيش فيه على هذا الشكل من البساطة والفرح، وتحتاج دائماً أن ترى الناس وتكلمهم وتشعر بمحبة المحيطين بها من الجيران والأصدقاء وباحترام واهتمام من يعيش معها بالبيت نفسه .. فعقبت على كلامي ظناً منها أنني قصدتها فيما قلته قائلة: «والله والله.. أنا كتير أحبها وأحكي معها كتير.. وأشغل شريط عرس مليسيا وعرس يلدا وتصير تصفق وتغني لما تسمعهم».

أمضينا حوالي ثلاث ساعات وعند مغادرتنا المطعم المتصل بابه بالرصيف مباشرة قالت والدتي «خلينا نمشي شوي.. شوفي شو الأرض نضيفة.. وريحة التراب إيش طيبة بعد الشتي.. هاتيلي العربية من السيارة أمشي شوي بعد هالغدا الطيب».

لم ينتظرني (أبو إبراهيم) عند سماعه هذا الكلام فأحضر لها رفيقة مشاويرها كافة.. أمسكت بمقبضيها.. دفعتها أمامها ومشينا خلفها كانت تتوقف أحياناً وتنظر خلفها وكأنها كانت تريد أن نصفق لها.. فهي قد أنجزت عملاً تعرف بأنه يسرني فكنت أقول لها «برافو أم حنا.. برافو.. كمان امشي شوي».

استمرينا بالمشي على هذا المنوال حتى وصلنا إلى المفرق المؤدي إلى البيت وهنا ساعدناها بالصعود إلى السيارة.. وخلال دقيقتين تماماً وصلنا البيت..

لم تتأخر أبداً بالتوجه إلى الحمام وطلبت فرشاة الأسنان فقدمتها لها مع المعجون وساعدتها في تنظيف أسنانها وساعدتها في ارتداء قميص نومها لتتجه مباشرة إلى سريرها، وهي تقول: «أحسن من البيت ما فيه بالدنيا..» أين يروح الإنسان مرجوعه لبيته.. يعمر بيتك يا سهام شو تتعبين معي.. قلت لها: «ماما مو يغلى عليك شي.. هذا كله من خير الله ومن رضاك عني ودعواتك».

عندما تمددتُ على الكنبة المشرفة من موقعها بالصالون على السفوح المقابلة المكتسية بالأشجار دائمة الخضرة أتأمل وأفكر وأستنشق الهواء الغربي النظيف غلب النعاس يقظتي فبقيت نائمة حتى أيقظتني والدتي.. نظرت إلى ساعة الحائط التي اشتريتها من السويد (أجزاء متفرقة) وتوليت تركيبها بنفسي.. كانت تشير إلى السابعة مساءً أي أنني نمت لأكثر من ساعتين وكذلك والدتي التي قالت حين أيقظتني: «سهام.. سهام.. قومي.. حاجتك نوم اليوم.. قومي نحكي شوي.. أريد تقومي تاكلين معي عنب وتفاح».

ضحكت (روما) وأخبرتني بأنها أيقظتها هي الأخرى وطلبت منها أن تجلب لها العنب والتفاح من البراد وتضعها على الطاولة، وأنها قالت: «هلق نصحي سهام تاكل منهم.. هي تحبهم».

أعادتني ذاكرتي إلى مرحلة التعليم الابتدائي حين كانت تستيقظ مع بزوغ الفجر فتنجز كافة أعمال البيت قبل أن أصحو من نومي، وتحضر إفطارنا ثم توقظنا لتناوله وتعطيني بعض فصول الجوز وقطعتي بستيق كانت تلفها بمنديل نظيف تضعه في حقيبتي وتقول:

«ابقي كليهم بالفرصة التانية.. تكوني جعتي.. لا تاكليهم أول فرصة.. بعدين تجوعين».

أثناء تناولنا العنب والتفاح كانت تقول لـ(روما):

«كلي يا بنتي.. أنا أحبك.. أنت كويسة تحترميني وتغسليني وتطعميني.. كلي لتبقي قوية تساعديني.. بكرا تسافر سهام وأبقى أنا وأنت لحالنا.. انت متل بنتي».

فرحت بهذا الكلام والإطراء واعتبرته شهادة تقدير لتعبها وخدمتها فقلت لها عندما سمعت من والدتي هذا الكلام:

«كرمال هالكلام يلي قالته أمي.. سوف أزيد لك راتبك خمسين دولاراً اعتباراً من أول الشهر».

هذا ما زاد من فرحتها فسألتني: «وإذا جاءت ماريا شو أعمل». أجبتها: «إذا أنت أحببت البقاء معها.. أنا لا أمانع وهذا الأمر متروك لك وإذا لم ترغبي فسأعطيك رواتبك مباشرة مع الزيادة التي وعدتك بها الآن».

ثم طلبت من والدتي أن تحدثنا بما طلبته منها أثناء الغداء في المطعم.. تذكرت هي بدورها وهذا ما تأكد لي حين قالت: «هون فينا نحكي.. هون بالبيت أحسن.. نسمع بعضنا.. ما فيه طبل وزمر» أضحكنا كلامها هذا.

من حكايا أم حنا القديمة

فقلت لها: «والله يا أم حنا معك حق.. هاتي لنشوف.. احكيلنا ليش جدي يعقوب (أبوها) كان يحبك ويغنجك أكتر من أخواتك».

ضحكت وقالت: «كان معه حق.. كنت استاهل يحبني ويغنجني متلي متل أخواتي كلهم.. كان يحبنا كلنا.. أنا كنت أبقى أروح أين يروح أساعده بالأرض وأشتغل متل الشباب». وتابعت بقولها: «جدك (يعقوب) كان يحب الأرض كتير.. كان شاطر يزرعها قمح وشعير ودوار الشمس والعريش (العنب).. مو يخلي صنف يزرعه الناس إلا ويزرع منه...

وكان دارنا واسع وفيه عندنا خيول وبقر وغنم وماعز وطيور حمام ودجاج وحبش.. ما كان ينقصنا شي وكنا نزرع الحبق والعطر وشب الليل

وكان يحب يزرع وردة اسمها وردة السرايا (المحكمة) ولما كان يطلع زهرها.. سبحان الله.. تفتح الصبح وتغمض بعد الضهر.. متل دوام السرايا وكنا نزرع الورد الجوري في حوش الدار وقدام الباب. وكان قدام كل بيت يزرعون شوي من دوار الشمس والدرا الصفرا. وعند مدخل الباب تشوفين الياسمين والورد الجوري شي أحمر وشي أبيض وشي أصفر ونقوم نسقيهم الصبح، وبعد الضهر لما نرجع من الأرض كل عيلة ترش الماء أمام دارها وتكنس (تنظف) الطريق ويقعدوا عند المساء يشربون الشاي ويتحاكون مع بعضهم..

إيش كانت أيام طيبة كل الخلق كانوا يحبون بعضهم ويحترمون بعضهم وكانت الشباب والصبايا متل الإخوة ولا شب تزيغ عينو (ينظر بريبة) لأي بنت بنية عاطلة كان بيتبهدل هو وأهله..

قطعت كلامها وطلبت مني كأس ماء فناولتها لها مباشرة بينما ناولتها (روما) محرمة مسحت بها فمها بعد أن شربت الماء.. وقلت «كملي ماما.. كتير حلو كلامك» فقالت: «الشكر للرب عطانا هالنعمة (تقصد الماء)».

وكان عند جدك خيول أصيلة.. حصانين وفرسين وحمارة ولما يريد يروح يشتغل بالأرض ناخدهم معنا كانوا متل السيارة.. أين ما نريد نروح كل واحد يركب على حصان أو يركب على فرس.. وكل حصان وفرس كنا نسميه اسم».

قاطعتها بسؤالي «ماما شو كان اسم حصانك؟» أضحكها سؤالي ومدت يديها إلى الأمام لتريحهما على الطاولة وتشبك أصابع كفيها خلف كأس الماء.. وحركت جسدها يميناً وشمالاً لترتاح في جلوسها على الكنبة وأكملت: «يابو جايتك بالحكي مو تصبرين أحكيلك!!».

أم حنا والفرس (سعدى)

كنت هيك زغيرونة لما خلفت الفرس يلي كانت لجدك خلفت فرس متلي زغيرونة وسميناها «سعدى».. كبرت أنا و(سعدى) سوى وصرنا متل الرفقة وكنت كتير دير بالي عليها.. أغسلها.. وأمشطها.. وأطعميها وأسقيها.. كانت

تحبني كتير وأنا أحبها.. وبعد كم سنة كبرت (سعدى) أكتر مني.. قلي جدك ديري بالك لا تحاولي تركبين عليها بتوقعك وتموتين.. لما يجي الحصاد بنكبّسها (ترويضها) حتى تقبل تركبين عليها.. قال هيك كلام لأنو شافني عم حاول اطلع عضهرها.. أنا ما رديت عليه.. وبالخفي عنو كل ما يروح من البيت أفوت عند (سعدى) وأعطيها أكل وشعير وأطعميها تين وبستيق وكنت جيب تنكه حطها بجنبها واطلع عضهرها.. أقوم اتزحلط (ترتمي وتتزلق) وأقع للميلة التانية.. ولما أقع على الأرض كانت تميل عني وتبعد اجريها حتى ما تدعسني.. بعدين قوم وأبرم خلفها وارجع تاني مرة وكل مرة كنت اتزحلط لأنو شعرها كان ناعم كتير وما فيه شي أمسك فيه عليها..

كنت كل يوم أكرر هالشغلة حتى زبطت معي وبقيت على ضهرا شوي وصرت لاعبها بشعرات رقبتها.. كانوا طوال وحلوين كتير.. وكان معي بجيبة التنوره شوية تين يابس.. شلت حبتين منهم ومديتلها ايدي لتاكلهم ولما لفتت راسها صوبي زحطت عرقبتها ووقعت قدامها.. ما وجعني شي وأنا هيك قدامها رفعت ايدي بالتينات قامت أكلتهم.. بعدين قمت وصرت أبوسها وهي تهز برأسها وتحطو عكتفي وتحف وجها بوجهي.. وتعمل هيك..

استوقفتها عن الكلام وطلبت منها أن تعيد الحركة وكيف كانت تحف وجهها بوجهها فمالت رأسها إلى جهة اليمين مع تحريكه للأعلى والأسفل.. أذهلتني حركتها هذه فقد نفذتها بشكل جيد وكأن رأس –فرسها سعدى– فوق كتفها!!

حين استوقفتها طلبت أن نأتي لها بالعنب من البراد فوضعت عنقود العنب بيدها تأكل منه ثم تعيده للصحن لتكمل حديثها.. لم أكن أرغب أن تتوقف فقلت «نعم ماما برافو عليك شو صار بعدين؟».

قالت: «يلي صار أنو جدك شافني مرة وأنا عضهرا وهي بعدها مربوطة ومو تحكي شي.. قام قلي ليّا.. ليّا.. خليكي هيك لا تخافين.. وقرب فك رسنها

من الرزّة (حلقة) بالارض وقادها وأنا فوق ضهرا ومشّاها بأرض الدار وما ركضت ولا وقعتني عنها.. وكل شوي يشيل من جيبو زبيب ويطعميها ويضحك ويقول «تضحكين عليها وتطعميها البستيقات شوفي تحب الزبيب أكتر».. كان يعرف أني أطعميها بستيق ومو كان يحكي الله يرحمه..».

وكل يوم صار يقلي روحي عند (سعدى) طلعي عضهرا ويقوم يقودها يمشيها دويرة بالدار وفيه مرة طلعها من باب الدار ومشي قدامها شوي بعدين ناولني الرسن وقلي.. رجعي فيها للبيت.. والله يا سهام ورجعت وأنا فوق ضهرا وشافوني جيرانا وصاروا يصفقون ويقولون «برافو ليّا.. برافو ليّا»..

بعدين صرنا لما نروح عالأرض أركب عليها ونروح نشتغل ونجيب شو فيه عنا من هالمواسم (حمص، عدس، درا، دوار الشمس، عنب..) ايش ما نكون زارعين نقطف ونجيب للبيت..

وأيام الربيع والصيف كان شباب (ديريك) يتسابقون عالخيل وكان يصير هالسباق بساحة كبيرة كلها تراب والطريق يلف حولها متل السوارة (اسوارة)، والناس يجتمعون يتفرجون وما كان بكل ديريك بنت غيري تركب عالفرس.. وكان كتيرين من أقاربنا يقولون لجدك: ليش تخليها تركب الفرس.. بكرا يوجعها ضهرها.. وإذا تزوجت مو تجيب ولاد.. كان يرد عليهم ويقلهم «ليا شاطرة.. وأنا أشوف حالي فيها تعمل يلي بدها ياه..بنتي وأعرفها.. وما بخاف عليها.. قدّ حالها».

يابو.. كنت أسبقهم كلهم.. كنت كل مرة أطلع الأولية وصاروا يقولون بنت يعقوب شمعون تسبق كل الشباب..

ومرة من المرات كان فيه ضابط فرنسي يتفرج عالسباق وشافني سبقت الشباب صار يسأل عني الناس يلي يتفرجون.. وخبروه مين بكون.. قلهم.. كل يوم أشوفها تركب هالفرس.. بعدين إجى عندنا للبيت وقال لجدك "تعطيني

هالبنت آخدها معي لفرنسا.. أخليها تصير أحسن بنت بالعالم تركب عالفرس" جدك ما وافق أروح معو لفرنسا.. قلو "لو تعطيني فرنسا كلها مو أعطيك ليّا".. يابو كل يوم كنت أروح أنا و(سعدى) أتكشف على الأرض وأودّي (توصل) الأكل والشرب لجدك وشو ما كان يحتاج كان يبعتني.. كانت (سعدى) متل السيارة هالأيام.. وأقلك كانت أحسن من السيارة.

شعرت أنها تعبت قليلاً من الكلام فسألتها: «أم حنا شو رأيك بفنجان قهوة»..

أجابت: «يابو عمل الخير ما بدو مشاورة.. هاتيلي تفاحة بالأول.. أحكيلكم وأسليكم بلاش.. هلق وديني الحمام».

قمت بتحضير القهوة بينما ذهبت هي إلى الحمام لتعود منه بعد قليل حيث شاهدت التفاح والدراق والعنب على طاولتها.. وحتى أبقيها في جو الحديث قلت لها: «هلق تاكلين تفاح ودراق وتشربين قهوة ونرجع تحكي عن رفيقتك سعدى».. أجابت: «شو عليه يابو نحكي وناكل.. مين لاحقنا.. إيش بدك نحكي»..

جاءني اتصال من أحد الأصدقاء فقلت له معتذرة.. أرجو الاتصال بعد ساعة تقريباً الآن مشغولين بقصة (سعدى).

بعد أن أكلت قطعة تفاح وحبة دراق واحدة أعطيتها كوب القهوة حيث كنت قد خصصت لها كوباً مميزاً أنيقاً يمكنها أن تشرب به دون أن تنسكب منه القهوة بسبب ارتجاف يدها أحياناً أو بسبب سخونة الفنجان.. شربت قليلاً منه.. ونظرت إلى (روما) قائلة «عجبيتك قصة سعدى». أجابتها «والله والله كتير حلوة يا ماما».

قلت: «الله يخليكي يا ماما ويديم صحتك.. أنا كتير مبسوطة بحكاية سعدى..».

سبحان الله كلما ذكرت لها اسم (سعدى) تبتسم وتضحك فتتحدث عنها وكأنها تراها، فقالت: «كبرنا أنا... وهي مع بعض... ولما أبوك طلبني من أهلي وبعدين تزوجنا.. جدك أعطاني (سعدى).. وبقيت أركب عليها بعدما حبلت (حملت) بأخوك حنا.. كان جدك وستك يخافون رَوّحْ (تسقط الجنين) يلي ببطني».

كنت بالشهر السادس وأنا أركب عليها.. تروح وتجي فيني.. بعدين قاموا هربوها من عندي وراحو باعوها وأنا كنت نايمة بالبيت ما عرفت.. كتير زعلت عليها وبكيت كتير.. قالو: منشان يلي تحملينه في بطنك.. بقيت شهر مو أحكيهم إلا من راس شفافي..

كانت (سعدى) لما تشوفني من بعيد تركض قدام كل الناس وتجي تقف جنبي وتحط راسها عكتفي.

سألتها: «يعني بعدك زعلانة عليها.. زعلانة من جدي؟».

أجابت: «الله يرحمهم ويرحم أيامهم.. ويرحم سعدى».

انصرفنا بعد هذا الحديث الشيق لمتابعة نشرات الأخبار فكانت تنزعج عند انقطاع الكهرباء وتقول «أنا رايحة أنام وتذهب إلى غرفتها وأنا أتبعها وأجلس بجانبها على حافة السرير بعض الوقت حتى تستسلم للنوم».

تلقيت دعوة صديقنا (أبو إبراهيم) على الغداء في اليوم التالي بمقصف نبع العروس وبعد الغداء ذهبنا برفقته إلى القرية، حيث أمضينا سهرة جميلة بحضور والدته (أم منير) التي أضفت بحديثها على السهرة جواً عائلياً حين قالت لوالدتي: «خليك عنا لا تروحي بقى للشام.. هالبيت يكفينا أنا وأنت».. أجابتها: «مو أقدر أنام غير في بيتنا.. ابقي انت زورينا».

كانت سعيدة بهذه السهرة لأنها قالت بعد مغادرتنا: «حلوة القعدة عندهم.. يالله يابو نروح البيت.. الدنيا ليل هلق مو تعرفين الطريق».

فذهب (أبو إبراهيم) بسيارته أمامنا حتى أوصلنا البيت.

في صباح اليوم التالي اصطحبتهما بالسيارة داخل المشتى ومنها إلى الكفرون ثم عدنا إلى البيت وقت الغداء..

قالت لي: «سهام أريد نتغدى مدفونية.. أنا أحبها»..

أجبتها: «على راسي تكرم عيون أم حنا». وقمت بتلبية طلبها مباشرة وريثما وصلت لدرجة الاستواء.. لعبنا ثلاثتنا بورق الشدة لعبة الأوغلان.. وبعد الغداء خلدت للنوم في سريرها لمدة ساعة تقريباً، وعندما استيقظت طلبت أن تذهب إلى صالون الحلاقة.. فقلت لها: «والله يا أم حنا تعرفين شو بدك برافو.. لازم دايماً تقولين يلي بنفسك تساويه».

أسعدني طلبها وسألتها: «تحبين نروح مشي أو بالسيارة». قالت: «ليش نروح مشي.. بالسيارة أطيبو.. لو كانت عند (سعدى) مو اطلب شي منك».

كم كانت هذه العبارة جميلة منها والأجمل أنها أسعدتني لأنها قارنت بين وسيلتي نقل واحدة أحبتها في سني شبابها الأولى (فرسها سعدى) والثانية السيارة.

لم نتأخر في الوصول إلى صالون الحلاقة حيث رحبت بها صاحبته فهي تعرفها جيداً، وقالت لها: «لو خبرتوني كنت وصلت لعندك وقصيتلك شعرك في البيت»..

أجابتها: «يعمر بيتك.. حبينا نطلع نشم الهوى وبطريقنا نسلم عليك.. ونساوي شعرنا»..

أحببت هذا الجواب منها وبعد ساعة تقريباً مشينا لبعض الوقت باتجاه الساحة وتناولنا البوظة ثم عدنا إلى البيت، وتابعت الأخبار على الفضائية السورية وبعض المحطات الفضائية الأخرى، حيث لفت انتباهي كثرة التسميات الجديدة التي لم نكن نسمع بها لجماعات إرهابية أعلنت عن نفسها في تلك الفترة في حلب وإدلب، وتبني بعضها لعدد من التفجيرات الإرهابية التي قالت

الأخبار عنها إنها استهدفت مقار عسكرية ومدنية في دمشق وحلب.. وكانت الفضائيات التي تقود حملة التضليل والفبركة تتسابق في الإعلان عن أعداد الضحايا وتضخيم الأرقام..

وكان السيد الرئيس بشار الأسد قد لخص المشهد بعبارة مازلت أذكرها جيداً حين قال: «إن المعركة الحالية تستهدف منظومة المقاومة بأكملها وليس سورية فقط».

سألتني والدتي: «إيش يقولون بهالأخبار اليوم».. أجبتها: «يقولون إن تركيا تدعم الإرهابيين في سورية.. وغالبية الدول العربية وقفوا مع تركيا ضد سورية».

فما كان ردها إلا أن قالت: «إن شاء الله سورية تاكل راسهم كلهم... رمادي براسهم (دعاء بأن يحرق رماد النار التي تشعلها «رأسهم»).. سورية قوية وجيشها قوي ونحنا نحب ريسنا حافظ الأسد.. الله ينصره عليهم». قلت لها: «ماما الرئيس بشار الأسد». قالت: «أنسى يابو الاسم وأتذكر اسم حافظ الأسد.. والله يابو ما شفنا الخير إلا بأيامو.. عمل سورية جنة.. ليش يريدون يخربوها.. الله يخرب بيتهم»، وأكملت: «أقلك يابو.. سلطانة (مسلسل) اتفرج عليها أحسن من أخبار هالعرب.. لا تخافين.. سورية بدها تكسرلهم راسهم مو يقدرون عليها.. كل هالعرب يفوتون أرضها لا شور ولا دستور.. » تعرفي ليش.. أجبتها: «ليش يا أم حنا».. قالت: «لأن سورية أم العرب وأم المسلمين وأم المسيحيين كلهم.. والأم قلبها رقيق مو تكره أولادها ومو تكره اخواتها.. ومو تكره جيرانها».

أجبتها: «معك حق يا أمي والله معك حق.. الأم لا تكره أولادها»..

حدثت بعض الأصدقاء هاتفياً وشخصياً بوقت لاحق بما سمعته منها فأثار دهشتهم ومنهم من قال: هذا الموروث التي تختزنه وتحمله في وجدانها.. نعم إنه الإرث العظيم الذي نفخر نحن السريان به (حب سورية الأم).. عاد المطر للهطل

ذاك المساء وانقطعت الكهرباء فأشعلنا بعض الشموع حيث تناولنا العشاء على ضوئها.. ولم نطل سهرتنا وذهبت كل واحدة إلى سريرها.

اتصل معي صباح اليوم التالي (الصديق الوفي) على الهاتف الأرضي وأخبرني بأن (ماريا) اتصلت به من مطار صنعاء وأخبرته بأنهم سيعيدونها لبلدها لعدم وجود موافقة معها أو فيزا لدخول سورية.

فسألته: «ما هو الحل؟ وماذا ستفعل أنت تعلم أكثر من غيرك مقدار المبالغ التي دفعتها من أجلها شراء البطاقة ذهاباً وإياباً وشراء بطاقة ثانية ذهاباً وإياباً بين أديس بابا وصنعاء.. وسأعطيها كل ما أنفقته حتى وصولها».

أجابني: «إنه بطريقه إلى مكتب اليمنية لمناقشة هذه الحالة الطارئة مع صديقه.. عاد واتصل معي بعد ساعتين تقريباً وأخبرني بأن صديقه علي اتصل إلى مطار صنعاء وتحدث مع أحد معارفه وأرسل إليه بالفاكس صورة عن موافقة إدارة الهجرة على دخولها إلى سورية. وبناء على ذلك فهي ستبقى داخل قاعة الترانزيت في المطار حتى موعد الرحلة القادمة لبعد غدٍ.. لأنهم كانوا سيعيدونها إلى أديس بابا لتعود ثانية في يوم رحلتها إلى بيروت».

قلت له: «رجاءً إعادة الاتصال والتوصية بها وأن يعطيها صديق السيد علي ما تحتاجه من نقود كمصروف لها داخل المطار ونحن نعطيه هنا بدمشق ما يعطيه لها صديقه بمطار صنعاء».

سمعت (روما) ما دار من اتصالات فقالت: «ماما يهنيك السلامة برجعتها.. إن شاء الله تشوفوا الخير على وجهها.. والله أنا ما قصرت بخدمة ماما أم حنا بحضورك وبغيابك والله شاهد على كلامي.. أنا حبيت ماما كتير وأتمنى أبقى عندها».

أجبتها: «ولا يهمك أنت كمان كتير طيبة وشاطرة.. أكيد بتلاقي عمل عند غيرنا... يمكن متلنا ويمكن أحسن». فقالت: «والله بكل سورية ما فيه أحسن منكم وإذا ما بقيت عندكم ما بشتغل عند حدا تاني.. يا ريت تقولي لعمو

يساعدني أسافر لعند أهلي لأن أخي خبرني بأن ابن خالتي بدو يخطبني وطلبني من أهلي وقد وافقوا على الخطبة لما ارجع لعندهم إذا أنا قبلت».

قلت لها: «الله الله كبرتي وصرتي عروس.. تكرم عينك.. إن شاء الله بيصير خير».. فأوضحت أنها كانت تريد أن تعمل عدة أشهر أخرى لتوفر بعض المال تأخذه لأهلها لأنها كانت ترسل لهم رواتبها عندما كانت تعمل بالمكتب.

حان موعد الغداء فاصطحبتهما إلى مطعم البانوراما حيث تناولنا غداءنا فيه وأصبح بعض عماله على معرفة بنا، وبخاصة ذلك الشاب الطيب وأذكر بأن اسمه (رائد).. ويبدو أنه عندما شاهدنا ندخل المطعم اتصل مع (أبو إبراهيم)... فهو من أقاربه.. وأعلمه بوجودنا في المطعم..

...اتصل قائلاً: «أنا شايفكم قاعدين بالبانوراما.. فقلت له نحن بانتظارك وبكل الأحوال أنت ستأتي لتأخذ زوجتك من عملها سأنتظركما على الغداء.. لم يطل زمن وصولهما أكثر من نصف ساعة فهما كأخوين لي بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى وعندما أخبرتهما بأنني سأعود إلى دمشق في اليوم التالي.. قال يعني هذا غداء الوداع».

بعد الغداء صعدنا إلى الجبل حيث أدت والدتي صلاتها داخل الكنيسة وأشعلنا عدداً من الشموع على نية خلاص سورية من محنتها وشفاء والدتي من مرضها ثم عدنا إلى البيت..

عند المساء عاد وبرفقته والدته حيث رحبت بها والدتي بقولها: «أهلاً وسهلاً بأم منير الغالية.. نورتي البيت.. أنا أحبكم كتير.. سهام كل يوم تحكيلي عنكم.. يا ريت كل الخلق يحبون بعضهم».

أمضينا ساعتين تقريباً ما بين انقطاع الكهرباء وعودتها حيث أبدت والدتي كل مشاعر الاحترام والتقدير لوالدته التي ودعتها بقولها حين أرادوا المغادرة «مرة تانية أقلك يا أم حنا.. أتمنى تبقي هون عندنا ولا ترجعي للشام».

أجابتها: «مو أقدر يا أختي مو أقدر لازم أروح البيت بالشام.. بالشام الكهربا مو تنقطع وكلشي متوفر جنب البيت.. بعدين سهام تقول أنو ماريا بدها تجي الشام بعد يومين».

وبعد وداعهم قمنا بتجهيز حقائب السفر ونشرت الأغطية على الكراسي وطقم الكنبات وأصبح كل شيء جاهزاً لمغادرتنا.

حين وصل (أبو إبراهيم) صباحاً تركت معه مفتاح البيت كما هي العادة بينما سار بسيارته أمامنا حتى أوصلنا إلى تقاطع طريق صافيتا مع الطريق المؤدي إلى طريق حمص..

العودة إلى دمشق

وصلنا دمشق قرابة الثانية والنصف بعد الظهر من تاريخ ٢٠١٢/٩/٢٩ على ما أذكر كان الطريق مزدحماً بالسيارات، وقد لاحظت بأن السيارات كانت تعبر بسرعة كبيرة قرب منطقة تلكلخ فأسرعت كغيري لأنه لا مجال في هذه الحالة للسير بسرعة ١٠٠كم بالساعة فقد تجاوزت تلك القطعة من الطريق بسرعة ١٦٠كم.. أدركت حينها لماذا الناس يخافون عند اجتياز هذه المنطقة فقد كنا نسمع خلال أحاديث أهالي المشتى عن أعمال القنص التي تحدث في تلك المنطقة.

المهم أننا وصلنا بخير وسلام.. لاحظت بأن والدتي متعبة عندما صعدت عدة درجات بمدخل البناء لتصل إلى المصعد..

سألتها عندما دخلنا البيت إن كانت تحتاج لطبيب.. قالت: «لا داعي أنا صرت مليحة هلق.. شوفي شو بدك تغدينا يابو.. لا تخافي أنا كويسة هلق أرتاح شوي..».

بادرت (روما) بإعداد القهوة بينما بدأت أرتب الأغراض والمواد التي أحضرتها من المشتى وقدمت لوالدتي تفاحة مقطعة ريثما أقوم بتجهيز الطعام.

عندما جلست على كرسيها تشاهد التلفزيون استسلمت للنوم فلم أوقظها حتى وضعت الطعام على الطاولة.. حيث لاحظت الكآبة على وجه (روما) فقلت لها: «اضحكي شوي ليش عابسة.. لا يهمك ممكن تبقي عندنا حتى وقت سفرك».

طلبت والدتي سقاية أحواض الزريعة بقولها: «يابو.. شوفي الوردات دبلانين بدهم يشربون..».

زارنا الدكتور حسين مساء ذلك اليوم وأجرى الفحص المعتاد لوالدتي وأخذ قياس ضغطها، فقال: «مشواركم إلى المشتى حقق نتيجة طيبة.. فالضغط عند أم حنا ٨/١٣ هذا شيء جيد.. لا تحتاج أي شيء.. سوى أن تمشي كل يوم مدة ٢٠ دقيقة داخل البيت أو على الرصيف بحيث تتحرك مفاصلها»..

أخذتني أفكاري بعيداً بعدما رقدت والدتي في فراشها.. وبدأت أسأل نفسي:

- هل أبقي الخادمتين معاً عندها.
- هل يمكن لهما الاتفاق أم أنهما ستختلفان لأتفه الأسباب خاصة وأنهما من بلد واحد مع اختلاف انتمائهما الديني.
- هل ستدفع والدتي الثمن نتيجة اتكال كل واحدة على الأخرى.

مثل هذه التساؤلات راودتني سابقاً حين كانت الفتاة الكردية.. كان يصل إلى سمعي صوت (روما) تتحدث بجوالها همساً.. يبدو أنها شعرت بالقلق فلم أسألها أو أناديها لأعرف بمن تتصل.. وضعت حسن النية فلربما تلقت اتصالاً من شقيقها أو أنها تتصل مع صاحب المكتب..

كنت حينها أجلس على الشرفة عندما قامت من فراشها لتسألني إن كنت أحتاج لخدمة منها وأعتقد أنها أحست أنني سمعتها تتحدث بالهاتف.. شكرتها وسألتها: «هل ساعدك (عمو) من أجل تجديد جواز سفرك والمبلغ الذي استدانه منك صاحب المكتب؟»..

أجابتني: «بأنه اتصل مع أحمد العلي الذي تكفل بتجديد الجواز وبمرافقتي إلى المكتب لتحصيل مستحقاتي التي لم ينكرها صاحبه عندما سأله عنها، وبأنها أرسلت لشقيقها رسالة قبل الظهر فاتصل بها قبل قليل وتحدثت معه حين كانت في فراشها، وأخبرته بأنها قد تترك العمل عند (أم حنا) وربما تمكنت من العودة إلى أثيوبيا خلال الأسبوع القادم.. ثم عادت لغرفتها والدموع في عينيها.. بينما دخلت غرفتي أتصفح أخبار النت لفترة وجيزة.. نمت بعدها.. استيقظت باكراً ذاك الصباح فوجدت والدتي تقف على الشرفة.

قلت لها: «صباح الخير ماما– برافو تعملين رياضة».

أجابتني: «وصباحك بالخير من الله.. تعالي هون شمي الهوى شوفي ايش طيب..».

أسرعت بإعداد الإفطار كي تشرب دواءها وعندما أحضرته لها إلى الشرفة قالت:

«يا بنتي هلق بكير.. يشوفوني الجيران يقولون.. ايش صايب هالختيارة من الصبح قايمة تأكل».

– قالت (روما): «ماما شو بدك من الجيران.. لازم تاكلي حتى تشربي الدوا.

– أجابتها: «كويسو.. حطي ناكل ونخلص خفيف.. أريد أنزل أمشي تحت وأشارت بيدها إلى الرصيف».

عودة (ماريا)

أعددت طعام الغداء حين كانت الساعة تقارب الواحدة ظهراً وما أن انتهيت من وضع الطعام على الطاولة حتى جاءني خبر وصول (ماريا) على متن الطائرة اليمنية إلى مطار دمشق وبعد أقل من ساعة ستكون في البيت.

عندما وصلت أمام البيت كانت تبدو علائم النحافة عليها وقد لاحظت ذلك بمجردِ نزولها من السيارة وهي تنظر إلى الشرفة وتلوح بيدها..

وعندما شاهدتها والدتي ضحكت وفتحت لها ذراعيها وسلمت عليها بحرارة ومحبة وشوق واضح.. وقالت لها: «كيفو أبوك» (ملّسا).. أجابتها: «بيسلم عليكي كتير»..

فنظرت (روما) إليها بعد مصافحة جافة (باليد) بينهما وتوجهت إليّ بكلامها قائلة: «هلق هذه... هي يلي تاعبين قلبكم كرمالها» على مسمعٍ منها.. فلم تمرر لها هذه العبارة – فعلى ما يبدو شعرت بأنها تسخر من قصر قامتها..

أجابتها: «إي أنا شو يعني.. ماني عاجبتك.. مين انت».. ردت عليها: «ما قلت شي عاجبتيني صرعوني فيكي فكرت أنو «ماريا» شي شغلة وشخصية كبيرة ومهمة».. طلعتي انتي (ماريا).. وضحكت..

فأجابتها: «أنا رجعت كرمال ماما (أم حنا) وفيني ارجع إذا ماما (سهام) ما بدها اشتغل عندها.. شو مفكرى حالك حتى تحكي معي هيك.. أنا لو ما كنت مليحة معها ما صرعوكي فيني».

وجلست بجانب والدتي.. فكانت كل واحدة منهما تراقب الأخرى وهي تتناول طعامها.. انتهزت هذه الحالة لأعطيهما درساً فيما هو مطلوب منهما في حال أبقيت عليهما معاً ودور كل واحدة منهما في اقتسام العمل والاهتمام بوالدتي حتى أصبحتا تتبادلان الكلام مع بعضهما بشكل ودي.

رغم ذلك فقد لاحظت بعد الغداء بأن كل واحدة تتكل على الأخرى. فإن ذهبت إحداهن إلى المطبخ تتأخر بالعودة ريثما تأتي الأخرى وإذا طلبت والدتي دخول الحمام تنتظران لبعضهما.

قلت في نفسي لا يمكن لهما الاتفاق أبداً وفي حال أبقيت عليهما فسأكون كمن يعاقب أمه.

لكن المفاجأة حصلت ليلاً عندما حان وقت النوم حين سألتهما «مين تنام بالتخت ومين تنام على الكنبة الطويلة.. (احتفظتُ بها بإحدى زوايا الصالون من الفرش القديم العائد لصاحب البيت..)». فقد أجابتا معاً «لا ماما ما حدا بينام بالصالون التخت واسع يقدينا سوى بنام فيه» هذا ما كان من أمرهما تلك الليلة. وفي الصباح التالي سمعت (ماريا) تقول لها: «انزلي امشي مع ماما تحت البيت وأنا بجهز الفطور» وبدأتا تقتسمان العمل بشيء من الخجل..

بدأت في اليوم الثالث لعودتها أعد العدة لسفري إلى السويد فأعطيت (روما) راتبها عن الفترة التي أمضتها مع بعض الهدايا التي أحضرتها لها بتلك الأيام أثناء تجولي في الأسواق.. وبالتنسيق بين الأصدقاء وافقت على العمل عند عائلة أخرى لعدة أشهر ريثما يتم تأمين سفرها..

وحين ودعناها عانقت أمي بكل محبة وقالت لها: «ماما سامحيني إذا قصرت بأي خدمة.. والله حبيتك متل أمي.. تبقي صلي وادعيلي»..

بينما قالت لي: «سامحيني... أنا غلطت أول يوم شفتيني فيه.. ما كان قصدي يلي قلتو..».

أجبتها: «روحي الله يسامحك وأي شي تحتاجينه اتصلي معي.. تكرم عينك».

أبدت (ماريا) بعد مغادرتها نشاطاً واهتماماً كسابق عهدها بل أكثر وحدثتني عن معاناتها حتى حصلت على جواز سفرها وعن فترة انتظارها في مطار صنعاء، وأنها كادت أن تنزل من الطائرة في مطار القاهرة حين استيقظت من نومها بالطائرة بين صنعاء والقاهرة لولا كابتن الطائرة الذي كان على معرفة بأنها قادمة إلى سورية فأعادها عن درج الركاب.. تركتها تتحدث بما يجول بخاطرها حتى انتهت.

فقلت لها: «إنني أثق بك وتعلمين كم تكلفت لعودتك وأنا بدأت ألاحظ بأن والدتي بحاجة إلى اهتمام أكثر من السابق، فهي بحاجة لأن تتناول طعامها في مواعيده وأن تأكل فواكه بين موعدي الوجبات الرئيسية، والأهم من ذلك أن تعطيها الدواء كما هو مسجل على دفتر الملاحظات، فهي تحتاج إلى عناية شخصية خاصة لجهة دخولها الحمام واستخدام مراهم ترطيب الجلد وتنشيفها جيداً بعد الاستحمام كي لا تتعرض لأمراض بولية.. أو فطريات..

وأوصيتها أن تمشي معها داخل البيت وتنزل معها إلى الحديقة القريبة وترافقها إلى المؤسسة، فهي تشعر بالسعادة عندما تشارك في شراء المواد التي تحتاجها.. وأوصيتها كذلك أن تلعب معها (ورق الشدة) وتحدثها دائماً وسجلت لها مجدداً كافة أرقام هواتف الأصدقاء الذين تعرفهم كما أعرفهم.. وبشكل عام فقد كررت عليها جميع ما أوصيتها به سابقاً بشكل مباشر أو عبر الهاتف..

أقسمت على أن تنفذ كل ما أوصيتها به.. سألتني بدورها إن كنت سأعطيها المبلغ الذي وعدتها به زيادة على راتبها فأكدت لها بأن كل ما وعدتها به ستحصل عليه.

بعد مضي هذه المرحلة من إجازتي عدت لممارسة رياضة المشي عند الصباح بمفردي في ملاعب الجلاء ومساء مع والدتي حيث كنت أمشي معها بهدوء على الرصيف لمدة نصف ساعة..

تذكرت بذلك الوقت الجهاز الذي كنت أضعه على خصري وأنفذ الحركات الرياضية بالتزامن مع شريط الـ CD الذي أحضرته لهذا النوع من الرياضة، فعدت إلى استخدامه يومياً بعد الإفطار عندما تكون والدتي جالسة على كرسيها حيث كانت تضحك وتصفق لي ظناً منها بأنني أرقص لها..

لاحظت بتلك الفترة وجود أزمة في الحصول على الغاز المنزلي عندما نفدت (قنينة الغاز) أو كما يسمونها (جرة الغاز) حين كنت أحضر شوربة

خضار لوالدتي، وكانت الجرة الثانية عند ناطور البناء وفي هذا الوقت جاء الناطور بجرة مليئة بالغاز وقام بتركيبها.. شاهدته والدتي عندما أحضرها فمشت إلى المطبخ وقالت له: «إيش تساوي.. تركب جرة الغاز.. يعطيك العافية». فسلم عليها ومن خلال لهجته قالت له: «أنت كردي وي». ضحك قائلاً: «نعم أنا كردي». فأخذت تحدثه باللغة الكردية وسألته: «تعرف تغني بالكردي (فيجاراي راصّة)». أجابها: «نعم أعرفها.. وبدأ يغنيها معها..». كان خفيف الظل حين مسك بيدها قائلاً: «إي خالة أم حنا خلينا ندبك عليها».

بدأت أشعر بالتعب والأعياء لأسباب مختلفة ومتعددة فالضغط النفسي المتعلق بحالة والدتي الصحية لا يفارقني والتعب الجسدي أيضاً.. فقد أعياني التعب والإرهاق والقلق الأمني والأخبار التي تتلف أعصاب من يسمعها فكيف هي بالنسبة لمن يشاهدها ويعايشها؟

جميعها عوامل لا تجعل من يعانيها يعيش براحة وطمأنينة.. بدأت أمهد لسفري في الحديث مع والدتي بأن إجازتي أوشكت على الانتهاء فكنت أسألها: «تسافرين معي للسويد؟».

تجيب: «ليش أسافر عالسويد ما فيها غير البرد والتلج».

أقول: «ماما تريدين أي شيء من السويد حتى لما أرجع لعندك أجلبه معي».

تجيب: «أريد سلامكي.. مو ينقصني شي هون.. أنا عندي غلام يجبلي شو احتاج – يبدو أنها تذكرت بذلك الوقت عندما كانت صغيرة حيث كان يقوم شاب صغير بخدمة جدها–».

أقول: «إن شاء الله لن أتأخر كتير.. لكن يا ماما لازم أروح كم شهر أشتغل وأجبلك مصروف وأرجع».

تجيب: «ليس تريدين تسافرين.. روحي سافري وارجعي خفيف.. نحنا هون مبسوطين أنا وماريا».

على هذا الموال كنت أكرر الحديث معها مرتين في اليوم حتى لم يكن ينقصها سوى أن تقول «سافري وخلصيني بقى من كتر هالحكي».

قبل يومين من موعد سفري اصطحبتها في زيارة لأودع صديقتي التي أبدت كل احترام ومحبة لها وبالمقابل كانت تشعر بالارتياح والسعادة عندما تشاهدها.. ولم تنسَ في كل مرة تشاهدها فيها أن تقول لها «تبقي سلمي عالرئيس.. قولي.. في ختيارة اسمها (أم حنا) تسلم عليك وتدعيلك» فتضمها وتقبلها..

كانت تحب أن تقتصر في أي مشوار أو زيارة أصطحبها معي سواء أكان المشوار إلى السوق أم المول أم المطعم أم زيارة أصدقاء في بيوتهم.. فما أن تمر ساعة أو أكثر بقليل حتى تبدأ تهمس بأذني أو تشير بيدها أو تومئ برأسها معلنةً عن رغبتها بالعودة إلى البيت.. فكنت أسألها حين نصل البيت «ماما ليش خليتينا نرجع بكير». فتجيب: «ما فيه أحسن من البيت.. البيت سترة يا بنتي.. والضيف بيكون خفيف مو يلزق مكان يروح.. الناس تبقى شايلتلو قدر وقيمة».

كنت أتعلم منها في كل زيارة أقضيها عندها الكثير من خلال بعض الكلمات والعبارات القصيرة التي كانت تعقب بها على ما تراه أو تسمعه..

فكثيراً ما كانت تقول لي عندما نكون مدعوين لغداء أو عشاء «لا تبقين تاكلين لآخر الناس.. وإذا أنت تعزمين الناس لا تخلصين أكلك بالأول.. لو مانك جوعانة.. لازم تبقي تاكلي شوي.. حتى يشبعون ضيوفك».

كما قالت لي مرة: «شوفي يابو.. لما تروحين عند الناس.. مين ما كانوا يكونوا.. وحطوا أكل وقعدتي تاكلين معهم.. ديري بالك تتركي الأكل إذا شفتي شي شعرة أو شفتي برغشة بالصحن.. عملي حالك مو شايفي شي.. ولا تقوليلهم شو هاد يلي بالصحن.. هيك كان أبوك – الله يرحمو– يعمل.. حتى ما يخجلون قدام الخلق».

هذا بعض ما كانت تقوله لي بين الحين والآخر.. وعند مساء ذلك اليوم زارنا بعض الأصدقاء حيث تداولنا -كما يقال- أحاديث شؤون الساعة، وبعد مغادرتهم جلست على شرفة البيت أفكر في قادم الأيام وما عساها أن تحمل من مفاجآت.. كنت أشرب القهوة ولم تكن من عادتي أن أشربها بوقتٍ متأخر من الليل.. لكنه قلق السفر وشأن والدتي.. والأخبار المؤلمة والإرهاب المتجول في المدن والقرى وما شاهدته من مقابلات لأمهات الشهداء وزوجاتهم وأولادهم، وما كانت تكشفه الفضائيات السورية من تلفيق وفبركات قنوات التحريض والفتنة.. جميعها عوامل تؤرق أصحاب الضمائر الحية والنفوس الأبية..

كانت أصوات سيارات الإسعاف تقطع سلسلة أفكاري بين الحين والآخر وتنقلني إلى محور جديد من محاور التفكير حول ما يقاسيه أبناء سورية الشرفاء في مواقفهم..

نوبـة شقيقـة

ها هي خيوط الفجر الأولى بدأت تلوح في الأفق الشرقي وارتفع صوت الأذان من المآذن المحيطة.. عند هذا الوقت دخلت إلى غرفتي بعدما نظرت إلى والدتي في فراشها تنام مثل طفلة بريئة أزاحت الغطاء عنها ليسقط جانب السرير.. أعدته عليها، بعد ساعة تقريباً أيقظتني نوبة ألم نصفي «شقيقة» لا تحتمل.. لم أعد قادرة على الوقوف.. وما بين البكاء والاستفراغ استيقظت (ماريا) التي تفاجأت بحالتي وساعدتني في العودة إلى فراشي.. فاجأني صوت جرس الباب في هذا الوقت المبكر..

كان (أبو نورس) ومعه شخص آخر.. سألها: «خير شو صاير معكم» استمهلته لحظة ودخلت لغرفتي قائلة: «ماما لا تزعلي مني.. أنا اتصلت مع (عمو) لأني خفت كتير عليكِ».

قلت لها: «لم تطلع الشمس.. هلق وين نروح.. يمكن المشافي ما بتستقبلونا.. اعتذري منه.. وعندما تطلع الشمس بنروح للمشفى».

قلت هذا رغم الألم المبرح الذي أعانيه وكنت أخاف إن نهضت من الفراش من السقوط على الأرض..

وعندما خرجت لتقول له ذلك.. قال لها: «ارجعي ساعديها أنا أنتظرها أمام الباب.. بالتأكيد هو يعرف أكثر مني بنظام عمل المشافي.. ساعدتني بدورها بالوصول إلى الباب.. وساعدني هو والشخص الذي برفقته وبالوصول إلى المصعد.. كان ذلك الشخص يقود سيارة أجرة صفراء اللون صغيرة الحجم..

خلال دقائق معدودة وصلنا إلى مشفى الرازي حيث تم قياس ضغطي.. وكان مرتفعاً وأعطوني إبرة مهدئة للألم..

خلال هذه اللحظات أصبت بالدوار.. نصحنا الممرض بالذهاب إلى طبيب أو مشفى اختصاصي بأمراض الأذن أو البقاء بالمشفى لبعد الساعة الثامنة ريثما يحضر أحد الأطباء الاختصاصيين، أثناء عودتنا إلى السيارة استفرغت قرب الرصيف للمرة الثانية.. ذهبنا بعد ذلك إلى (مشفى الطبي الجراحي) حيث طلبوا شراء إبرة على وجه السرعة.. بقيت في غرفة الإسعاف بينما ذهب والشخص الذي برفقته ليعودا بعد نصف ساعة ومعهما الإبرة التي أعطتني إياها إحدى الممرضات..

وطلبت عودتي بالساعة العاشرة صباحاً لإجراء تخطيط للسمع والأذن الوسطى تحديداً.

بعد ذلك أوصلاني إلى البيت حيث استغرقت في النوم.. وعلمت لاحقاً بأن الشخص الذي كان يقود سيارة الأجرة هو ناطور البناية التي يسكن فيها

(أبو نورس)، فقلت في نفسي هذا هو العجب.. ناطور يملك سيارة وصديقنا سيارته قدماه..!!

عندما دخلت البيت قالت والدتي: «سلامتك يا بنتي قربي هون جنبي أبوسك.. الله يشفيك.. ريت وجعك.. على راسي».

أبكتني عاطفتها.. أبكاني قلقها.. رباه – أستغفرك– كيف جبلت الأم بهذه العاطفة وهل قلبها يشابه قلوب البشر أم أنه مزيج بين قلوب الملائكة وقلوب الأطفال..

قبلت يدها وأخبرتها أنني كنت في المشفى بسبب وجع رأسي.. قالت: «سلامتكي.. سلامتكي.. إن شاء الله أحمل عنك وجعكي.. والله مو تستاهلين يوجعك شي.. سلامتكي يا بنتي سلامتكي.. نامي هون جنبي أغنيلكي متل يوم كنت صغيرة.. نامي الرب يحبكي.. الرب يحميكي.. نادرتك للعدرا تبقى معك.. آخ يا بنتي ما فيني أساعدكي بشيء غير أدعيلكي».

على وقع هذه العبارات ودموعي نمتُ بجانبها فقد هدأت وجعي أكثر من الإبر التي أخذتها في المشفيين.

استيقظت مرهقة وبدأت أفكر في تأجيل سفري لكنني تركت هذا القرار رهناً بتحسن حالتي الصحية حتى ظهر اليوم التالي لأن موعد الطائرة من بيروت إلى استنبول كان بعد منتصف ليل ٢٠١٢/١٠/١١.

عند المساء أصبحت أشعر بالتحسن وخاصة عندما شاهدت أمي تمشي بمفردها بدون مساعدة فقد أعطتني حالتها هذه شحنة إيجابية فبدأت أصفق لها «برافو أم حنا.. أحلى صبية»، واتجهت إلى الباب تريد الخروج من البيت فلحقت بها الخادمة ونزلت برفقتها وأنا أراقبهما تمشيان على الرصيف ذهاباً وإياباً وأحياناً تتكئ على الحائط وأخرى على إحدى السيارات المتوقفة.

إنها متشبثة بالحياة لا تريد إظهار ضعفها أمام الجيران الذين يشاهدونها تمشي كل يوم بمساعدة الخادمة أو العربة.. كانت تتوقف لتراقب عصافير

الدوري تلتقط فتات الخبز وحبات الأرز من أمام باب مؤسسة توزيع المواد التموينية وأحياناً تنظر للأعلى لتراني أراقبها عن الشرفة تلوح لي بيدها وتبتسم.

فيخطر لي هواجس تبكيني.. هل هي تودعني.. أم أنها تؤكد لي بأنها مازالت قوية وقادرة أن تمشي بمفردها.. أم أنها تقول لي بدون أن تتكلم.. اذهبي وسافري فأنا بخير لا تخافي بنيتي..

هل هي أمي التي تلوح بيدها؟ أم أنها تلك الطفلة الكامنة في روحها تقول لي.. هأنا أمشي.. هأنا أشاهد العصفور أمامي لا يهرب مني ولا يطير فزعاً من وجودي قربه، فأمعن النظر إليها من جديد وألوح لها بيدي.. فأسألها دون أن تسمعني هل سأجدك في إجازتي القادمة.. هل أراك حيث أنت تمشين بوداعةٍ وطمأنينة.. هل سأمشي قربك فوق الرصيف.. أم هل أزور قبرك بسواد اللباس مع زهرة بيضاء أو صفراء وأشعل الشموع بالدموع.. أي قبر هذا.. وفي أي مكان.. لا أدري يا أماه.. لا أدري يا أماه..؟.

هذه التساؤلات وغيرها كانت تسرق النوم من عيني وتأسر تفكيري بهذا الاتجاه..

قمت بتحضير الفواكه على الطاولة لحين عودتهما عن الرصيف وعند دخولها البيت قلت لها: «برافو ماما لازم كل يوم تنزلين هيك تمشين رياضة.. هلق دور الفواكه لازم تتغدين وتبقين قوية».

بينما كنا نتناول الفواكه سمعت صوت سيارة الإطفاء تمر سريعة فسألتني: «إيش صاير.. ليش هالزمور.. الله يستر»..

قلت لها: «لا تخافي ما فيه شي يخوف»..

ثم ارتفعت أصوات أبواق السيارات وهتافات الشباب والصبايا يلوحون بالأعلام في مسيرة سيارات كبيرة... عدنا ثانية إلى الشرفة... فأخذت تلوح لهم.. ورفعت العلم الذي أحضرته معها عندما شاركت سابقاً بالمسيرة على الأوتستراد أمام مدينة الجلاء.

وبعد مرور موكب السيارت وعاد الهدوء إلى المكان جلسنا داخل الصالون ووضعت شريط عرس يلدا..

شاهدت صورتي فقالت: «شوفي حالك شو كنت صبية زغيرونة.. شوفي البنات شو بيكبّروا أهلهم بسرعة حين يتجوزون».

سألتها: «ماما شو تحفظين من أغاني أيام زمان لما كنتم تغنوها لما تطلع البنت عروس من بيت أهلها».

ضحكت وقالت كنا نغني:

«طلعت عَروسنا

بميّة مطلعي

شمسان وقمران

والدهب يلمعي

سيري يا سمِيرَا

سِيري بصادقْ النية

قوم يا بيًّا ودعها

ودعها وصفي النية»

هيك كنا نغني للعروس ونمشي وراها وهي راكبة على الحصان حتى نوصلها لبيت عريسها..

في هذا الوقت جاء (أبو نورس) وزوجته قلت لهما: «تفضلوا.. هلق عم نغني للعروس».. ثم جاء بعدهما «أبو نزيه» وزوجته فحدثتهما عن الحالة الصحية التي مررت بها فقال (أبو نزيه) بأنه سيوصلني إلى مطار بيروت وبأن لديه عملاً ضرورياً صباح اليوم التالي فيكون لديه الوقت الكافي لإنجازه والعودة لدمشق نهاراً.

شعرت بأن وضعي الصحي أفضل بكثير من الفترة الصباحية وبعد مغادرة ضيوفنا قمت بتوضيب حقائبي فقالت أمي: «تسافرين بكرا»..

أجبتها: «نعم».

قالت: «سلمي كتير على شابو ويلدا ومليسيا وبيت حماهم ورجالهم.. وسلمي على يلدز وعلى بَسّة».

استيقظت صباحاً حين سمعت والدتي تقول لـ(ماريا) «إيش نعمل اليوم.. سهام تريد تسافر.. يلزم نعملها غداء ورق عريش باللحمة.. أعرف سهام تحب ورق العريش».. وبعد الإفطار ساعدتني بلف ورق العريش..

جاء (أبو نزيه) عند الثانية والنصف بعد الظهر وحين وضعت الحقائب خلف الباب لاحظت بأنها تراقب كل خطوة أخطوها..

فاجأتني بقولها: «سهام تعالي أبوسكي.. الرب معك والعدرا تحميك.. لا تتأخرين كتير عني يا بنتي.. أنا كبرتو.. يمكن تشوفيني.. ويمكن مو تشوفيني»..

مع كل وداع لها أبكي فكيف وأنا أسمع هذه العبارات منها.. قبلتها واتجهت إلى الباب ونظرت إليها فإذا بها تسير خلفي وأسندت يديها على دفتي الباب وهي تراقبني أضع الحقائب في المصعد.. فاستدرت باتجاهها قبل إغلاق باب المصعد ولوحت لها بيدي حيث ردت هذه التحية بمثلها ملوحة بيدها وهي تقول «الله معك بدي أصلّي وأدعيلكي.. مع السلامة».

هكذا كانت نهاية إجازتي وهكذا أمضيتها مع والدتي فلم يفارقني صوتها ولا صورتها لحظة واحدة.

منذ ودعتها وحتى وصولي إلى بيتي في استوكهولم . وكما هي العادة . اتصلت مباشرة معها حيث كان اللابتوب مفتوحاً أمامها وعندما شاهدتني بدأت تنادي «سهام.. سهام.. خفيف وصلتي.. أنا مبسوطة هون هلق نريد نتغدا من ورق العريش مع اللبن.. سلمي على أولادكي وعلى زوجكي».

باشرت عملي بعد يوم واحد من عودتي مع استمرارية المتابعة الهاتفية وكاميرا السكايب لأحوال والدتي.

وأما فيما يتعلق بمتابعة أخبار سورية فقد تحولت إلى إدمان حقيقي مع ما يرافقه من حزنٍ وألم حين كنت أسمع وأشاهد نزيف جرحها المفتوح، وتكالب الإخوة الأعداء عليها ينهشون لحمها وهي تكابد ألمها وتحاول تضميد جراحها وتنظر لأبنائها نظرة الأم الحنون فتدعوهم إلى حضنها الدافئ وتفتح لهم النوافذ والأبواب وتمد لهم يدها لتضمهم إلى صدرها..

فها هي تمنحهم عفوها عن أخطائهم بل عن جرائمهم.. فمن وجهة نظري الخطأ بحق الأم جريمة ولا ينال مرتكبها عفو رب العالمين فقد أجمعت كافة الأديان بأن عفوه مقروناً بعفوها.

هكذا هو قلب الأم الخالدة سورية فقد فتحت ذراعيها لهم بتاريخ ٢٠١٢/١٠/٢٣ فمنهم من امتثل ومنهم من نَفَرَ وبقي على حماقته وعقوقه.

ولا أبالغ إن قلت إن صراخ وعويل النساء وصل إلى سمعي من أمام كنيسة دير الزور في أواخر تشرين الأول من العام نفسه، وأمام ضريح السيدة زينب قبل رؤيتي المشاهد التي بثتها الفضائيات بذلك الوقت.. فأي عقل هذا الذي يفجر ويقتل إخوة التاريخ وإخوة الهواء والتراب، وأي قلب يحمله ذلك الذي يزرع عبوات الموت في محطات نقل الركاب والحافلات التي تقلهم.

هذه إشارة لما كانت تعانيه الأم الخالدة بل جزء بسيط من آلامها، بينما جيرانها الذين أكلوا وشربوا من خيراتها حتى التخمة ارتدوا أقنعة التضليل لإخفاء وجوههم وأخفوا عيونهم بالنظارات السوداء حتى لا يشاهدوا أشلاء الأطفال التي بعثرتها هداياهم المرسلة مع غربان الموت من قصورهم.

كنت أشعر بأن تراب الأم الخالدة وحجارة مواقعها الأثرية وتماثيل رموز الحضارة عشتار وزنوبيا وأبو علاء المعري وسيف الدولة ترمق قادة الغرب

الذي يدعي المدنية والرقي بعين العتب والغضب، مع أولئك الذين امتزجت مصالحهم وفتحوا عرى جيوبهم لتتدفق فيها سيولة الدولار الملوث بالنفط الأسود من منابع أحفاد رعاة الإبل.

واستمعوا بآذانهم الصماء لما قاله ابن الأم الخالدة (سورية) الذي حمل أمانتها ورفع رايتها عبر وسيلة إعلام قد تصل لأسماعهم بالصوت والصورة بتاريخ ٨ تشرين الثاني ٢٠١٢ (روسيا اليوم)، حين نبههم لمخاطر دعمهم أسراب القتل والاغتصاب والتفجير والتهجير، ورداً على ما كانوا يلوحون به لتقطيع أوصال أم التاريخ بقوله: «إذا كان هناك مشاكل في سورية.. فإن ذلك سيكون له أثر الدومينو الذي سيؤثر على العالم من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادي».

هذا هو الإرث العظيم الذي احتفظت به سورية لأبنائها وهذه هي الثقافة التي أرضعتهم إياها فكانوا بما حملوه من تاريخها رسل سلام ومحبة لكافة شعوب العالم.. فإن أصابتهم مصيبة عارضة أو وباء مستشرٍ أو خطر داهم يسارعون لتنبيه العالم ويدقون جرس الإنذار والتنبيه حتى لا يمس الأذى والضرر تلك الشعوب.. حتى وإن كانت تعيش خلف البحار.

من أغاني أم حنا

كنت أنتظر عطلتي الأسبوعية بفارغ الصبر لأنجز الجزء الأكبر من أعمال البيت مساء الجمعة وصباح السبت لأتفرغ بشكل شبه تام لمتابعة ما تنقله إلى سمعي وبصري الشاشتان (السكايب والأخبار) فيمتزج الفرح والحزن في اللحظة ذاتها.. أفرح حين أشاهد والدتي تأكل وتشرب وتمشي وتتناول دواءها.. وحين أحدثها وتجيبني وأغني معها مقاطع قصيرة من أغانٍ تحبها فأذكرها بها حيث كانت تضحك كثيراً عندما كنت أقول لها: «ماما.. يالله نغني أغنية السيارة الحمرا»..

وما أن تسمع عبارة (السيارة الحمرا) حتى تبدأ:

بين قامشلي والرقة.. مرقت سيارة حمرا

هي سيارة بوحنا.. أنا عرفتا من النمرا

وتنتقل مباشرة لتغني:

ليّا وليّا يا بنية.. يا واردا ع الميا

ليّا حرقت قلبي.. روي السلام ع ليّا

يا ليا عطيني بوسة... خليها دَين عَ ليا

فأقول لها: «ماما ليش ما بترد السلام عليك..».

تجيبني وهي تشير بيدها وتبرمها: «ليش أنا أعرف.. يمكن زعلانة».

وفي إحدى المرات قلت لها: «ماما إيش كنت تغني للبابا وانتم مخطوبين».

أضحكها سؤالي فاهتزت فوق كرسيها من الضحك وتناولت علبة المحارم من أمامها وسحبت منها عدة محارم ارتبكت في فصلها عن بعضها ومسحت عينيها، فشعرت بالندم حين بدأت تسعل بشدة حيث أسرعت الخادمة وأحضرت كأس الماء لتسقيها قليلاً..

شيء ما جعلها تضحك بهذا الشكل.. صممت على تكرار السؤال بعدما هدأت فقلت لها: «إي ماما وحياتي عندك شو كنتِ تغني لما كنتم مخطوبين».

أجابتني: «كانت بنات هديك الأيام يخجلون.. يستحون.. مو يحكوا مع خطيبهم غير لما يكون قاعد بالبيت عندها وتكون أمها وأبوها موجودين».

فقلت لها: «طيب لما يكون بعيد عنك.. بالشغل.. بالعسكرية.. مسافر لحلب... أو عم يصيد سمك من نهر دجلة..».

لاحظت بأن عبارة نهر دجلة أثارت انتباهها..

فقالت لي: «ذكرتيني.. كانوا الشباب يروحون يسبحون بنهر دجلة ويتسابقون مين يقطع النهر وكان كتيرين يموتون.. يبلعهم النهر.. وفيه شباب كانوا يصيدون سمك.. سمك دجلة طيب كتير.. وكان أبوك يسبح كتير مليح.. كل الناس كانوا يحسدوه.. وإذا غرق شي حدا بالنهر يروح يغطس حتى يلاقيه..

كعادتي لم أتركها تسترسل بالحديث.. قاطعتها.. لرغبتي أن أسمع منها ماذا كانت تغني.. كنت أحب أن أعيدها إلى الماضي البعيد لتتذكر وتتكلم.. كنت أعتبر هذا الأسلوب أحد التمارين على التذكر والكلام-».

قاطعتها بقولي: «إي ماما شو غنيتي لأبوي»..

جذبت اللابتوب بكلتا يديها ليصبح قريباً منها فلم أعد أتبين وجهها بشكل صحيح.. طلبت من (ماريا) إبعاده عنها قليلاً.. لكنها تعود وتجذبه أمامها..

ولم تنتظر لأسألها مرة أخرى وبدأت تغني:

كان بدجلة عم يسبح بين السمكات

يا خوفي.. سمكة تحبو.. وآنا بالبيت

ديري بالك يا سمكة.. هيدا المحبوب

والله ع فراقو بكرا قلبي بيدوب

والله لصيدك والله وقت الغروب

وجيبك يا سمكة والله لَمقلي الزيت

وما أن لفظت مقلي الزيت حتى انفجرت (ماريا) بالضحك وبدأت تضرب كفاً بكف وترفع رجلها عن الأرض وتحط الأخرى وهي تضحك وتقوس ظهرها أمام اللابتوب.. أضحكني كثيراً هذا المشهد أكثر مما أضحكني مقلي الزيت.

سمعت والدتي تقول لها: «ايشو صابك جنيتي»..

لم أكن أقصد سوى ما أتيت على ذكره.. كانت هذه المقتطفات من الحديث معها تكاد تكون شبه يومية.. أعرف بقرارة نفسي أنني أرش السكر على الموت لكنني اعتمدته للتخفيف بعض الشيء من حالة القلق الذي أصبح سمة شخصيتي فكثير من الأصدقاء كانوا يسألونني «ليش قلقانة»..

وكيف لا أقلق وأنا أتابع (الحرب المؤامرة) على بلدي... كيف لا أقلق عليها وأحزن لما يلم بها وأخاف من الأسوأ فكانت ما تبثه الفضائيات السورية إشراقة الأمل وبارقة الضوء وعنوان النصر القادم المضرج بدماء أطفال ونساء وجنود إخوتي وأبناء جلدتي.. هذا النجيع الذي حافظ على كرامة وحرية وشرف تراب أرضي التاريخية. وأبقى الأم الخالدة مرفوعة الجبين مرهوبة الجانب فأيقنت بأن صوتها المنادي للأمن والسلام سيقوى ويعلو على أصوات المدافع وسيخرس أصوات الرصاص وستخبو نار الفتنة أمام شعلة السلام.

أذكر أنه في النصف الثاني من شهر تشرين الثاني ٢٠١٢ شاهدت بالسكايب الدكتور (رياض) يقوم بالكشف على الجسر الأمامي لأسنان والدتي ليعرف سبب قيامها بانتزاعه من مكانه بين الحين والآخر، وقام بحف أحد أطرافه حتى لا يضايقها وتبين وجود التهاب باللثة.. وصف لها الدواء.. وبعد مغادرته اتصلت ثانية عندما شاهدت السكايب مغلقاً.. وبعد ساعتين تقريباً سمعت صوت إشارة السكايب.. كانت تحاول الاتصال.. أجبتها مباشرة.. وبعدما شرحت لي كيف ذهبت إلى الصيدلية وأحضرت الدواء.. وضعت اللابتوب مقابل والدتي التي قالت عندما شاهدتني: «سهام ايشو تسوين.. تعالي عندي اشتقتولكي»..

سألتها: «ماما ليش تلعبين بأسنانك وتنزعين الجسر من مكانه»..

قالت: «ما سمعتو.. ايش تقولين..».

كررت السؤال..

فما كان منها إلا أن مدت وانتزعت جسر أسنانها..

وقالت لي:

«تقصدين هدول..!!».

ضحكت قليلاً وقلت: «نعم يا ماما أقصد هدول.. أسنانك.. لا تبقين تشيليهم من مطرحهم..».

أجابت: «أي ما بقى أشيلهم».

أين أنت.. ليش مو تجين عندي.. هون العيشة طيبة وي».

فقلت لها: «يا ماما.. من كم يوم كنت عندك.. بدي أحوش مصروفنا وأرجع عندك».

قالت: «أهلاً وسهلاً مية السلامة»!!

كانت ردود أفعالها تشبه ردود فعل طفلة يسألها أحدهم ليعلمها الأسماء.. فقد أخرجت جسر أسنانها عندما سألتها عنها لتؤكد لي بأنها فهمت قصدي.. لتقول لي: «هذه أسناني»..

عند ذلك بدأت أنفذ الحركات الرياضية التي كنت أقوم بها أمامها.. كانت تراقبني باهتمام وتصفق لي.. وبعد عدة دقائق اختلط عليها الأمر حين سمعتها تناديها وتقول لها:

«اقلبي هالتلفزيون عن (هالمرا) يلي عم ترقص وحطيلنا سلطانة»..

أُعجبت (ماريا) بهذا الكلام وأخذت تضحك وتخفي أسنانها بيدها وهي تقول: «ماما أم حنا فكرت حالها عم بتشوف مسلسل»..

فقلت لها: «أي معليش حطيلها سلطانة»..

بقيت كلماتها في ذاكرتي وصوتها في أذني.. إنها تريدني أن أكون قربها لن أبالغ إذا قلت إنها كانت تكرر هذا الطلب يومياً (أين أنت.. تعالي عندي..)، وأحياناً أتذكر قولها: «أنا هون مبسوطة».

بدأت أحدث زوجي وأحاول إقناعه أن يرافقني إلى سورية لعشرة أيام نمضيها عند والدتي خلال فترة الأعياد ورأس السنة..

لم يمانع لكنه كان مشغولاً بالبحث عن مطعم يشتريه بدلاً من المطعم الذي باعه.. إضافة لوجود التزامات عائلية ذكّرني بها.

عادةً في كل عام يصبح العمل قليلاً خلال الشهر الأخير والكثير من الدوائر التي أعمل معها تلجأ لتأجيل بعض القضايا التي تدخل في صلب عملي، وبالنتيجة (لست موظفة حكومية لأبقى أسيرة الدائرة التي أعمل بها..)

لذلك لم أتأخر بإعلام تلك الدوائر بأنني سأسافر إلى سورية كما أعلمت بذلك عائلتي.. حيث قال بعضهم.. لم يمضِ على عودتك شهر ونصف تقريباً والظروف في سورية لا تساعد كثيراً أو بالأحرى لا تشجع على السفر.. لكن ذلك لم يثنني عن رغبتي بالمجيء لمشاهدة والدتي عن قرب.

عودة سريعة إلى دمشق

قلت: «أسافر لعندها عشرة أيام وأعود قبل عطلة عيد الميلاد».. وبذلك ألبي رغبتها ولا أتغيب عن تلك الواجبات العائلية..

حجزت بطاقة الطائرة اعتباراً من ١٢/٩ ولغاية ٢٠١٢/١٢/١٩، واستمريت أتابع عملي خلال الأسبوع الأول من ذاك الشهر..

وقبل موعد السفر كنت أتحدث معها بالسكايب فكان سؤالها «ايمتا تجين عندي..؟ أول ما تتلفظ به.. سؤالها هذا كان يحرق قلبي.. فأجبتها: «ماما.. يومين وأكون عندك..».

تجيب: «اشتقتولكي.. أريد أشوفكي.. تعالي خفيف.. تعالي متل الطير..».

تم التنسيق مع السائق ليكون بانتظاري في مطار بيروت بالساعة الثانية والنصف بعد منتصف ليل ١٢/٩ لم يصدق (أبو نورس) بادئ الأمر.. لكنني أكدت له بأنني سأمضي عشرة أيام مع والدتي..

فقال: «لو أخذتيها معك وأعدتيها بعد أول السنة»..

انزعجت من كلامه وطلبت أن يعطيني رقم السائق لأتصل معه، وقلت له: «لو كنت أعلم أنها تتحمل السفر بالطائرة هذه المسافة من بيروت إلى استنبول إلى السويد إضافة للإرباك بالسفر من دمشق إلى بيروت براً لكنت أحضرتها.. أيقن عند ذلك أنني أقصد ما أقوله.. وعدني أن يكون السائق بانتظاري على موعد وصول الطائرة».

أمضيت نهاراً كاملاً أتجول في أسواق استوكهولم واشتريت لها بعض الملابس الشتوية وهدايا عيد الميلاد الذي لن أحضر مناسبته بجانبها.

بالموعد المحدد وصلت مطار بيروت حيث كان السائق في انتظاري.. وفكرت بادئ الأمر أن أذهب إلى أحد الفنادق حتى الصباح.. لكنني عدلت عن الفكرة وسألته عن أي استراحة أو كافتريا يمكن لنا أن نتناول القهوة فيها وكان قصدي من ذلك ألا نسير مسافة طويلة بهذا الوقت المتأخر.. لكنه طمأنني وقال: «الطريق آمن وقد نتأخر لنصف ساعة أو ساعة بمركز الحدود وقد ندخل الأراضي السورية مع طلوع الشمس».

بالفعل تجاوزنا المركز الحدودي بين لبنان وسورية مع خيوط الفجر الأولى.. تفاجأت (ماريا) عندما اتصلت بها خلال الطريق قبل مدخل دمشق بقليل فوجدتها تراقب وصولي عن شرفة البيت.. كانت ماتزال عيناها منتفختين من أثر النوم وكانت والدتي ماتزال في سريرها.

لم تكن وحدها التي فوجئت بوصولي بهذا الوقت وإنما كافة الأصدقاء الذين علموا بوصولي حينما اتصلت بهم خلال فترة الظهر.. ومنهم من سألني مستغرباً: «هل أنت أكيد بالسويد.. لقد ظهر على الهاتف رقمك السوري».

أجبت مَنْ التبس عليه الأمر: «إنني أشرب القهوة مع والدتي على شرفة البيت».. كان الجو بارداً بعض الشيء لكنني أعتبره بالنسبة لطقس السويد صيفاً وليس شتاءً.

كنت أفكر وأنا أنظر إلى والدتي وأسأل نفسي عن سر دعوتها لي للقدوم إليها في كل مرة أكلمها فيها.. أهو دنوّ أجلها؟ أم أنه مجرد كلام تقوله أم تتمنى رؤية ابنتها بجانبها؟ أم هي مشيئة وإرادة الله وإلهامه ألا أتردد في تلبية رغبتها؟ أم أنه (كل ذلك مجتمعاً..) فأعود للقول: «مهما كان الأمر فأنا أعرف شيئاً واحداً هو أنني لبّيت رغبتها وها هي الآن أمامي تغني معي.. تكلمني.. تسألني عن إخوتي».

فاجأني قولها: «سهام.. أريد نزور الكنيسة يلي ع راس الجبل».

استوضحت منها «هل تقصدين كنيسة جبل السيدة في مشتى الحلو» وبقرارة نفسي كنت أعرف ذلك..

لكنني وضعت احتمالاً بأنها قد تكون تقصد كنيسة دير الشيروبيم في صيدنايا.

لكنها أكدت بإجابتها أنها تقصد كنيسة جبل السيدة..

بدأت أسأل الأصدقاء عن الطريق إلى مشتى الحلو وهل هو آمن فلم أجد بينهم من تحمس لفكرة سفري إليها وغالباً ما كانت إجاباتهم "والله انت وحظك".

كان هذا الجواب يخيفني.. فكنت أمشي داخل البيت ذهاباً وإياباً وأنظر إلى وجه والدتي التي تنظر إليّ بعينين بريئتين.. قلت لها: «ماما.. بكرا نروح لمشتى الحلو.. وبعد بكرا نزور الكنيسة ونقضي يومين في البيت ونرجع للشام».

فعقبت قائلة: «توكلي على الله.. نروح خفيف ونرجع خفيف.. ومو يصيبنا شي.. لا تخافين.. الرب معنا.. أنا أصلي وأدعيلك كل يوم..» .

تلقيت كلماتها كشربة ماء بارد في صيف قائظ.. فتملكتني الجرأة والشجاعة لتلبية رغبتها..

زيارة مشتى الحلو وكنيسة الجبل

اجتمع أصدقائي وعائلاتهم مساءً عندنا.. فقلت لهم: اسمعوا جماعة.. الماما تريد زيارة مشتى الحلو والصلاة في كنيسة جبل السيدة.. وأنا سأستأجر سيارة تقلنا

إليها».. أجابني المحامي (نضال): «ليش بدك تستأجري سيارة فسيارتي موجودة ولكن السائق غير موجود حالياً..». فقال (أبو نورس).. «طالما وجدت السيارة فأنا أسافر معكم وتكون فرصة لي لزيارة أهلي..».

على هذا تم الاتفاق.. وفي صباح اليوم التالي غادرنا دمشق بالعاشرة صباحاً كانت تصلي خلال الطريق وتمسك بيدي.. تنام أحياناً لدقائق.. وعندما تفتح عينيها تقول لي: «أين مودينا هادا» فنضحك من سؤالها وأذكّرها: «ماما.. رايحين إلى مشتى الحلو انت طلبتي تزورين جبل السيدة وتصلين بالكنيسة»..

فتجيب: «فهمتو.. فهمتو.. أي صحيح.. يعمر بيته.. خليه يسوق شوي شوي.. ليش يسرع..».

وصلنا مشتى الحلو قرابة الواحدة ظهراً.. فاتصلت بمطعم البانوراما وطلبت طعام الغداء إلى البيت.. كان البيت بارداً فأشعلت عشرات الشموع مع أجهزة المكيفات حتى شعرنا بالدفء.. بينما ذهب قائد الرحلة إلى قريته على أن يأتينا في اليوم التالي.. وبذلك تكون والدتي قد أخذت قسطاً من الراحة.. فقد وصلت متعبة.

لم تنم جيداً تلك الليلة ويبدو أنها تأثرت بالبرد فتقيأت عدة مرات حيث اتصلت بالطبيب الذي أعرفه سابقاً، (فقد اشتريت البيت منه)... لم يتأخر بتلبية اتصالي فحضر وأعطاها إبرتين في العضل حتى هدأت وخلدت إلى النوم..

اتصلت صباحاً مع صديقنا وأخبرته بما حصل معنا وبأن يأخذ راحته عند أهله ولا يأتي إلينا باكراً.. وإذا تحسنت حالتها بعد الظهر فيمكن أن نذهب إلى الجبل، ومن المحتمل تأجيل ذلك إلى اليوم التالي ريثما أطمئن على سلامتها.

مضى اليوم التالي ونحن في البيت فلم يكن الطقس مشجعاً للصعود إلى الجبل لكن والدتي بدأت بالتحسن والعودة إلى طبيعتها.. وبعد الظهر اتصلت مع صاحبة صالون الحلاقة التي لم تتأخر بالحضور وقامت بقص وتسوية

شعرها الذي شوهته (روما) سابقاً حين كانت تصبغه لها، لأنها قامت بقص أطرافه وفي كل مرة تُقصّره من جانب بدون أن تخبرني أو تطلب من الحلاق (مصطفى) الحضور لعندها.. وعندما سألت (أبو نورس) بذلك الوقت: «كيف حصل ذلك»..

ضحك قائلاً: «ليش لحد هلق ما انتبهت بأن (روما) كانت تعاني من الحول بإحدى عينيها، وعلى ما يبدو فإنها عندما قصت لها بعض أطراف شعرها كانت ترى الأطراف الأخرى أطول وهكذا بدأت تقص منه ظناً منها بأنها ستتمكن من تسويته.. فكان أن شوهته».

سألتني الحلاقة: «مين يلي نازع شعرها» قلت لها: «حلاقة حولا»..

أمضينا ذلك اليوم في البيت –كما أسلفت–حتى استعادت قواها وتركيزها وبدأت تتحدث معنا وتصلي، لكن انقطاع الكهرباء حرمها من متابعة (مسلسل سلطانة) وقد طالبتني أن أفتح لها التلفزيون لتشاهده أكثر من مرة.

أطل صباح اليوم الثالث لوجودنا في البيت وكانت علائم الدفء واضحة منذ بدايته.. فاتصلت مع الأخ المحترم واتفقنا أن نأخذها إلى كنيسة الجبل قبل الظهر لنصلي فيها ونذهب في جولة إلى طرطوس لتشاهد البحر وتمشي على رصيفه ولو لدقائق معدودة.

بالساعة العاشرة صباحاً كان لها ما أرادت وبعد أن أدت صلاتها وأشعلت شموعها توجهنا إلى طرطوس.. كان موج البحر مرتفعاً قليلاً.. تجولنا على امتداد الكورنيش الرائع وتوقفنا قرب نهايته الجنوبية.. أنزلناها من السيارة واقتربنا من الصخور التي تستقبل الأمواج واستمعت لصوت هديرها قادمة بتتابع مشيرة لتلاشيها على صدور تلك الصخور.. فبينهما علاقة أبدية وحديث أزلي تارة يعلو وتارة يخبو.

سألتها: «ماما هل سبحت في البحر يوماً من الأيام؟».

أجابتني: «أين أسبح يابو.. بالحسكة أو بالقامشلي.. ما سبحتو فيه بعمري.. كنتو أسبح أنا و(سعدى) ونطير بالهوى..».

رأيت الخادمة مندهشة بما تشاهده.. وسألتني: «ماما شايفة بيوت قبالنا وسط البحر.. تقصد (جزيرة أرواد)» واستفسرت إن كانت مسكونة من البشر.. فشرحت لها أنها تسمى جزيرة ويعيش فيها الكثير من البشر وسيارتهم إليها السفينة أو الزورق..

من أخلاق السوريين

غادرنا المكان بحثاً عن مطعم لتناول الغداء وبعد السؤال أرشدنا أحد الأصدقاء إلى مطعم خارج طرطوس يقع بجانب الطريق تحيط به أشجار الزيتون والزيزفون، شاهدنا صاحبه فساعد والدتي للنزول من السيارة حيث استندت على عربتها ودفعتها أمامها فتقدم نحونا مرحباً ومعتذراً بالوقت نفسه بقوله: «أهلاً وسهلاً.. أنا آسف اليوم عندنا حفلة عرس.. والصالة محجوزة..».

سمعني أقول بعد أن شكرناه على ما تلفظ به من عبارات الترحيب والأسف «خلينا نروح إلى الفندق فقد أصبحت (أم حنا) بحاجة إلى الحمام فهي لا تستطيع التحمل مثل الشباب»..

أما هي فسألتني: «سهام: إيش.. صار.. ليش نرجع السيارة؟ هون الجو طيب»..

وصلت كلماتها هذه أذن صاحب المطعم الذي قال مباشرة «لحظة.. لحظة.. تفضلوا والله ما بقى تروحوا.. كرمال هالختيارة»..

حاولت الاعتذار فأنا أعرف مدى الإرباك الذي يسببه مثل هذا الموقف لكنه تقدم وساعدها بالمشي حتى صعدت عدة درجات، حيث طلب أحد عماله قائلاً له: «ساعد الأخت وأرشدها إلى الحمامات فوالدتها تحتاج إليها»، وخصص لنا طاولة بجانب واجهة من الزجاج تشرف على بستان محيط

بالمطعم تختلط فيه طيور الدجاج مع عصافير الدوري بين الورود والأعشاب.. ولم تمضِ دقائق حتى بدأ يرسل لنا أطباق الصلطة والزيتون وطبق آخر أحضره بنفسه قائلاً: «هذه أكلة شعبية عندنا هون بطرطوس اسمها (شعيفورة) ويسمونها (شنكليش).. بيصير شعيفورة عندما نفرم معه البصل والبندورة» وهلق بنزلكم المشاوي.. وأقترح أن يقدم لوالدتي اللحمة المفرومة والمشوية بالسيخ ليسهل عليها مضغها (كفتا)..

بهذه المحبة التي أبداها وهذا الجو الطيب تناولنا غداءنا وعندما أردنا المغادرة عاد ليودعنا قائلاً: «اعتبروا هالغدا ع حسابنا.. زارتنا البركة بوجود هالختيارة.. لما شفتها.. كأني شايف أمي» لم أقبل أن أغادر حتى دفعت له قيمة الغداء وساعدنا ثانية بإيصال والدتي إلى السيارة.. وبقي واقفاً مبتسماً ملوحاً بيده حتى انعطفنا عن المدخل الرئيسي للمطعم.. هذه هي أخلاق السوريين.. وإرثهم الذي يباهون فيه العالم... ابتسامتهم وكرمهم وشهامتهم وثقافتهم كانت سفيرهم إلى البشرية عبر تاريخهم.

توجهنا في زيارة مفاجئة وغير متفق عليها إلى منزل (أم مهاب) الذي لم يكن يبعد عن المكان أكثر من ١٠ كم حيث اتصلت معهم بعد مغادرتنا المطعم فاستقبلتنا العائلة الكريمة بالترحيب، ولا أنسى كيف بادر ابنها مجد لمساعدة والدتي حتى جلست على كرسيها وسمعنا عبارات اللوم والعتب عندما علموا بأننا تناولنا الغداء في المطعم.

أمضينا ساعة تقريباً في ضيافتهم حيث تجولت بين الأشجار النادرة حول البيت والورد بأنواعها حتى غدا محيط البيت كلوحة رسمتها يدُ فنانٍ ملهم..

شعرت والدتي بالارتياح عندهم وأجابتني عندما سألتها عن شعورها ورأيها بالحياة في سورية، حيث قالت: «سورية أم الدنيا.. أيامنا ما كان فيها شخص جوعان.. سورية أم الفقير.. أين ما نروح فيها يقولولك أهلاً وسهلاً.. أين نلاقي متلها بهالدنيا.. الله يحميها.. ما فيه أحسن من رئيسها بكل الدنيا..».

كلمات قليلة وعبارات مقتضية تلفظت فيها لخصت بها حقائق تاريخية كانت ومازالت مصدر فخر واعتزاز أبناء سورية الشرفاء.

حاولوا إبقاءنا عندهم تلك الليلة فاعتذرت لهم لأن عودتنا إلى دمشق ستكون في اليوم التالي (هكذا أجبتهم)، فكان لابد من العودة إلى المشتى لتوضيب البيت.

بدأ الطقس بالتغير وأصبح أكثر برودة من الصباح حين وصلنا المشتى أمضينا تلك السهرة بوجود بيت (أبو إبراهيم) و(أم منير) التي تحدثت مع والدتي.

خيّم الصمت لعدة دقائق فقالت (أم منير) «إن شاء الله تبقوا بخير.. هلق بتنقطع الكهربا..» هكذا انتهت تلك السهرة بوداعهم.. وبعد مغادرتهم توجهت إلى سريرها.. بينما قمت بتجهيز ما سأحمله معي لدمشق وتغطية الأغراض والأثاث داخل البيت حماية من الرطوبة والغبار.. بقيت حتى ساعة متأخرة وأنا مشغولة التفكير في تحليل ما سمعته منها.

والدتي وشجرة البطم

بالساعة العاشرة والنصف من صباح اليوم التالي غادرنا البيت كانت تلك الرحلة استجابة لرغبة والدتي، وعند صعودنا السيارة اقترحت التوجه إلى قمة الجبل لنشعل بعض الشموع من أجل خلاص سورية من محنتها وطلب الرحمة لأرواح أطفالها وجنودها الذين طالتهم يد الإرهاب ومزقت أجسادهم هدايا الجيران وبعض العرب..

كانت قمة الجبل بادية للنظر كأنها تدعونا لزيارة كنيستها وتوديع شجرة البطم العتيقة فوق تلك القمة الشمّاء.

انطلقنا إليها نلبي دعوتها.. وصلنا بدقائق معدودات لم نجد أحداً سوى ساعور الكنيسة.. رحب بنا.. لم نتأخر في دخول الكنيسة فالهواء بارد قليلاً.. أعطيت والدتي مبلغاً وضعته في صندوق التبرع أشعلت شمعة قالت: «هذه عن

أولاد حنا.. وأخرى قالت عنها إنها عن روح والدي وروح أخي نبيل..»، ثم قالت: «سهام وديني لقدام وأشارت إلى شجرة البطم الغير بعيدة عنها..» ساعدتها حتى وصلت إليها.. وضعت يدها على جذعها ورمت أعلاها بنظرها.. خاطبتها:

«خاطرك يا رفيقتي.. خاطرك.. أعرف ما بقى تشوفيني.. حين تشوفين ختيارة متلي قوليلها.. أنا رفيقتي (أم حنا).. كانت تزورني وتحكيني.. كل سنة سهام تجي عندك تسلم عليكي عني.. هلق رايحين الشام.. خاطرك».

وربتت بكفها المرتجف فوق ذلك الجذع الذي يختزن بداخله ملايين الصور والكلمات التي سمعها عبر السنين التي مر عليه فيها الكثير من البشر من المؤمنين والشباب طلاب الحياة..

لم أعقب على ما قالته.. لم أقل ولا أي كلمة.. مشيت بجانبها أتأبط ذراعها حتى وصلنا السيارة.. كانت دموعي تنهمر.. لم أمسحها تركت لها التعبير عمّ يجول بخاطري وعن صمت اللسان..

غادرنا المكان وعدنا إلى الطريق من الطرف الجنوبي للمشتى باتجاه حمص فاشتريت عدداً من صناديق التفاح الطازج المصفوف بعناية على جانبي الطريق قبل غابة الكستناء هدايا للأصدقاء..

وصلنا دمشق قرابة الثالثة بعد الظهر.. لم نشاهد ما يزعجنا خلال الطريق على الإطلاق لكنه لم يكن مكتظاً بالسيارات كعادته.

أمضيت ما تبقى من تلك الأيام القصيرة والسريعة حتى حانَ موعد سفري.

وفي الليلة الأخيرة قلت لها: "ماما أنا بكرا بدي أسافر عندي واجبات بالسويد.. يلزم أكون موجودة".

أجابتني: «سافري يابو.. سافري وسلمي على زوجك وبناتك والصغار.. قولي لأخوك منتاز يجي لعندي خفيف.. منتاز الصغيروي.. أحب أشوفه..».

تناولت الغداء الأخير في اليوم التالي برفقتها وما أن انتهينا من الطعام حتى توافد الأصدقاء مودعين فأعطيتهم ما أحضرته لهم من التفاح وأبقيت قسماً تحت تصرف الخادمة.

وبالساعة الخامسة مساءً جاء السائق (أبو رسول) الذي شاهدته (ماريا) عن الشرفة عندما توقف بسيارته أمام البناء.. وبعد أن تناولنا القهوة بحضوره.. توجهت إلى والدتي فقبّلت يدها ووجهها فاحتضنت رأسي بين يديها تقبله.. قائلة: «الرب معك.. العدرا تحميك.. حين توصلين كلميني يابو».

وصلنا مطار بيروت قرابة التاسعة مساءً فبقيت منتظرة بصالة المطار حتى بدأت إجراءات دخول الركاب المسافرين إلى استنبول، سحبت حقيبتي وعبرت البوابات بصمت حتى سمعت صوت الدعوة للتوجه إلى البوابة المؤدية إلى الطائرة..

وعندما أخذت مكاني في مقعد الطائرة.. أغمضت عيني وبدأت أستعرض شريط هذه الرحلة القصيرة.. كانت فترة الانتظار في مطار استنبول قصيرة.. حيث وصلت مطار استوكهولم قبل الظهر.. هذه الحالة كانت مكررة في كل مرة أسافر فيها بين دمشق والسويد.

عند وصولي البيت اتصلت مع والدتي.. أخبرتني (ماريا) أنها نائمة.. قلت لها: «اتركيها مرتاحة سأتصل لاحقاً».

دور سورية عبر التاريخ

كانت فترة الأعياد مناسبة لزيارة الأقارب والأصدقاء، وغالباً ما كنا نبتعد عن الحديث عن مناسبة العيد أو المناسبات الشخصية والاجتماعية لنتحدث عن سورية والأحداث المتقلبة والتي تزداد دمويتها يوماً بعد يوم، حتى أنني قلت لبعض الاقارب والأصدقاء لا يجوز أن نسميها أحداث سورية وإنما الحرب على سورية..

كانت أحاديثنا تدور حول هذا المحور سواء في البيت أم العمل وحتى بالهاتف، فما أن يتصل معي أي صديق حتى ندخل بعد عبارة المجاملة الأولى في تحليل الأخبار المتعلقة بسورية..

لم تكن سورية تستحق مجرد الحديث عنها والبكاء عليها.. سورية.. هذه الأم المعطاء تستحق بذل الدماء رخيصة في الدفاع عنها وحماية ترابها..

لا يُملّ التكرار في هذا الموضوع أبداً.. فلو حاولنا أن نبحث عن ذنب ارتكبته أم التاريخ؟ وأي فعل شائن اقترفته أم الحضارة؟ وأي كفرٍ وإلحاد اعتنقته مالكة أرض الديانات؟ وأي جناية اقترفتها بحق من تعلم الأبجدية نقلاً عن حجارة أرضها؟ لن نجد لذلك جواباً سوى بأنّ ذنبها أنها صاحبة المدارس الأولى للترجمة عبر التاريخ (الرها ونصيبين) التي نقلت شتى أنواع العلوم بين العرب والفرس والرومان، وكانت جسر عبور لثقافة العقل البشري..

وفعلها الشائن أنها قدمت للبشرية أول سلم موسيقي مازالت أجيال الشرق والغرب ترقص وتغني على أنغامه..

أما كفرها وإلحادها أنها استقبلت الأنبياء وعلى أرضها تلقوا الرسالات وزارهم وحي الإله..

وأما جنايتها المتهمة بها فهي إبداعها الحرف الساكن والمتحرك ومنظومة الأبجدية التي نقشتها على حجارتها واحتفظت بها قروناً من الزمن لتقدمها لأولئك الذين يخاطبونها اليوم بالكلمات المصاغة من تلك الحروف.. تلك الحروف التي ميزتهم عن البهائم.. فاتخذوا صفة البشر..

هذه سورية الأم الخالدة التي تعاقب على ما نضح به إناؤها فأشبعت مشارق الأرض ومغاربها من ذاكَ الإناء.. الذي مازال ثراً مليئاً.. سيبقى ينضح إشعاعاً ونوراً يضيء راية النصر القادمة تلوح فوق جبينها..

لم يكن يوماً يمضي بدون جدال ونقاش وكل فريق يقدم حججه وإثباتاته ليدعم رأيه.. الجميع بالنهاية كانوا متفقين على أمرٍ جامع وهو أن سورية الأم العظيمة يجب أن تبقى حيّة تؤدي رسالتها الإنسانية لجميع البشر.

فجميع أبنائها يسمعون صوتها عالياً تناديهم.. تستعتبهم.. تصفح عن أخطائهم.. وعدتهم بأنها ستحتضنهم جميعاً.

والتفاضل بينهم بالنسبة لها هو بمقدار حبهم لها.. فحبها لهم مؤكد لا تشوبه شائبة فقلبها ينفطر حزناً عليهم.. تنادي القريب منهم والبعيد ليجلسوا في فيء ظلال تاريخها الذي تباهي به أمم العالم أجمع.

كثيراً ما شاركت في نقاشات تحمل أبعاداً تاريخية وجغرافية وحضارية حول دور سورية عبر التاريخ سواء من خلال ندوات أم مقابلات أم مقالات أم عبر وسائل التواصل الاجتماعي.

بقرة العم شمو..

أثناء إجازتي الأخيرة التي أمضيتها برفقة والدتي سألتها عندما كنا في مشتى الحلو أن تقص علينا حكاية جديدة من حكاياتها التي تعودت أن أسمعها منها في كل إجازة أقضيها معها وذلك بعد سماعنا لنشرة أخبار تلفزيون الجديد التي كانت مليئة بالصور المؤلمة عن الحرب في سورية. حيث حدثتنا بلهجتها العامية عن قصة عاشتها مع والدها عندما كانت طفلة صغيرة، ونظراً لرمزيتها وأهميتها فقد كتبتها كما سمعتها منها ولكن باللغة الفصحى ووضعت لها عنوان (بقرة العم شمو) حيث أجابتني على طلبي بذلك الوقت قائلةً:

(قبل أكثر من ستين عاماً من هذا الزمن العجيب حين كنت ألهو وألعب مع إخوتي في فسحة واسعة أمام بيتنا، وكان أبي وأمي يفرشان مغلي العنب فوق قطع مستطيلة الشكل من الخام الأبيض على سطح بيتنا الترابي من أجل تنشيفه تحت أشعة الشمس والهواء ليكون أحد أهم مؤونة الشتاء، وهو المعروف باسم (الملبن)، ناداني أبي وهو فوق السطح قائلاً: «انتبهي انتبهي» وأشار بيده وكأنه ينذرني من خطر قادم، عندها نظرت إلى الجهة التي أشار إليها بيده رأيت جارنا رحمه الله وكان اسمه (شمو) في العقد السابع من عمره وهو يقود بقرة

كبيرة يتبعها عجلها الصغير الذي كان يجري بسرعة تارة أمامها وتارة من خلفها وكأنه يريد اللعب.

وكما يقول المثل (الأكبر منك بيوم أخبر منك بسنة) كان العم شمو- هكذا كنا نحن الصغار نناديه- ممسكاً بكمية من أوراق الذرة الخضراء يلوح بها للعجل الصغير إذا ابتعد فيعود مسرعاً إليه فيكافئه بورقة خضراء، وعندما وصل أمام بيتنا قال له أبي من مكانه فوق السطح: «ما شاء الله، الله يبارك لك بهذه البقرة واضح أنها أصيلة» فأجابه العم شمو شاكراً مباركته وأخبره بأنه اشتراها مع عجلها لتعينه في إطعام أولاده الصغار، وفي المساء قال أبي محدثاً أمي: «لقد مَنَّ الله على جارنا شمو بتلك البقرة» ثم أوصاها أن تشتري الحليب واللبن من زوجة العم شمو إذا أرادت شيئاً من هذا القبيل.

وفي تلك الفترة انتشر خبرٌ بين جميع الأقارب والجيران وفي الحارات المجاورة بأن العم شمو قد اشترى بقرةً حلوباً، وكان لعدة أيام يسمع عبارات المباركة بالبقرة وغدا مشهده مألوفاً: ففي كل صباح كان يأخذها لتأكل المرعى ويعود بها بعد الظهر، لقد كنت أتبعه في طريق عودته وهو يقود بقرته كغيري من الأطفال لأضع كفي على جلدها الناعم وأرافقها حتى دخولها خلف العم شمو إلى داره.

وللإنصاف أقول إن العم شمو وزوجته لم يبخلا يوماً في توزيع بعض الحليب على جيرانهما حتى أنهما إذا سمعا بمرض أي كبير أو صغير من أبناء الحارة يذهبان لزيارته ويحملان له اللبن أو الحليب، وأنا على يقين بأن كل أبناء الحارة وأقارب العم شمو وجيرانه قد شربوا من حليب تلك البقرة وأكلوا من لبنها على مدار عدة سنوات، حتى أنهم كانوا يصنعون من فضلاتها بعد خلطها بالتبن أقراصاً يلصقونها على الجدران ويتركونها لتجف وتصبح يابسة لكي تستخدم في إشعال مدافئ الحطب والتدفئة، ومنهم من كان يجمع فضلاتها لتسميد أرضه، وهكذا مضت خمس سنوات وأنا أرى العم شمو غادياً بادياً يقود

بقرته التي لم تخذله بالعطاء، لذلك لم يبخل هو وزوجته يوماً بتوزيع الحليب واللبن على الأقارب والجيران، والذي أعجبني أنهما نظّما لذلك دوراً كي ينعم الجميع بهذه الخيرات التي أغدقها الرب عليه.

وفي صبيحة يوم ربيعي جميل سمعت صوت العم شمو ينادي أهل الحارة ومنهم والدي طالباً المساعدة فقد انزلقت بقرته على منعطف قريب وانكسرت رجلها، فلم يتأخروا في تلبية ندائه وخرجوا من بيوتهم مسرعين إليه، وكعادة الأولاد أن يتبعوا الكبار فقد استنفر كل أولاد الحارة، ولحقنا بالعم شمو وبالذين هبوا لنجدته. ويا لهول ما رأيت فقد كانت بقرته طريحة الأرض الغارقة بالمياه وهي تحاول النهوض وتحرك أطرافها، تارة إلى اليمين وتارة إلى الشمال، وأحياناً تلكم الهواء. وبصعوبة كبيرة تمكن الرجال الذين أحضروا الحبال وسلماً خشبياً من سحبها وتثبيتها فوق السلم وشد وثاقها عليه، ثم قاموا بسحبها قليلاً وكانوا يحاولون رفعها عن الأرض حتى يتمكنوا من زحزحتها لعدة أمتار وفحص إصابتها وهي مشدودة الوثاق، وأجمعت آراؤهم أن ليس لها شفاء فرجلها مكسورة وعظم الفخذ منها كان واضحاً وقد اخترق لحمها وجلدها- فيا لفظاعة المنظر، وغلب البكاء على العم شمو وزوجته وخيم الوجوم على الوجوه فالخسارة ألمّت بالجميع، ولم يطل المقام بهم على هذه الحالة حتى انبرى أحد الجيران وكان قصاباً وقال للعم شمو: من الأفضل ألا نترك البقرة هكذا وهي ستموت. وأبدى أسفه فالبقرة سمينة كبيرة ولا يمكن نقلها بعيداً عن المكان. وبصوت حزين تخنقه الدموع أجابه العم شمو: «وما العمل؟» وأعتقدُ أن الجميع حينها قد علموا بما لمّح إليه ذلك القصابْ لكنهم ظلوا على وجومهم بصمت حزين، ولم يطل تفكير القصاب فأجاب قائلاً: «من الأفضل أن نذبحها ونبيع لحمها فيكون ذلك تعويضاً لك على خسارتها» وهذا ما زاد من بكاء العم شمو وزوجته. لم يعترض أحدٌ من الحضور، فأدرك العم شمو أن جميعهم مع هذا الرأي فأخذ بيد زوجته لأنه لم يكن يريد لها أن تشهد ذبح بقرته، واتجها ودموع

الحزن تغرق عينيهما حتى دخلا بيتهما وكان بعضهم يصبرهما على هذا المصاب، فأدرك القصاب أن مغادرة العم شمو وزوجته المكان علامة الموافقة والقبول بذبح البقرة المسكينة، وأسرع إلى محله وأحضر سكينه الكبيرة، وكان الجمع ينظرون إليه وهو يقترب بكل حزم وتصميم منها وهي تنظر إليه بلا حول لها ولا قوة وكأنها أدركت غايته. وإن نسيت فلن أنسى دموعها كيف تدفقت من عينيها حين قام بعضهم بالضغط على جسدها لزيادة تثبيتها فوق السلم، ومنهم من قام بتثبيت يديها. وأمسك القصاب برأسها وجذبه قليلاً للأعلى حتى تبينت له من رقبتها نقطة مذبحها، فعمد إلى نحرها، ورأيت كيف نفرت الدماء كالماء الذي ينطلق من الخرطوم... ولم يتأخر بعض الحضور فاستلوا سكاكينهم بحجة مساعدة القصاب في إنجاز عمله وبدؤوا بسلخ جلدها وكنت أسمعهم، فمنهم من كان يريد أن يأخذ رأسها وآخر كان يريد أخذ ما يؤكل من أحشائها، ومنهم من طلب أن يبقى بعض اللحم على أضلاعها وهكذا شاركوا في اقتسام جسد بقرة أطعمتهم لخمس سنوات.

وقبل أن يبدؤوا بتقطيعها سحبني والدي من يدي واتجهنا إلى بيتنا بحزن، وقال لي: «اسمعي بنيتي ما أقوله لك وما سمعته من أجدادك وخذي عبرة بما رأت عيناك فالمثل يقول (البقرة التي تقع تكثر سكاكينها)».

تأثرت كثيراً بهذه الحكاية ورمزيتها المؤلمة.. كان شعوري بما تعانيه أمي ملهماً لي رغم مأساوية هذا الشعور.. فكنت أسأل نفسي أحياناً.. هل هذه المشاعر التي تتملكني موجودة عند الآخرين بالدرجة نفسها أم أنني أبالغ فيما أذهب إليه من سفر واهتمام لحظي.. أم أنه مرض أعانيه لم يكتشفه الطب الحديث ولم تظهره كافة التحاليل التي أجريتها.. أهو مرض ينتقل بالعدوى أم أنه مرض وراثي؟..

سألت نفسي مراراً مثل هذه الأسئلة.. فأعود بعد حين وأجيب ذاتي..

لا دخل لي بما يشعر به الآخرون تجاه أمهاتهم..

ولا دخل لهم إن بالغت في حب والدتي..

وأما أنه قد يكون مرضاً.. فيا مرحباً بهكذا مرض.. حب الأم.. تبجيلها.. تعظيمها.. وصية الإله.. أيقونة السلام.. نبع الحنان.. كهف الأمان.. لن أذهب لأي مشفى أو طبيب ولن ألجأ إلى التمائم والحجب كي أشفى من هذا المرض.

حين كنت أفكر في هذا الجانب من علاقتي بوالدتي وصلتني صورتها وهي تمشي على رصيف الأوتستراد المعروف باسم المتحلق الجنوبي ترتدي ملابسها الشتوية.. كانت السماء تبدو من خلال الصورة صافية والشمس ساطعة كانت تقف بجانب إحدى شجيرات النخيل الشابة بينما والدتي نخلة أتعبتها السنون وأرهقتها الأيام وأوحشتها الوحدة فاشتعلت النار في داخلي..

إنذار مقلق

وعند المساء فتحت (السكايب) كانتا تتابعان التلفزيون فسألت الخادمة: «أنا شايفة أمي عم تنحف.. لم تكن صحتها هكذا قبل شهرين»..

أجابتني: «عم طعميها أحسن شي.. وهي أحياناً لا تأكل كم لقمة بعدين بتقول.. شبعتو».

قلت لها: «الآن لدي عمل وبعد ساعة يحين موعد عشائها.. سوف أشاهدها وهي تأكل طعامها».. وبالساعة السادسة كنت أتابع النظر إلى كاميرا السكايب عندما وضعت طبق الطعام أمامها.. رأيتها تتناول عدة قطع من الموز المقطع.. فقلت لها: «ماما كلي اللبن مع الكورنفليكس بالأول».. نظرت إليّ ومدت يدها بقطعة موز قائلة: «خدي كلي معنا وضحكت.. أشوفك بالتلفزيون ليش مو تجين هون».. كررت طلبي منها أن تأكل اللبن أولاً..

فأجابت: «يابو.. أعرف.. أعرف.. هلق تشوفين.. مفتح التم (الفم) لقمة»..

رأيت يدها ترتجف بشدة وهي تحاول إيصال الملعقة إلى فمها فينسكب ما تحمله تلك الملعقة على حواف الطبق وأحياناً على ثيابها..

بدأت (ماريا) تطعمها بيدها.. كانت تأكل وبالوقت نفسه تنظر باتجاه التلفزيون وإلى شاشة السكايب..

طلبت منها إطفاء التلفزيون ريثما تكمل عشاءها.. وعندما أطفأته سمعتها تقول لها: «ليش تطفيه.. أشعليه.. أشوف الأخبار..».

لم تأكل كثيراً وبدأت تلفظ ما تطعمه لها من فمها فيتساقط على ثيابها.. فسألتها: «ماما كملي أكلك ليش مو تاكلين مليح»..

ردّت عليّ: «اكتفيتو.. اكتفيتو.. ما بقى فيني.. الحمد لله شبعتو».

تألمت جداً.. اتصلت مع الأخ (أبو نورس) من أجل استشارة طبيب وإجراء تحاليل لها لأنني اعتبرت ذلك إنذاراً مقلقاً.

في اليوم التالي علمت بأن الدكتور (هيثم) زارها في البيت حيث حضر مندوب مخبر القطرنجي وسحب لها كمية الدم اللازمة مع عيّنة (بولية) للتحليل.

تشوشت أفكاري ولم أعد أركز في عملي ولا قيادة السيارة وأصبح عقلي منصرفاً إليها.. فلم أتردد في حجز بطاقة الطائرة قبل نهاية شهر شباط بثلاثة أيام لمدة أسبوع واحد.. وأخبرت زوجي بأنني سأسافر لمدة أسبوع لأن والدتي ليست على ما يرام حتى ولو كانت نتيجة التحليل تشير للاطمئنان.. لم يعترض أبداً بل قال: «لولا أنني مشغول لكنت رافقتك».

تحدثت معها وسألتها «إن كانت تريد أي شيء من السويد لأني حجزت بطاقة الطائرة للمجيء لعندها».. قالت: «سهام.. لا تخافين يابو.. خليكي بشغلك.. أنا كويسة.. أنا مليحة».. حدثتها حين كانت تمشي داخل الصالون

حيث كانت تتوقف قليلاً لتجيبني بكلمة أو عبارة وتدفع (العربة) أمامها فأبقى منتظرة عودتها من الطرف الآخر من الصالون حيث تتوقف أمام الشاشة تنظر إليّ وتكمل مشيها..

قرأت في حركتها هذه وكأنها تقول لي: «الحقيني».. حتى وإن لم تلفظها.

تفاجأ بعض الأصدقاء بأنني سأكون في دمشق خلال ٤٨ ساعة..

اطمأنيت عندما تم التنسيق مع السائق ليكون في انتظاري بمطار بيروت حيث حجزت على رحلة تصل بيروت بالثانية والنصف بعد الظهر من مطار استنبول.

كان الوقت ضيقاً فلم أتمكن من شراء المزيد لها.. لكنني أحضرت لها من بين الأشياء التي اشتريتها حذاء (بوط) شتوياً –ظناً مني بأنه قد يثبت قدميها ويعطيها ثقة أكبر أثناء المشي–..

قبل توجهي إلى المطار تحدثت بـ(السكايب) قلت لها: «ماما.. أنا اليوم سآتي لعندك.. إيش تريدين..». أجابت: «يابو ليش تتعذبين.. أمس شفتوكي أنا هون مبسوطة كتير».

جرحني جوابها وآلمني جداً . بالتأكيد هي لم تقصد ذلك . وبالموعد المتفق عليه وصلت مطار بيروت.. شاهدني السائق عند خروجي من بوابة القدوم وساعدني في إيصال الحقائب إلى سيارته.. سألني إن كنت أريد شيئاً من بيروت قبل التوجه إلى دمشق.. فقلت له: «بوجهك للشام.. لا أريد سوى الوصول باكراً»..

استغرب هو الآخر عودتي وسألني عن صحة الوالدة.. وهل حصل أي عارض صحي لها.. أجبته بأنها بخير لكنني أحببت الاطمئنان عليها بعد مشاهدتي لها بـ (السكايب) تترنح في مشيتها.

زيارة سريعة إلى دمشق

بعد ساعتين ونصف تقريباً وصلنا دمشق حيث وجدتهما تمشيان على الرصيف أمام البيت.. فقد انتبهت الخادمة لوجودي داخل السيارة فتوقفت وعادت برفقتها وعندما شاهدتني.. قالت: «سهام وي وصلت هلق». ابتسمت وقبلتها وساعدتها في صعود الدرج للطابق الثالث فقد كانت الكهرباء مقطوعة في هذه اللحظة.. استغرق صعودنا الدرج عشر دقائق تماماً.. كانت تستند على الحائط بنهاية كل خمس درجات تقريباً..

شعرت بالخوف عندما أصبح صوت نفسها مرتفعاً يشوبه صوت يشبه الصفير الخفيف، سألتها: «ماما.. نحملك ونريحك من هالدرج»..

أجابتني بما لا أتوقعه أبداً.. (فرغم تعبها وأنفاسها المرتفعة..) حين قالت: «يابو.. تحمليني هلق.. بكرا مين يحملني.. خليني هيك أتعود كل مرة اطلع واستند عالحيط.. صارت الحيطان ترحمني أكثر من..... لم تكمل عبارتها.. يابو.. قربت أيامي.. انت عملتي يلي قدرتي تعمليه الله يسترك.. والعدرا تحميك.. كيف ما درتين وجهكي»..

بعد استراحة قصيرة اتصلت بالدكتور (هيثم) الذي قال إنه كان على وشك مغادرته المشفى..

لم يتأخر وصوله عندنا.. أجرى لها كشفاً كاملاً (ضغط، تنفس، أوكسجين الدم) كان كل شيء على ما يرام.. قيّم وضعها بأنه جيد حتى الآن، وقال: «لازم نشكرها أنها ما تزال تقاوم الزهايمر حتى الآن.. اشكري ربك أنها تقوم وتمشي وتأكل بيدها».

وتحدث عن حالات مشابهة لمرضى لا يتحرك فيهم سوى عيونهم..

اصطحبتها في اليوم التالي إلى مشفى دار الشفاء وتم إجراء فحوص وتحاليل جديدة وصور شعاعية لرئتيها وتخطيط لقلبها.. ثم أعدتها للبيت فلم تكن حالتها تستدعي بقاءها في المشفى..

عندما وصلنا إلى البيت قالت: «يابو.. حاجتك تتعذبين.. رايحة وجاي.. حاجي يشكوني إبر ويسقوني دوا.. أنا أعرف كل هالتعب عالفاضي.. أنا كبرتو.. صرتو ختيارة.. ما بقى اتعوّق (تتأخر) عن أمي»..

كان وجودي بذلك الوقت في دمشق مناسب لاجتماع الأصدقاء حتى أن بعضهم قال: «آخر مرة اجتمعنا مع بعضنا كانت عندك هون بالبيت».. فهم معذورون لأن الأحداث اليومية وانشغالهم بأعمالها تحيل علاقتهم إلى تواصل هاتفي أكثر منها لقاءات شخصية.

ولم تكن أحاديثنا تختلف عن الأحاديث التي كانت تدور بيننا في الإجازات السابقة سوى ما يتعلق منها بمستجدات الأوضاع في سورية، ومنهم من علق على المقالات التي كتبتها ونشرها موقع (الرأي السوري) وجريدة (الوطن) بإيجابية..

استيقظت صباح اليوم التالي على صوت والدتي المرتفع تقول: «روحي افتحي الباب خفيف».

توجهت إليها وقبّلت يدها ووجهها.. قلت لها:

«خير إن شاء الله يا أم حنا.. ليش تصرخين»؟

أجابتني: «شوفي هالملعونة ما سمعت كلامي.. أمي كانت عندي هون قاعدة عالتخت جنبي وطلعت لبرا.. والهوى طبق الباب خلفها مو تقدر تفوت كرّة (مَرَة) تانية.. قوليلها تروح تفتح الباب»..

قالت هذا بصوت مرتفع وعصبية واضحة وهمّت أكثر من مرة تحاول النهوض من فراشها لتفتح الباب.

فقلت لها: «روقي أم حنا روقي أنا رايحة افتح الباب».. كان سريرها مقابلاً لباب البيت تماماً.. شاهدتني أفتح الباب وألتفت يمنةً ويسرة وتركته

مفتوحاً وعدت لعندها «ماما يمكن ميمي (جدتي) راحت.. ما شفتوها برا البيت.. يمكن راحت تشتري شي غرض وترجع»..

أجابتني: «صيحيلي هالملعونة بدي اعتدل (اضربها) عليها بالعصا..».

اقتربت (ماريا) مندهشة وجلست أمامها.. فأخذت تضع كفها على كتفها بحركة تشبه الضرب.. كان كفها يرتجف ارتجافاً فوق كتفها وهي تقول: «لما ترجع أمي هون لا تخلين الباب مفتوح حتى ما تروح».

وبعد أن هدأت قليلاً ساعدتها في الاستحمام وتناولت طعامها ودواءها وأجلستها على كرسيها مقابل شاشة التلفزيون فاستسلمت للنوم.. لم يمض أكثر من نصف ساعة حتى استيقظت ونادتني: «سهام.. سهام.. سهام.. تعالي أريد ألحق أمي هلق كانت هون جنبي وطلعت من البيت.. وقالتلي تعالي خلفي لا تتأخرين.. أنا ناطرتك.. ما رضيت تقعد.. راحت خفيف (بسرعة) من عندي».

شعرت بالخوف بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.. اتصلت بـ (أبو نورس) الذي كان في عمله وحدثته بما أسمعه من أمي منذ الصباح..

أجابني: «أكيد بتكون رأت بمنامها واختلط عليها الأمر فاعتقدت أن المنام حقيقة» فقلت وأنا أبكي: «أخاف يصير شي مو مليح.. أخاف تكون بدها تموت.. منشان الله تعال عندنا».

بعد ساعة تقريباً وصل فسلم عليها قائلاً: «يعطيك العافية أم حنا.. وين راحت أمك.. أنا بدي سلم عليها».

أجابته: «زعلت وراحت... هالملعونة تركت الباب يطبق خلفها وما رجعت عندي.. اقعد.. اقعد.. هلق تعود».

وحتى لا تبقى تحت ضغط هذا الهاجس بدأت أشرح لها بهدوء بأن ما تحدثت عنه ليس حقيقة وإنما حلماً رأته.. وبعد عناء تقبلت الأمر عندما قلت

لها: «ماما.. أنت كنت نايمة والباب مقفول والبيت بالطابق الثالث فكيف لميمي أن تدخل البيت وتقعد جنبك على التخت»..

عند ذلك نظرت إليّ مجيبة: «قولك هيك.. يمكن حلمتو هيك.. ياالله... شفناها مبسوطة»..

بعد الغداء بقيت بجانبها ولعبت معها لعبة (الأوغلان) وغنينا بعض الأغاني التي تحفظ قسماً منها.. ريثما وصل الحلاق (مصطفى) فقد سبق أن اتصلت معه ليصبغ لها شعرها ويرتب أطرافه.

وفي اليوم التالي وكان قبل يوم من موعد انتهاء رحلتي هذه حدثت المفاجأة الثانية.. كان الجو بارداً يشوب هواءه رزاز ناعم.. ليس بمطر وليس بثلج.. كنت أعد لها طعام الغداء وأحضر (الشوربة) بينما بدأت تمشي داخل البيت واقتربت من باب المطبخ قائلة: «أيشة تطبخين اليوم.. إيش بدنا نتغدى»..

أجبتها: «ماما عم أحضر الشوربة.. والغدا سمك مع بطاطا»..

قالت: «يعطيك العافية.. أنا أحب الشوربة»..

بعدما تناولنا الغداء.. شعرت هي بالبرد.. وقالت لي: «سهام عبريني جوا.. عفراشي.. أريد أنام».

ساعدتها بالوصول إليها بعدما أعطيتها أدويتها.. اقتربت الساعة من الخامسة مساءً وهي ماتزال نائمة.. وفي هذا الوقت عادت الكهرباء المقطوعة قبل ساعتين.. وكنت على وشك النوم بمكاني على الكنبة.. حين نادت «سهام.. سهام.. أين أنت تعالي»..

دخلت غرفتها وساعدتها بالنهوض من فراشها وأجلستها على كرسيها وأعددت لها كوباً من القهوة مع صحن الفواكه وجهزت لها رمانة كاملة بطبق آخر..

سألتها: «ماما حبيبتي.. إيش تأمرين يصير».

أجابت: «يابو.. مو ريد شي.. تعبتو من النوم.. أريد أتفرج ع التلفزيون».

كان التلفزيون يعرض الأخبار المحلية.. وهي تسألني عن أي مشهد أو صورة تلفت نظرها وخاصة إذا رأت أشخاصاً يرتدون اللباس العسكري..

وفجأة نادت على (ماريا) قائلةً: «روحي نادي على السائق والمرافقة»..

فسألتها: «ماما.. أم حنا.. إيش سائق وإيش مرافقة». فأجابتني: «أنا هلق صرتو وزيرة وعندي مرافقة تحت ناطرين البيت.. روحي ناديلهم يحمّو (يشغلوا) السيارة.. أريد أروح المكتب.. وأرجع بكير.. يالله خفيف خفيف هوري (نادي) عليهم»..

لم أتمالك نفسي من الضحك.. تلفظت بما قالته بكل جدية وثقة كاملة.. ونحن بهذه الحالة جاء صديقنا وزوجته..

سألني: «خير إن شاء الله.. فرحونا معكم..».

أجابت (ماريا) وهي تضحك: "أم حنا صارت وزيرة"..

فأوضحت الأمر بأن والدتي كانت تتابع الأخبار وفجأة طلبت أن تنادي للمرافقة لتجهيز السيارة أمام البيت.. وقالت: «أنا هلق صرت وزيرة».

كانت هذه الحادثة مادة سهرتنا.. حلل الأمر أحد الأصدقاء قالاً: «يبدو أنها تشاهد التلفزيون كثيراً وتشاهد المسؤولين حين يذهبون بزيارات رسمية وتعرض الشاشات لقطات عن طريقة استقبالهم، وكيف تتراكض عناصر المرافقة للإحاطة بالمسؤول والسائقين لتشغيل السيارات، فأصبح عندها مخزون تراكمي لهذه الصور والمشاهد في أعماق نفسها.. وفجأة طغت هذه التراكمات فنطقت بما نطقت به من اللاشعور».. هكذا قال..

أنا لا أنكر بأنني ضحكت عندما سمعت منها هذا الطلب لكنني أحسست بعدم الاطمئنان، وقد استشرت الأطباء عن هكذا حالات فقال بعضهم إن ذلك

أحد أنواع أحلام اليقظة، وقال آخر إنه شيء من التهيؤات، وقال ثالث إنه التفكير بصوت عالٍ.

صحيح كانت إجازة قصيرة وسريعة لكنها مليئة بذكريات لا تنسى.

كانت رحلة عودتي إلى السويد نسخة طبق الأصل عن رحلتي السابقة إلا أن مغادرتي مطار بيروت كانت نهاراً... بعد الظهر.. لكن صورة والدتي ماتزال أمام ناظري.. حين وقفت بجانب الباب تستند بشمالها على دفته المفتوحة قائلة: «الله معكي يا بنتي.. إذا رجعتي وما لقيتيني لا تبكين يابو سهام وتبقي زوري قبري وخدي معك شمعة.. قولي لبنتك مليسيا وبنتك يلدا أنا أحبهم كتير.. حاكي أخواتك.. قوليلهم أمكم بخير.. خليهم يديرون بالهم على روحهم.. قولي لحنا يجوّز أولاده.. الله معك روحي لا تتأخرين».

حفظت ما قالته عن ظهر قلب وإن قدمت عبارة قبل عبارة فهذا لا يغير من أثرها عندي فما أزال أذكرها وسأبقى أرددها حين أتحدث عنها.

بعد وصولي إلى السويد حدثت زوجي بكل تفاصيل رحلتي إلى دمشق وأخبرت هاتفياً بعض إخوتي.. لازمتني الكآبة وأتعبني التفكير.. وتوالت نوبات الصداع النصفي بشكل مزعج ومؤلم..

أخذت معي من دمشق دواء السيتاكودائين.. أحصيت عددهم بـ/١٣٥/ حبة فكنت أتناول يومياً من ٣ إلى ٥ حبات بالإضافة إلى علاج الشقيقة.. وتابعت عملي الذي يبدأ بالسابعة صباحاً وحتى السابعة مساءً.. ولم أنقطع لمدة تزيد عن الساعتين في متابعة حالة والدتي طالما أنا يقظة..

كنت أتناول موضوع الضمير في نقاشاتي مع رفاق العمل ومع الأصدقاء بشكل مباشر أو عبر الهاتف من حيث المفهوم والممارسة بالنسبة للمسائل الشخصية والقضايا العامة، فقد سبق لي أن نشرت مقالاً حول هذا الموضوع.

بحثت عن دور الضمير عند الفرد وعند الجماعة.. فلم أجد جواباً مقنعاً يبرر ما ذهب إليه من ذهب وبيده بندقية ليقتل جاره أو سكيناً ليطعن أخاه أو يقبض الدولار الملوث ليفجر مدرسة أو يخرب مؤسسة أو يسرق منزل جاره الغائب أو يخطف طفله أو امرأة لاغتصابها.. فأي ضمير يحمله أولئك الذين أتخموا من خيرات سورية حتى التجشؤ فتنكروا لها عندما احتاجتهم..

أهكذا تصان الأوطان.. أهكذا يتعاضد الإخوة لحماية أمهم من ذئاب شاردة، أعطتهم الأمن والأمان والرفعة والعزة والكبرياء أينما حلوا أو رحلوا في أي زمان ولأي مكان.. حتى غدا اسم سورية بحد ذاته هوية!!

مازلت مصرة بأن الجبناء والمترددين لا تبنى بسواعدهم الأوطان وراية النصر والعزة والذود عن الأرض والعرض لن ترفع ولن ترفرف إلا بسواعد الفرسان فكان لي مقال بعنوان: «النصر المأمول في استبدال الخيول»..

تعلقي بجذوري السورية وتشبثي بها هما الحبل السري الذي لم ينقطع بيني وبين الأم الخالدة سورية التي تكالبت عليها قوى الظلام والبغي، كما هو لم ينقطع بيني وبين أمي التي تجاهد وتصارع مرضها في أحد منازل دمشق.. يقيني كلاهما منتصرتان وهما الخالدتان في وجداني فسورية الأم ستبقى ولن تفنى وأمي إن غاب جسدها يوماً فسيغيب في أحضان سورية وتبقى روحها ترفرف في سماء أمٍ خالدة.

هذا ما كان يعطيني القوة ورباطة الجأش والصبر والأمل.

التهنئة بعيد الأم

جاءت مناسبة عيد الأم في ٢١ آذار فأخذت إجازة من عملي وتفرغت للحديث عبر (السكايب) مع والدتي بين الحين والآخر وشاهدت بعض الأصدقاء الذين زاروها بذلك اليوم وبيدهم الزهور يقدمونها لها.. قلت لها حين كلمتها أول مرة ذاك الصباح:

«ماما.. كل عام وأنت بخير.. اليوم عيد الأم في سورية.. إن شاء الله ينعاد عليك وأنت بكامل الصحة والعافية.. إن شاء الله العيد القادم أكون عندك حتى نروح لبيت المشتى ونطلع سوى لجبل السيدة».

أجابت قائلة: «سهام.. وأنت بخير.. أنا اشتقتولكي يابو.. شوفي اليوم (ماريا) مسحت البيت من الصبح.. هي قالت بعد ما تجوزت» وما صارت «أم.. سهام أنا أحب أهديها شي مبرومة «اسوارة» أو خاتم.. تبقى تتذكرني حين تتجوز.. أنا مو أقدر أروح معها أثيوبيا.. مالي شغل فيها.. شوفي إيش تعملين.. أنا أحبها.. تخدمني كتير.. مو تنقّص شي عني».

كنت سعيدة جداً بما أسمعه منها.. وكانت (ماريا) تنتقل عن يمينها وشمالها وهي تضحك وتؤشر لها بسبابتها بحركة دائرية واضحة الدلالة فهي تريد منها أن تكرر كلامها.. فتنظر والدتي إليها بحركة هي الأخرى لطيفة ومعبرة حين همست لها: «اسكتي اسكتي.. سهام سمعتني».

لم أتوقع أن تطلب مني هذا الطلب.. فأشعلت شمعة وهي تشاهدني وصليت معها عبر «السكايب» تسمعني وأسمعها..

اتصلت بالأخ الصديق وقلت له: «ماذا أعطيتك وماذا طلبت منك أن تهدي الخادمة بمناسبة عيد الأم..».

أجاب: «خير إن شاء الله!! شو فيه اليوم جديد؟» شو صايرلها والله دوختيني فيها!! فسألته: «ليش؟ بعد ما حكينا شي!!».

أضحكني جوابه.. لكنني أعدت سؤالي.. فقال: «أعطيتني خاتم ذهب وقلت أعطه لها عندما أطلب منك أن تعطيه لها». فقصصت عليه ما قالته أمي وقلت: «أتمنى أن تقدمه لها مساء اليوم على مرأى من والدتي..» فقال: «على راسي وإذا بدك أعطيه لأم حنا تعطيه لها..» قلت: «لا فرق المهم أن تراها أمي تضعه بإصبعها»..

وعند المساء شاهدت بعض الأصدقاء والصديقات يجلسون بجوار والدتي وقالب الكاتو الكبير أمامهم مع الفواكه حيث أعطاها الخاتم بحضورهم قائلاً لها: «هذه أمانة معي من سهام وطلبت أن أقدمه لـ (ماريا) هذا اليوم وأنتم شهود بأنني أعطيته لها..».

كنت أسمع وأرى ما يدور بينهم وتبادلت التهنئة مع الحضور بهذه المناسبة.

أما والدتي فقالت لها: «قربي هون.. أشوفه بإصبعك.. مبروك عليك.. تستاهلين.. أنا قلتو لسهام ترسله لك..». لم أسمع جوابها التي كانت تضحك وتتحدث بسرعة وبصوت خفيف.. وفي وقت لاحق سمعت الكثير من تعقيب الصديقات على هديتها.

تدهور صحة أم حنا

لم يمض أسبوع تقريباً حتى بدأت ألاحظ بأنها لم تعد تنزل برفقتها لتساعدها بالمشي على الرصيف.. لأنني لم أنظر مرة لكاميرا (السكايب) إلا ووجدتها داخل البيت وغالباً ما تكون أمي جالسة على كرسيها تشاهد التلفزيون.

سألتها: «ليش ما عم تنزلي تمشيها على الرصيف».

أجابت: «والله يا ماما من يومين نزلنا نمشي.. ولما رجعنا ما قدرت تطلع الدرجتين عن الرصيف للمدخل.. حتى ساعدوني الشباب يلي بالمؤسسة جنب المدخل».

قلت: «يمكن كانت تعبانة شوي.. جربي اليوم وخلي جوالك معك».. امتعضت من طلبي وهذا كان واضحاً من خلال وجهها ومن قولها.. والله ما رح تقدر تطلع إذا نزلنا على الرصيف.. هلق ألبسها تيابها وأنزلها..

كان يوم عطلتي.. رأيتها بعدما أدخلتها الحمام وألبستها ثيابها تمشي باتجاه الباب..

على غير عادتها لم تقل لها: «شوفي سهام.. حاكيها.. عم تطلع عليك»!!..

ناديتها: «خليها قدام الكاميرا لأحكي معها..» أعادتها من خلف الباب ولم تجب بأية كلمة وأشرت لها بيدها أن تنظر إلى الشاشة لأراها.. عندما شاهدتني نادت بصوت مرتفع: «سهام.. شلونكي.. نحنا نازلين نمشي شوي تحت البيت».

قلت لها: «أحلى ماما بالدنيا.. يسعد ربي صباحك أم حنا.. إي كويّس امشي شوي وارجعي خفيف».

أجابت: «اي.. اي.. أرجع خفيف.. هالبنت جنبي تساعدني..».

لفظت هذه العبارة وأومأت برأسها إليها.. لم تلفظ اسمها..

قلت لها: «ماما.. إيش اسمها هالبنت». نظرت إليها قائلة: «سهام تسأل إيش اسمك.. قوليلها إيش اسمك»، هنا ابتسمت وأجابتها«اسمي ماريا».

نظرت والدتي إلى الشاشة وقالت: «سهام.. سهام.. تقول اسمها ماريا».

فأجبتها: «إي.. ماما.. لا بقى تنسين اسمها..»، كنت أريد التأكد من كلام الخادمة وبالوقت نفسه ستستفيد من حركة نزولها وعودتها بتحريك مفاصلها، وبعد سماعي صوت إغلاق الباب خلفهما انصرفت لأعمال البيت وبعد أقل من نصف ساعة بقليل لم أشاهدهما داخل البيت..

اتصلت مباشرة على جوالها وسألتها: «أين هي ولماذا لم تعد للبيت.».

أجابتني: «ماما.. ماما.. مليح اتصلتي.. ماما أم حنا قعدت على الأرض وما فيني أقيمها وما فيه حدا بالمؤسسة يساعدني..».

أغلقت الهاتف واتصلت بالأخ (أبو نورس) وقلت له ما سمعته.. كان بعمله.. قال لي «هلق أتصرف».

بعد دقائق اتصل معي قائلاً: «يلزمني ربع ساعة لأصل عندها.. لكنني اتصلت بالشباب في صالة الأفراح بالجلاء مع (أبو عبدو وأبو قاسم) فهم لا يبعدون أكثر من ١٥٠ متراً عن البيت..».

شكرته وقلت تمنيت لو تلحق تشوف بعينك.. قال: «هلق بيخبروني.. اطمئني كأني موجود».

فعلاً لم تمضِ خمس دقائق حتى رأيت والدتي داخل البيت وسمعت أحد الشباب يقول لها.. ديري بالك عليها لا بقى تنزليها لتحت البيت لوحدك..».

اضطربت كثيراً عند سماعي هذا الكلام.. وبعدما أجلستها على كرسيها قالت لي: «ماما والله ما قدرت أقيمها عن الرصيف وحدي.. ماما أم حنا ارتكت عالحيط وقالت خلينا نقعد على الأرض أرتاح شوي أطيب من القعدة عالأرض ما فيه.. ونزلت شوي شوي على مهلها حتى قعدت وما عاد رضيت تقوم تمشي معي»..

فقلت لها: «لا بقى تنزليها كل يوم.. نزليها بعد الضهر لما يكون (عمو) عندكم».

تكررت هذه الحالة معهما مرتين خلال شهر نيسان..

وعلى أثر ذلك زارها الدكتور (هيثم) والدكتور (حسين) أكثر من مرة وفي كل زيارة كنت أتحدث معهما.. تقاطعت نصائحهما بأنها تحتاج للمشي الخفيف، أما من الناحية الطبية فلا يوجد ما يثير القلق سواء من ناحية الضغط أم التنفس وحتى الذاكرة.. فهي تعرف كل شخص يزورها وبخاصة أولئك الذين اعتادت على مشاهدتهم بشكل شبه يومي..

سارت الأمور هكذا فكثفت الاتصالات والمتابعة.. أستطيع القول إنها كانت بشكل دائم إما بالمشاهدة أو بالهاتف.. حتى أصبحت أتهيأ أنها تحدثني وأنا نائمة..

أخافني حلم رأيته كان ذلك قبل يومين من نهاية شهر نيسان ٢٠١٣، ملخصه: أنني برفقة والدتي داخل البيت في مشتى الحلو وهي بكامل قواها ولا تعاني من أي مرض وكأنها في عمر الخمسين، وفجأة بدأ شكلها يتغير وأصبح شعرها أبيض اللون، فسألتها: «ماما إيش صار فيكي.. شوفي شعرك صار كله أبيض وأحضرت لها المرآة لتراه..». فقالت: «أي.. أي.. تفكريني بعدي صغيرة».. ثم قامت من مكانها حيث كانت تجلس على كرسي.. لم أشتره أبداً (هكذا قلت لنفسي بالحلم)، سألتها: «ماما من أين هالكرسي» قالت: (أبوي زارني أمس وتركه عندي).. أجابتني بما قالته وتابعت سيرها إلى باب البيت.. فتحته والتفتت باتجاهي قائلة: «خاطرك يا بنتي.. رايحة مشوار بعيد.. (سعدى) ناطرتني قدام الباب خليكِ هون بالبيت..». قلت لها: «على مهلك أساعدك تركبين عليها..». أجابتني: «لا.. لا.. خليكي.. الغلام تحت ماسكها بيساعدني».. كادت أن تغلق الباب خلفها لكنها عادت.. وقبلتني وهي تقول: «يابو سهام... مشواري بعيد... يمكن لما أرجع ما تكونين في البيت.. إذا تأخرت.. لا تنتظريني ولا تلحقيني.. أعرف أرجع لحالي.. (سعدى) تعرف ترجعني البيت.. يابو سهام الله يرضى عليك.. أعرف قديش تعبتي معي.. سامحيني... سامحيني..»، وخرجت من الباب وأطبقته خلفها.. قمت بسرعة لم أستطع فتح الباب بسهولة وعندما سحبته بقوة.. نظرت أمامه فلم أجدها.. ناديتها بصوت مرتفع.. فسمعت صدى صوتي يتردد في محيط ساحة واسعة مليئة بالنباتات التي أصابها الذبول من العطش، لم أجدها.. ناديتها مراراً.. لكن لا مجيب لندائي..

استيقظت على صوت زوجي يوقظني.. بقوله: «سهام.. سهام.. قومي.. تحكين وانت نايمة..».

لم أرتح لهذا الحلم فأمسكت بكتاب تفسير الأحلام الذي اشتريته في إحدى زياراتي لدمشق وبدأت أتصفح به لأريح أعصابي بعض الشيء.. فلم

أعد أستطيع النوم كان الوقت فجراً.. فتحت التلفزيون لمتابعة الأخبار كانت إحدى المذيعات تتحدث عن الأوضاع في سورية مع عرض مشاهد لاستشهاد مجموعة من طلاب كلية الهندسة المعمارية بجامعة دمشق نتيجة سقوط قذائف هاون على مبنى الكلية.. هذا ما بقي بذاكرتي من الأخبار التي سمعتها.. تألمت كثيراً فهؤلاء هم بناة المستقبل الواعد لسورية الحبيبة يقضون بهذه الطريقة المؤلمة.. ربما فظاعة المشاهد ومنظر الدماء أنساني الحلم الذي رأيته وأبعدني عن استمرار التفكير فيه لبعض الوقت.

بدأت الأخبار في السويد تتحدث عن الاستعدادات للاحتفال بالأول من أيار –عيد العمال العالمي– وكنت أشاهد التحضيرات والأشغال التي تجري في الشوارع والأماكن المخصصة للاحتفال فاستحالت شوارع العاصمة إلى ورشة عمل كاملة.

لم أذهب إلى عملي في الأول من أيار وغالباً ما كان يوم العطلة لإنجاز أعمال البيت واستقبال الأحفاد أو زيارتهم، ولكن في الغالب كنت أستقبلهم –طبعاً.. ومازلت– فالمثل يقول (مو أغلى من الولد غير ولد الولد)..

حيث لاحظت بأن كاميرا (السكايب) مطفأة –قمت بتشغيلها– يبدو أن الكهرباء مقطوعة.. اتصلت هاتفياً وطلبت من الخادمة أن تفتح السكايب فأجابتني بأن الكهرباء مقطوعة.. وأكملت قائلة: «ماما.. ماما.. ماما أم حنا راجعت (تقيأت) كل الأكل يلي طعميتيها ياه عالفطور» وعم حاكيها ما بتجاوبني.. بس بتطلع فيني».

قلت: «ضعي الهاتف على أذنها لتسمعني.. وبدأت أناديها.. ماما.. ماما.. صباح الخير».

أجابتني بكلمة واحدة فقط حيث قالت: «سهام» سمعتها تلفظ اسمي فقط ولم تلفظ أية كلمة أخرى.. بقي الهاتف قرب أذنها لمدة عشر دقائق لكنها لم تجب أبداً..

اتصلت مباشرة مع الأخ (أبو نورس) سألته أين أنت؟ أجابني: شو بدي أحكيلك.. شوب كتير.. الدنيا نار.. معي ابني جعفر بالـ /٨٦/ استفسرت شو هاي الـ /٨٦/ انتابني القلق ظننتها رمزاً لإحدى الدوائر الرسمية فأوضح لي بأنها تعني حياً سكنياً شعبياً خلف الحي الذي تسكنه أمي بحوالي /٣٠٠م/، وبأنه يبحث عن منزل ليستأجره لأن صاحب البيت الذي يقيم فيه أنذره بوجوب الإخلاء بانتهاء عقد الإيجار بعد شهر من ذلك التاريخ.

قلت له: «بعد بكير.. معك وقت.. الله يرضى عليك توصل لعند الماما.. كنت عم أحكي معها ما جاوبتني ولا بكلمة سوى أنها لفظت اسمي فقط».

قال: «نحن قريبين جداً على مفرق الصيدلية.. عرفت المكان بالضبط فهذه صيدلية (سلمى) التي لا تبعد خمسين متراً عن البيت»..

شعرت بالارتياح وقلت له: «بعد دقيقتين أتصل معكم على هاتف البيت».

عند وصوله وابنه (جعفر) أجابت (ماريا) على الهاتف الأرضي قائلة: «هلق وصل عمو وابنه».

سمعته يسلم على والدتي ولم أسمع سوى صوته وصوت الخادمة تشرح له ماذا أطعمتها بعدما ساعدتها بالاستحمام صباحاً.

فتحدث معي قائلاً: «ما شاء الله وجهها مورد ونبضها جيد لكنها لم تجب بأي كلمة.. وأضاف سأتصل بالدكتور (حسين) فهو الأقرب وسأنقلها إلى المشفى فوراً على ضوء ما يقوله».

طلبت منه أن يتصل كذلك الأمر بالدكتور (هيثم) فهو الذي عالجها بداية وبذلك تتوضح الصورة بالنسبة لما يجب القيام به بشكل أفضل.

أنهيت المكالمة قائلة: «احكي معي أو بعتلي رسالة لما يوصل أحدهما وإذا عادت الكهرباء افتحوا السكايب».

اجتاحتني عاصفة من التفكير والإرباك.. هل أفقد والدتي.. هل هي نهايتها.. وحيدة متعبة برفقة خادمة.. غضبت من نفسي.. غضبت من كل شيء.. شعرت بالحقد على واقع مرير الصمت عنه أفضل من البوح به. تسمرت أمام كاميرا السكايب اعتذرت لمن كان يتصل معي وأحياناً أفصل الهاتف بوجه المتصل..

أمضيت ساعة كأنها الدهر بكامله ريثما عادت الكهرباء.. حيث شاهدت الدكتور (حسين) يحاول أن يسمع من والدتي أي كلمة وبجواره (ماريا) وسمعت (أبو نورس) يتحدث بالهاتف مع الدكتور (هيثم) الذي كان بغرفة العمليات -كما علمت لاحقاً- عندما اتصل به قبل ساعة كان يقول له: «أرجوك دكتور أن تحضر لتكشف عليها وتقيّم حالتها في البيت أولاً فالجو حار جداً وتوجد صعوبة بنقلها في هذا الوقت..». أنهى اتصاله بقوله: «أنا ناطرك عندها بالبيت».

تحدثت مع الدكتور (حسين) الذي أكد لي بأن ضغطها جيد جداً (٧/١٢) ضغط شباب لكن يوجد صوت خرخرة من رئتيها ربما تسرب إليها شيء من السوائل.

سألته: «هل تستطيع المشي».. فقال: «لم نجرب أن تمشي فتمنيت عليه أن يحاول ذلك».. ساعدها بالنهوض عن الكرسي فاستندت إليها ودفعتها أمامها باتجاه الباب ثم عادت ثانية.. مشى أحدهما بجانبها بدون أن يمسكها أو يساعدها.. فكررت مشوارها القصير خلف العربة مرتين.. اطمأنيت بعض الشيء عندما شاهدتها تمشي.. فقد كنت أخاف ألا تستطيع الحركة بعدما رأيت صمتها عن الكلام أو بالأحرى عدم قدرتها على الكلام..

كانت نصيحة الدكتور (حسين) أن نهتم بها في البيت إذا استطاع الدكتور (هيثم) أن يسحب لها كمية السوائل من الرئة.. فالبيت يبقى مريحاً لها أكثر من المشفى..

شكرته وشكرت له حضوره وتلبيته استغاثتي به.. قال: «هذه أمنا جميعاً وأنا جاهز بكل وقت لخدمتها وسأعود مساءً للاطمئنان عليها»، ثم ودعني وغادر البيت بينما بقي (أبو نورس) ينتظر الدكتور (هيثم) الذي تأخر لأكثر من ساعتين قاربت الساعة الرابعة بعد الظهر وانقطعت الكهرباء ثانية عن البيت.

فكنت أتصل هاتفياً كل ربع ساعة لأطمئن عليها.. لم يتركها (أبو نورس) بقي بجانبها يجيب على اتصالاتي حتى أفرحني بقوله: «أبشرك هلق نطقت وطلبت أن تشرب الماء»، سألته ماذا قالت بالحرف.. قال: «وضعت لها شريط عرس مليسيا وبعده شريط عرس يلدا» وحين شاهدت نفسها بإحدى اللقطات أشارت بإصبعها قائلة: «هاي أنا» وحين شاهدت صورة والد زوج يلدا قالت: «حمو يلدا».. ثم طلبت كاسة ماء لتشرب.. لم أسمعها بأذني ولا أدري هل قال لي هذا الكلام ليطمئنني أم أنه كان الحقيقة.. ولم أشأ أن أسأل الخادمة عن صحته.

اتصلت مع الأخت الدكتورة بثينة وأخبرتها بما شاهدته بالسكايب وما سمعته فقالت: «سأذهب لأزورها وأطمئن عنها فلدي واجب عزاء قريباً منها وسأذهب باكراً واطلع على وضعها أولاً».

بالساعة السادسة عادت الكهرباء فشاهدت الدكتورة وسمعتها وهي تكلمها وترفع من معنوياتها بكلمات لطيفة ومؤثرة أبكتني وأنا أسمعها وسمعت نقاشها مع الدكتور (هيثم).. حيث نصحت بعدم نقلها إلى المشفى حين قالت: «يمكن أن يتم تقديم كافة الخدمات التي ستعطى لها بالمشفى هنا في البيت لأنها إذا نامت في المشفى بدون حركة فسوف تنسى أن تمشي ثانية.. لم يوافقها الدكتور (هيثم) وأصر على نقلها إلى المشفى حيث العناية المتكاملة.. وأنه يمكن إعادتها إلى البيت بعد استخراج كمية السوائل القليلة من صدرها، ويكون أسهل عليه إجراء التحاليل والفحوص السريعة وعلى ضوء النتائج يتخذ القرار، ويمكن أن يستعين بأطباء آخرين لتقييم وضعها الصحي من كافة النواحي.. بينما

أكدت الدكتورة على رأيها بعدم جواز نقلها إلى المشفى وأنها إن بقيت في المشفى ليومين فقط لن تستطيع القيام أو المشي ثانية».

تحدثت معها ومع الدكتور هاتفياً إضافة لوجود السكايب.. حيث أكد على وجوب نقلها إلى المشفى مباشرة وبدون تأخير..

تم نقلها إلى مشفى دار الشفاء مباشرة على أن يتم إعادتها خلال يومين بعد إجراء الفحوص اللازمة ورافقتها الخادمة التي خيّم الحزن على وجهها، فكانت تبكي بحرقة على ما شهدته من انهيار مفاجئ في قواها فكانت تستعطفها بكلام مؤثر كأي بنت تستعطف أمها أن تكلمها..

أعدت الاتصال الهاتفي مع الدكتور فأعلمني أنهم باشروا بإجراء التحاليل وتم سحب كمية بسيطة من السوائل عن طريق الأنف.. فطلبت منه ألا يتركها بالسرير طيلة الوقت حتى لا تفقد القدرة على المشي.. مانع هذا الأمر بقوله حالياً المشي خطر عليها خلال الساعات القادمة بعدما وضع لها أنبوباً لتتناول طعامها مطحوناً عن طريق الأنف وإعطاءها الماء بالطريقة نفسها (طريقة الحقن)..

وأخبرني صديقنا بأن الممرضات اللواتي اهتممن بها عندما أدخلناها المشفى بالشهر الأخير من العام ٢٠١٠ يتولين الاهتمام بها.. وأرسل لي صورة وهي راقدة في سريرها.. وبيدها مسبحتها تقلب في حباتها وتحرك شفتيها وكأنها تصلي دون أن يُسمع صوتها..

بدوري بدأت أحضر نفسي للسفر.. كنت في كل يوم أتصل عشرات المرات.. وشاهدت من خلال مقطع فيديو قصير أنها لا تقوى على الكلام.. كما أنها لم تقو على المشي بعد عدة محاولات قامت بها الممرضات..

أيقنت حينها بأنها لن تستطيع أن تمشي ثانية..

طلبت من الدكتور تخريجها من المشفى وإعادتها إلى البيت لكنه مانع بشكل قاطع قائلاً: «تأخذونها على مسؤوليتكم وأنا لا أستطيع ضمان تحسنها

ولا ضمان إمكانية إنقاذ حياتها فيما لو تعرضت لأي احتشاء أو توقف مفاجئ للقلب، وهي مرشحة لأن تتعرض لأزمة قلبية وتوجد حالات مشابهة مات أصحابها نتيجة ذلك»..

إجازة الوداع

ألغيت كافة التزاماتي لمدة شهر مع كافة المكاتب والدوائر المرتبطة معها بمواعيد عمل وحجزت بطاقة الطائرة إلى مطار بيروت عن طريق استنبول.. وصلت دمشق بالساعة الخامسة والنصف فجراً بتاريخ ٢٠١٣/٥/٩ بالطريقة نفسها التي وصلت بها سابقاً حيث وضعت حقائبي في البيت أولاً..

عندما أدرت المفتاح لأفتح الباب انهارت أعصابي تماماً وما أن وضعت حقائبي خلفه وأطبقته حتى جذبتني أرضه فجلست أبكي وأنتحب حين نظرت إلى سريرها ورأيت صورتها الكبيرة فوق وسادتها تنظر باتجاه الباب كأنها ترحب بي.. رباه أين أمي.. رحمتك بها يا الله.. بالأمس كانت تقف في المكان نفسه تستقبلني فقد ضمتني وقبلتني هنا حيث جلست.. شعرت باليتم وبكيت بكاء اليتيم..

كنت بحاجة من يشدني من يدي لأستطيع الوقوف.. افترشت الأرض بكامل جسدي أقبّل موطئ قدميها فوق بلاط البيت الأبيض الذي كنت أقول عنه إنه يزداد بياضاً كلما مشت فوقه أمي.. شممت غبار نعليها.. ناديتها فلم تجبني.. انتحبت وأنا أنظر إلى صورتها حيناً وأقبل آثار قدميها حيناً آخر..

مضت ربع ساعة وأنا على هذا الوضع حتى تمالكت نفسي لأصل إلى سريرها.. قبل صورتها.. ناديتها: «أمي.. دخيلك لا تتركيني.. أمي أرجوك أن تعودين هنا إلى فراشك.. رحمتك يا الله.. رفقاً بها.. ارحم ضعفها.. ارحم سنها.. أعطها القوة لأجلنا يا الله..».

لم أستطع الرد على الاتصالات الواردة تباعاً على هاتفي فلم يصمت صوت جرسه عن الرنين.

أمضيت قرابة الساعة في البيت أتحدث مع نفسي وأكلم صورة أمي وبعد أن هدأ روعي قليلاً توجهت إلى المشفى وكنت على علم برقم غرفتها بالطابق الثالث.

كان باب الغرفة مفتوحاً قليلاً والهدوء يلف الغرف ما عدا غرفة الممرضات حيث كان يوجد فيها ممرضتان مشغولتان بتحضير ملفات المرضى..

عندما شاهدتني إحداهن تذكّرتني ومشت بجانبي إلى الغرفة وهي تردد عبارات التأهيل والترحيب والتطمين بأن والدتي بخير وأنها تقوم بخدمتها على أكمل وجه.. كان باب الغرفة مفتوحاً قليلاً فأكملت فتحه بهدوء.. شاهدت والدتي مستلقية بلباس المشفى (زهري اللون) ووسطها الأعلى مرتفعاً قليلاً مع شبكة من الأنابيب البلاستيكية معلقة السيروم وخرطوم الطعام والقثطرة البولية..

وحين رأتني أقف أمامها.. أمعنت بنظرها إلى وجهي وقالت: «سهام وديني البيت»..

فأخذت بيدها أقبلها وأقبل وجهها وأستنشق رائحة شعرها وانتابتني حالة من البكاء والنحيب.. قبلت رجليها.. قبلت وسادتها وضعت رأسي فوق يدها.. فأمسكت برأسي.. كنت أشعر بحركة وارتجاف أصابعها.. استيقظت (ماريا) على صوت الممرضة التي أخذت تتكلم بعاطفة وبهدوء تحاول تهدئتي..

نظرت إلى (ماريا) فإذا هي الأخرى تبكي لبكائي وقالت: «والله يا ماما مو ذنبي أنا كتير زعلانة.. ما فيني أعمل شي..» فسلمت عليها وأجبتها: «شكراً لك يا ماريا شكراً على تعبك معها.. ولا أنا أستطيع أن أفعل شيء (يلي يريده الله بيصير)».. جلست بجانب والدتي أمسك يدها بكلتا يدي.. أقبلها وأكلمها.. كانت تجيبني بنظرها.. فقد صَمَتَ صوتها ولم تقل أي كلمة غير الذي قالته..

سألت عن الدكتور فأجابتني الممرضة إنه يأتي بالساعة الثامنة.. وغادرت لتكمل عملها..

لم أسألها أي سؤال لأنني أعلم بأنها لم تقصر في خدمتها وما حصل مع والدتي لا ذنب لها فيه.. رأيت الحزن الحقيقي في عينيها..

قبل الساعة الثامنة بقليل جاء (أبو نورس).. شاهدته الخادمة من شباك الغرفة يسير باتجاه باب المشفى، وبعدما هنأني بالسلامة.. قال: «صباح الخير أم حنا وسلم عليها» وسألها: «تروحين البيت.. سهام تقول بدها تاخدك للبيت».. حركت رأسها للأمام لمرتين لكنها لم تنطق.

قلت له: «لو تعمل معروف توديها (الخادمة) إلى البيت خليها ترتاح وتنام واضح أنها تعبانة كتير».. لم تقبل بادئ الأمر وأجابت «خليني عندك انت كمان بتكوني تعبانة من السفر الطويل»..

فقلت لها: «روحي ارتاحي ونامي حتى المساء.. ترجعين.. لأشوف الدكتور يمكن أرجعها للبيت».

فذهبت برفقته.. بعد مغادرتهما.. بدأت أحاول أن تكلمني فبدأت أغني لها ما كنا نغنيه معاً.. كانت تحاول أن تنطق فلم يسعفها لسانها على النطق.. مدت يدها تعطيني مسبحتها التي كانت بيدها.. أفرحتني حركة يدها واعتبرتها مؤشراً إيجابياً بأن دماغها بخير وقد تتماثل للشفاء خلال وجودي معها..

تجاوزت الساعة الثامنة فذهبت لأسأل الممرضات فيما إذا وصل الدكتور فتبين أنه لم يصل المشفى..

عدت إلى الغرفة ونظرت إليها بابتسامة علني أشجعها على النطق فرفعت كلتا يدها وفي إحداها أنبوب السيروم وقالت: «سهام» ولم تزد حرفاً آخر.. فبدأت أقبلها من جديد كما فعلت لحظة وصولي. وجلست بجانبها «كانت عيناها تحاولان الكلام بدلاً عن لسانها تنظر إلي بتركيز ثم تنظر باتجاه الباب.. فهمت طلبها.. أنها تريد الخروج من المشفى والعودة إلى البيت»..

قلت لها: «ماما.. اليوم أو بكرا نرجع البيت.. ما بدي خليكي هون بالمشفى.. هلق يجي الدكتور يلي تعرفيه وبنشوف شو بيقول بعدين نروح البيت» شعرت بأن كلامي هذا قد أراحها فكانت تومئ برأسها عندما أسألها: «ماما أنت تسمعيني»..

لم يعد لدي ما أقوله وكان اهتمامي منصباً على محاولة تفسير نظراتها.. فبدأت أحدثها وهي تنظر إلى وجهي كادت عيناها أن تقفزا من وجهها لتضماني..

قلت لها: «ماما أنا وصلت من السويد قبل طلوع الشمس أريد أن تردي على كلامي».. آه يا أمي اشتقت لقولك: «روحي خفيف وارجعي خفيف.. قوليها يا أمي قوليها».. أنا أشتاق سماعها منك.. ناديني باسمي كم كان صوتك جميلاً وأنت تقولين «سهام» تمدينها ليسمعها كل من حولك.. فهل سأسمعها ثانية منك.. اطلبي أن أطبخ لك المدفونية والمشكّلة.. هل ستأكلين الرمان الذي كنت أحضره لك.. هل ستحدثيني عن سفر برلك كما كنت تفعلين في طفولتي هل سأسمع منك قصة عرسك التي سمعتها مراراً وهل ستتباهين ثانية بأنك فارسة (سعدى) التي اشتهرت بركوبها وتسبقين الشباب في مضمار السباق.. أمي حبيبتي أرجوك أن تجيبي.. قولي أي كلمة.. ساعديني يا أماه ساعديني.. جئت لأجلك.. لأجل أن أسمع صوتك.. ردي على كلامي.. هل تحبين أن نذهب إلى جبل السيدة.. أو إلى نبع العروس.. هل سنأكل ثانية في شيراتون صيدنايا.. أمي إن كنت تسمعينني ردي على كلامي.. آهٍ يا أمي ها نحن وحيدتان هنا.. لا أحد معنا.. ماذا سأفعل إن حدث ما لا أتمناه.. ماذا سأتصرف.. أرجوك يا أمي أرجوك أن تساعديني.. أريدك أن تشفي وأن تمشي.. أريدك أن تغني معي أريد أن تلفي معي ورق العريش..

أمي هل ستتركينني أعود إلى السويد لأغلق السكايب لا.. لا.. لن تفعليها ستعيشين وسنذهب معاً إلى المطاعم حيث كنا نأكل وإلى الكنائس حيث كنا نصلي، وستجلسين ثانية على الشرفة تراقبين طيور السنونو وستحملين البيرق (العلم) كما حملته خلال المسيرة..

أمي أنا أحتاجك أكثر من أي وقت مضى.. أرجوك لا ترحلي وتتركيني..

لم تستطع الإجابة وانتحبت بكاءً مريراً عندما شاهدت عينيها تدمعان بصمت وشفتيها ترتجفان تحاول الإجابة قهرني ارتجافهما.. إنها تريد النطق فلا تستطيع.. آهٍ وألف آه عليك يا أمي.. قلتها بصوتٍ عالٍ.. وأكملت لها وأنا أحدق فيها ودمعها يسبق دمعي: اسمعي يا أمي: «سنذهب إلى البيت وسأبقي خادمة عند رجليك لن أتركك لحظة واحدة.. ستبقين كما كنت أميرة مكرمة».

قاطعني صوت الممرضة التي دخلت الغرفة من غير انتباه مني قائلة.. وهي أميرة.. شوفي وجهها المنوّر..

كانت تحمل طعامها المطحون.. شاهدتها وهي تحقنه لها بالأنبوب.. هكذا رأيتها أول مرة تطعمها أمامي.. حيث تنحيت لها جانباً فشعرت بصدمة صاعقة ا فأشرت للممرضة التي سارعت لتسوكأن تياراً كهربائياً اخترق رأسي.. وعندما فتحت عيني رأيت وجوهاً غير واضحة المعالم وثياباً بيضاء تتموج حولي.. وصوتاً يقول: «مشي الحال.. مشي الحال». فتحت عيني وأخذت الرؤية تتجلي رويداً رويداً.. حيث كان يحيط بي بعض الأطباء والممرضات عرفت منهن تلك التي استقبلتني صباحاً حين قالت: «طولي بالك.. الحمد لله على السلامة.. الحمد لله الماما بألف خير.. بكرا ترجع تمشي وتحكي»..

وقال آخر: «الحمد لله على السلامة مش لازم تضعفي.. مين سيقوم بواجب أمك ويستقبل ضيوفها الذين يأتون بكل الأوقات لزيارتها..».

وقالت ممرضة أخرى: «نحنا مفكرين يلي بيجوا من السويد وبيشتغلو بالمشافي بيكون قلبهم قوي.. انت لازم تشجعينا.. والله خوفتينا عليك..».

بدأت أستعيد قواي حيث جلست على كنبة الزوار بجانب شباك غرفتها وهي تلتفت يمنةً ويسرة ترتفع يداً وتضع أخرى تحاول الكلام تحاول الصريخ وعيناها تنظر في كل الاتجاهات كأنها كانت تبحث عن شخص تعرفه أو شخص يكلمها.. كانت مرعوبة تكاد تقفز من سريرها حتى أن إبرة السيروم خرجت من وريد يدها وبدت الدماء ترشح من (قطعة الشاش) التي تحميهوية الأمر.. حينها قلت لها: «ماما لا تخافين أنا مليحة.. أنا وقعت من وجع راسي لا تخافي.. ماما لا تخافي.. حين سمعتني شعرت بالارتياح على وجهها»..

كنت أتمنى أن يُقصر ليل ذاك اليوم لكنه عاندني فكان أطول الليالي المرهقة..

وبالساعة التاسعة صباحاً عندما جاء الدكتور قلت له: «إنني سأنقل والدتي إلى البيت فأجرى لها آخر كشف وتولى سحب كمية من السوائل بيده ليثبت لي صوابية رأيه.. لكنني لم أقبل ببقائها في المشفى».

قال: «كما تريدين وعلى مسؤوليتكم»..

خلال ساعة واحدة أصبحنا بأتم الجاهزية لمغادرة المشفى حيث تم نقلها إلى البيت بمساعدة الأصدقاء بعد وصولنا أجلسناها على كرسيها الذي اشتاق لوجودها تتابع (مسلسل سلطانة) وتتحدث بالسكايب حيث تذهب تمشي وتعود إليه.

وبعد عدة اتصالات هاتفية حيث وصل السرير الطبي وجهاز الأوكسجين، وعندما تم تركيبه وتجربته تبين أنه لا يفي بالغرض فأعاده الشخص الذي أحضره وجلب واحداً آخر مكانه.. وهكذا اكتملت تجهيزات غرفتها فأصبحت تضاهي غرفة المشفى.. كما حضرت ممرضة أذكر بأن اسمها (عزيزة) ذات بنية قوية فقد كانت تحملها عن سريرها إلى كرسيها وتعيدها إليه كما لو أنها تحمل طفلة رضيعة..

طلبت استبدال أنبوب سحب السوائل وحددت لي نوعاً قالت عنه إنه يناسبها ولا يخرش لها المجاري التنفسية.. فذهبت أبحث عنه في الصيدليات المجاورة حتى وجدته بالصيدلية الموجودة في الطابق الأول من فندق روتانا.. اشتريت كمية منه وحين فتحت الباب جاء وكما يقال وجهي بوجه والدتي.. وقالت: «سهام»..

تفاجأ الجميع بأنها لفظت اسمي.. لكن للأسف لم تلفظ بعد ذلك ولا كلمة.. لا أدري هل كانت تشعر بالقلق والخوف عندما شاهدتني أغادر البيت ومن (عزة الروح) نطقت باسمي حين عدت..

تفاءلت جداً حين سمعتها وقلت: «ربما ستستعيد قدرتها على الكلام شيئاً فشيئاً».. كنا نمسح جسمها يومياً بالماء والمعقمات ومراهم العناية بالبشرة، وكنت أدلك لها عضلات رجليها ويديها وأحركهما وكأنها تمشي.. كانت تشعر بالراحة نتيجة هذه الحركات حين كنت أشعر بمحاولتها الاستجابة لما أقوم به فتنظر إليّ وكأنها تقول: «استمري.. ساعديني.. سوف أمشي من جديد..».

بدأت أغني لها ما كانت تغنيه لكن كلامها كما قلت كان من عينيها فعملت جهدي أن أقوم بأفضل ما يمكنني لأوفر لها الراحة الجسدية والنفسية..

في تلك الفترة زارنا الدكتور (حسين) أكثر من مرة لمراقبة ضغطها وتطور حالتها.. بعد ثلاثة أيام من عودتنا إلى البيت بدأت ألاحظ بأن وجهها أصبح متورداً وعيناها صافيتان وبدأت تحرك شفتيها بتمتمة غير واضحة.. وأصبحت تنقل مسبحتها من يدٍ إلى أخرى وتلتفت لأدنى حركة نقوم بها.. أشعرتنا هذه الملاحظات بالتفاؤل وزادت لدينا نسبة الأمل بتطور حالتها باتجاه الأفضل وكنت على يقين أنها ستعود كما كانت قبل إسعافها إلى المشفى تمشي وتضحك وتغني وتلعب معنا الأوغلان.

كان برنامجنا يبدأ يومياً بالثامنة صباحاً عند حضور الممرضة حيث تقوم هي بعملها التمريضي تساعدها الخادمة.. بينما أتولى تجهيز طعامها المطحون كالمرهم.. أحياناً كانت تستطيع ابتلاع كمية قليلة وعندما تشعر بالعجز ترفع نظرها نحوي فأقول لها: «أمرك ماما».. وأحقن لها الباقي بالأنبوب الواصل إلى معدتها.. وأضع لها الأوكسجين حين أرى زرقة خفيفة في رؤوس أصابعها بعد قياس نسبة الأوكسجين في الدم.. لم أدعها مستلقية طوال الوقت فكنت أُجلسها على كرسيها المتحرك وأدفعها بهدوء أمامي داخل الصالون وبين غرف البيت وأدخلها إلى المطبخ لترى كيف أحضر طعامها..

وعند المساء كنا نجلس حول طاولة الشرفة وهي على كرسيها تنظر إلينا.. تسمع حديثنا.. وتشاركنا بنظرها.. فكنت ألاحظ ملامح وجهها.. كانت تحاول مشاركتي في ترديد أغنية طالما غنتها معي ومع بعض الضيوف الذين حفظوها من خلال ترديدها معها.. كنت أقرأ لها: «سلام لك يا مريم وأبانا الذي». كانت حركة شفتيها المرتجفتين تؤكد بأنها تردد ما أقرؤه.

لم أكن أشعر بأنني وحيدة معها لم يتخل عني وعنها الأصدقاء جميعهم بلا استثناء، فمنهم من يأتي صباحاً ولو لدقائق معدودات ليطمئن عليها، ومنهم من يأتي ظهراً بحسب طبيعة عمله، ومنهم بعد الظهر، وأغلبهم عند المساء، ومنهم من يتصل إذا لم يسمح وقته بالحضور.. رأيت فيهم إخوتي وأخوالي وأعمامي.. رأيت فيهم عزوتي التي أعتز بها..

كان حلمي الوحيد أن أسمع صوتها وأن أراها تمشي بقيت أمورها تسير بهذه الرتابة وفق برنامج لا خلل فيه حتى صباح يوم الأربعاء ٢٠١٣/٥/٢٢.

في صباح ذلك اليوم استيقظت فجراً.. نظرت إليها مستلقية على سريرها والوسائد عن يمينها ويسارها.. وقد عكس زجاج باب الشرفة لون الشفق الوردي

على وجهها فبدا وكأنه يعكس لونه متورداً.. اقتربت منها قليلاً سمعت صوت أنفاسها.. شكرت الله أنها نائمة بارتياح.

جلست على الشرفة أراقب بزوغ الفجر.. تمنيت أن تطول مدة ذلك المنظر الساحر لأيام وأيام.. فكنت أوزع النظر بين الأفق الشرقي وبين وجه أمي.. قلت في نفسي «سبحان الله.. المجد للرب في العلا وعلى الأرض السلام».

صليت وأشعلت شمعة من أجل السلام في سورية.. من أجل أطفالها ونسائها وترابها وسمائها.. كررت النظر لوجهها.. سمعت صوت صمتها.. شاركتها أحلامها فقد كانت تحرك شفتيها تارة وتطبقهما تارة أخرى.. تساءلت.. هل كانت تحدثني في حلمها وماذا عساها أن تقوله لي؟ لابدّ أنها ستقول: «بنيتي كنت خير ابنة لأمها.. اهتمامك بي حفظ كرامتي وستر آخرتي.. أصبحت عيني ويدي ولساني وحركتي.. ها أنت تنظرين إلى وجهي يؤلمك سكون أطرافي وصمت لساني وقلة حيلتي.. يقهرك ضعفي وعجزي يرهقك جسدي وأنت تحملينه ما بين سرير ثابت وكرسي متحرك.. أحدثك بنظري فتفهمين ما أقول.. تترجمين كل نظرة كما تقرئينها فما أخطأت يوماً.. آهٍ بنيتي.. لا أقوى على مساعدتك.. فقد بلغتُ نهاية المضمار وانتهى السباق.. لكنني ربحته بتشجيعك وصبرك وعزيمتك.. فكنت أنت ولا أحد سواك جائزتي.. حملتها في أحشائي وجعلت مهدها في حضني وهدهدتها فوق راحتيّ.. تخليت عن كل ما أملك وتمسكت بها فأصبحت رفيقتي في الحل والترحال.. بقيت متمسكة بيدي لا تريدين مفارقتها».

بدأ قرص الشمس بالظهور بلون وردة جورية حمراء فكان يسمح لنظري بالتشبث به.. حركته البطيئة للأعلى حولت لونه إلى الصفرة ثم البياض المشع، وأخذ الإشعاع يزداد وكأنه يقول لي كفاكِ النظر إلى وجهي وانظري إلى وجه أمك.. حانت مني التفاتة إليها. كانت مفتحة العينين تنظر إليّ حيث أجلس

على الشرفة.. لمعت تحتهما دمعتان كأنهما لؤلؤتان فتوجهت لقربها.. مسحتهما بيدي رغبت أن ترتشفهما خلايا جسدي..

ابتسمت واضعة كفها فوق يدي تهزها بضعف.. فكأنها تشد من عزيمتي وتمنحني القوة كانت حركة كفها فوق يدي حديثاً بحد ذاته... «أريدك قوية.. أريدك صبورة.. لا تجزعي..».

التفت باتجاه طاولتها فكأس الماء فوقها.. سألتها: «عطشانة أمي.. تشربين ماء» أعادت النظر ثانية تمنيت لو أنها أجابتني فتناولت كأس الماء ومسحت شفتيها بقليل منه وأعطيتها جزءاً يسيراً بالملعقة بعد أن رفعتُ لها جانب السرير.. وحقنت لها الباقي من خلال الأنبوب..

كانت تحاول أن تلفظ اسمي هذا ما قرأته من حركة شفتيها.. حيث كانت تنظر إليَّ ووضعت كفها على حافة السرير.. إنها دعوة للجلوس بجانبها.. جلست أنظر إليها وأمسح وجهها بقطعة شاش مبللة أعطتها انتعاشاً.. كانت تريد أن تتحدث فلم تقو على الحديث بدأت أدلك رجليها ويديها وأمسح ظهرها.. أصبح جسدها طرياً كجسد الأطفال..

قلت لـ (ماريا) اليوم سأحمم والدتي لوحدي ولا أريد شيئاً منك سوى أن تسنديها إذا مالت عن السرير وأنا أحممها.. فأحضرت وعاء الماء وقمت بغسيلها من رأسها حتى قدميها بالماء والصابون ومسحت جسمها بالمعقمات والكريمات المرطبة والمغذية للجلد ثم ألبستها ملابسها الصيفية الخفيفة..

كانت تنظر إليّ والابتسامة واضحة على وجهها والارتياح بادٍ في عينيها وكنت قد حضرت لها طعاماً فأحضرته وأطعمتها.. وضعتها على كرسيها المتحرك وأدرته باتجاه باب الشرفة لتشاهد الورود التي أحبتها.. جلست قليلاً بجانبها وقرأت لها: «سلام لك يا مريم» فكانت تنظر تارة إلى وجهي وأخرى إلى الأفق الجنوبي وإلى نباتات الشرفة وأزهارها المتفتحة.. أحضرت لها نبتة الحبق وحركتها حركة خفيفة حيث انتشر عبقها في أرجاء الصالون..

كانت الساعة تقارب التاسعة والنصف تقريباً حيث جاء الدكتور **(حسين)** وبيده حقيبته الطبية وقام بفحصها بشكل كامل، وقال: «ما شاء الله وضعها كتير جيد من حيث الضغط والتنفس والأكسجة.. ولا نحتاج شيئاً.. فقط نرغب بسماع صوتها.. ثم غادر إلى عمله في المشفى».

وعندما حضرت الممرضة شاهدتها تجلس مقابل الشرفة فقالت: «سبقتيني اليوم اشتغلتوا شغلي».. أجبتها: «لا تخافي أجرتك محفوظة.. وأخبرتها أنني أحببت أن أحممها هذا اليوم بنفسي وسأحضر لها طعام الغداء».. فأخذت تلاطفها بالكلام..

آهٍ أمي... وانطفأت الشمعة

كانت الساعة تقارب العاشرة والربع حين سمعت صوت **(الممرضة)** تقول: «بسرعة.. بسرعة.. رجّعي التخت للأسفل.. بسرعة».

تركت ما بين يدي وأسرعت إليها وأنا أقول «شو صار.. شو صار» ذهب نظري إلى وجه أمي مباشرة وصرخت «أمي.. أمي».. رأيت يدها التي تركتها قبل أقل من دقيقة فوق الوسادة تتدلى بجانب السرير.. رأيت الحركة الأخيرة لجفنيها باتجاه الأعلى قليلاً.. كانت تلك النظرة الأخيرة لها.

وضعت يدي على وجهها أحسست بآخر نفس من أنفاسها.. كانت الممرضة تقوم بحركات الضغط المعروفة على صدرها تحاول إعادة النبض إلى قلبها وكان جهاز قياس الضغط مازال معلقاً في يدها.. نظرت إلى مقياسه فرأيت نقطته الزئبقية تنحدر للأسفل.. فوضعت جهاز قياس النبض الشخصي الذي حملته لها من السويد في معصمها.. ونظرت إلى شاشته لقد أعلنت أصفاره الثلاثة توقف نبضها..

أعادت الممرضة الضغط على صدرها والنفخ في فمها وبسرعة فائقة.. حاولت جهدها.. فما أجدى جهدنا نفعاً..

صرخت بأعلى صوتي «أمي لا تموتي.. أمي لا تموتي.. أمي افتحي عينيك.. أمي لا تتركيني.. أمي هل تسمعينني.. أمي ردي عليّ..» كنت أتلفت في أرجاء الغرفة علني أرى روحها... بكيت بحرقة وألم.. فما سمعت جواباً..

ونحن في هذه الحالة.. وصل (أبو نورس) -علمت لاحقاً أن (ماريا) اتصلت معه في اللحظات الأولى حين كنا نحاول إنقاذها-.. اقترب منها وأطبق جفنيها اللذين كانا ما يزالان يحتفظان بنظرتها الأخيرة.. وصل بعده مباشرة الدكتور (حسين) الذي أعاد التأكد من نبضها وتوجه إليّ قائلاً: «الله يرحمها.. قالها باستغراب وذهول».. وقال: «قبل نصف ساعة كانت بأحسن أحوالها»..

تركت باب البيت مفتوحاً لكل من يريد الدخول حيث وصل (أبو أسعد) وبرفقته زوجته وبعدهما وصل (عبود) صديق أخي جميل وتم نقلها عن كرسيها إلى فراشها في غرفة نومها الذي حملها تلك السنوات.. حيث قامت الممرضة بما هو مطلوب القيام به لامرأة متوفاة فبدت وكأنها نائمة.. في هذا الوقت وصلت الدكتورة بثينة فشاركتني حزني وبكائي.. ودخلت غرفتها تودعها ثم جلست جانبي تهدئني وتهوّن عليّ مصابي، وكذلك فعلت الدكتورة نوارة التي جاءت مباشرة عند سماعها الخبر من زوجها.. فقلت: «الحمد لله.. والشكر لله.. عاشت كريمة وماتت كريمة».

كما حضر باقي الأصدقاء وزوجاتهم.

أجريت اتصالات مع إخوتي ومع زوجي ويلدا ومليسيا.. وبدأت أتلقى الاتصالات على هاتفي الجوال، وتم الاتصال بالقس كبرييل يوسف الذي حضر ومعه خوري الكنيسة وأقاما قداس الصلاة على راحة نفسها داخل البيت.

فوجئت بدخول أشخاص غرباء لم أشاهدهم سابقاً يحملون نقالة إسعاف فأرشدهم (أبو نورس) إلى غرفتها، أدركت أنه طلب الإسعاف لنقلها من البيت.. صرخت: «دخيلكم اتركوا لي أمي معي لتنام هنا هذه الليلة.. أرجوكم لا تأخذوها.. اتركوني معها أودعها.. أقبّلها أشم رائحتها».. بكائي أبكى الجميع.. احتضنتني الدكتورة تربت على كتفي كالأم الحنون والأخت الكبرى.. قائلة: «لا يجوز أن تبقى في البيت يجب أن يتم وضعها في براد المشفى».. أسرعت وأعطيته مسبحتها وترجيته أن يضعها بين يديها فأخذها وذهب برفقتهم.. ومعه (أبو أسعد).. وقفت على الشرفة أودعها بنظري حين شاهدت سيارة الإسعاف.. كانت السيارة تعود لمشفى الرازي - هكذا كان مكتوباً على جانبها-.. أنهارت أعصابي من جديد حين أطلق سائقها صوت الإسعاف يعلن للجيران عن وفاتها.. رأيت الكثيرين منهم ومن عمال المؤسسة وصاحب السوبر ماركت والصيدلي يتابعون عن الرصيف سيارة الإسعاف ومنهم من كان يفتح يديه يقرأ الفاتحة ويترحم عليها..

رحلت والدتي من البيت وابتعدت عن الرصيف وهجرت الشرفة التي طالما أحبت الجلوس عليها.. لك رحمة الله يا أماه لك رحمة الله.. انعطفت السيارة عند الطرف الغربي للرصيف لتأخذ طريقها باتجاه المشفى يتبعها (أبو أسعد) بسيارته.. لم يطل غيابهما فقد عادا بعد نصف ساعة وعلمت منهما بأنهما اتفقا مع المسؤول عن البراد على بقاء جثمانها فيه حتى يوم الأحد ٢٠١٣/٥/٢٦ بناء على طلبي.

هكذا مضى ذلك النهار الذي أخذ والدتي معه.. أحاطني الأصدقاء بكل محبة فما أن يذهب أحدهم حتى يعود الآخر.

عند المساء عادت الأخت بثينة وزوجها الدكتور خليل وبقية الأصدقاء.. كان الحديث يدور معهم ومع أخي حنا (هاتفياً) عن ترتيبات الدفن.. كانت رغبتي أن أدفنها في ديريك (المالكية) وهذا النصف الثاني من وصيتها.. هي

أوصتني أن تمضي ما بقي لها من أيام حياتها في سورية وأن تُدفن بجوار قبر والدتها وقبر والدها..

أجمعت الآراء على دفنها بدمشق مراعاةً للظروف الأمنية وتلافياً لمخاطر الطريق بين القامشلي وديريك فيما إذا نقلناها بالطائرة حيث كنا نسمع الكثير من حوادث الخطف والقتل التي ينفذها الإرهابيون بحق الشعب السوري عامة.. وإذا أخذتها لن يستطيع الأصدقاء مرافقتي.. وهم الأولى بحضور مراسم الصلاة عليها ومشاركتي العزاء فهم الإخوة الذين قاموا مقام إخوتي البعيدين عني خلف البحار والمحيطات ولم يتسن لأحدهم الحضور..

أنهيت كافة ترتيبات وتحضيرات الجنازة والدفن أيام الخميس والجمعة والسبت.. وفي صباح الأحد ٢٠١٣/٥/٢٦ جاءت سيارة الكنيسة إلى مشفى الرازي.. كان الأصدقاء عندي في البيت وبالتنسيق فيما بينهم انتقلنا باتجاه المشفى عند وصول التابوت بالعاشرة صباحاً.. عَبَرَ الموكب ساحة الأمويين- شارع المعرض - شارع بغداد- باب توما.. إلى كنيسة السريان حيث كان خالي شكرو يجلس بجانبي.

حين نزلنا من السيارات أمام الكنيسة أخبرني (أبو أسعد) بأنه عندما نقلها مع مسؤول البراد إلى الصندوق تأكد بأن مسبحتها مازالت بين يديها وبأن ملامحها لا تدل على وفاتها فكأنها على قيد الحياة تكاد الدماء أن تنضح من وجهها المورّد وبأن جسدها ليناً طرياً كما لو أنها نائمة..

وبعد انتهاء قداس الصلاة لراحة نفسها طلبت أن أودعها.. فتح القس كبرييل الصندوق لم أصدق ما رأته عيني.. كان وجهها متورداً يكاد النور أن يشع منه.. حاولت أن أقرأ الكلمة التي أعددتها لإلقائها في وداعها فلم تسعفني أعصابي فقد غلبني البكاء فأخذ القس كبرييل الورقة من يدي وقرأها على الحضور..

أمي الحبيبة..

صدق القائل: الأم وطن.

ما أصعبه من موقف أقفه لأتحدث فيه عن فقدان الوطن

رحمك الله يا أمي.. عشت كريمة.. وتوفاك الله مكرّمة.

كنت مثالاً وقدوة لعمل الخير ومحبة الناس.. وكنت كالقديسين تطلبين من مخلصنا أن يخلص سورية من آلامها.. ووضعت في عنقي أمانة آليتُ على نفسي إلا الوفاء بها وتنفيذها.. كما رغبتِ وأحببتِ.. رغم صعوبة الظروف.. وهي أن تكون أرض سورية محطة رحلتك الأخيرة في هذه الحياة.. وها أنت ترقدين بسلام على ترابها بالرغم من أنك كنتِ تقطنين في أرقى بلاد العالم تطوراً.. فقد رفضت البقاء في البلاد الأمريكية وكرهتِ الحياة في البرازيل، وكنت على عجلة من أمرك لمغادرة السويد وكأنك كنتِ تعلمين قدركِ وأنا على يقين.. أنك لم تُخطئيه.

فقد وجدت في سورية –توءم روحك– كل محبة ورعاية وعناية من إخوةٍ أصدقاء.. أشكرهم لِما أحاطوكِ بهِ من خالص إنسانيتهم ورفعة أخلاقهم وها هُم الآن يقفون بجانبي في وداعك الأخير.. يطلبون لك الرحمة، فلهم مني الشكر ومن الله الثواب.

أشكر حضوركم أيها الإخوة والأصدقاء.. راجيةً الرب أن يمن عليكم بالصحة والسعادة ويتقبل والدتي بالرحمة والغفران.

سهام: ابنة المرحومة

بعد ذلك توجه موكب المشيّعين إلى المقبرة حيث كانت صالة كنيستها مليئة بالمصلين وأقيمت صلاة الجنازة لراحة نفسها.. وبعدها تم نقل الصندوق إلى القبر الجداري بالنسق الثالث بين القبور.. وقام حارس وخادم المقبرة بوضع اللوحة الرخامية التي تم تحضيرها..

أشعلت لها شمعة.. وودعتها قائلة: «وداعاً يا أمي أصبحت بيد من هو أحن عليكِ مني.. رحمك الرب يا أمي.. سامحيني يا أمي».

توجهنا بعد إتمام مراسم الدفن إلى مطعم النارنج في إحدى حارات دمشق القديمة- مقابل الكنيسة المريمية... حيث جمعت طاولة الغداء كافة الأصدقاء الذين وقفوا معي منذ إحضار والدتي إلى دمشق وحتى لحظة وضعها في قبرها قبل دقائق معدودات.

وبعد الغداء توجهت برفقة خالي من أجل بعض الالتزامات وتلقي العزاء..

عند المساء ذهبت إلى كنيسة الصليب بمنطقة برج الروس وحجزت صالة العزاء فيها لليوم الثاني، وبالرغم من القلق الذي ينتاب كل من يذهب إلى تلك المنطقة نتيجة ما تتعرض له من استهداف الإرهابيين، فقد شاركني الأصدقاء الإخوة هذا العزاء وحضر آخرون كانوا يعرفونني بأنفسهم من السريان المقيمين في جرمانا والطبالة، ومنهم بعض جيراننا حين سكنت العائلة سابقاً فترة من الزمن في تلك المنطقة.

اقترب شهر أيار من نهايته فهو سيرحل ويتركني ليبقى في ذاكرتي ما حييت.. كم كان قاسياً ومؤلماً سيرحل بعد أن قضى على أحلامي برؤية أمي ثانية.. سامحك الله أيها الشهر فقد غيّبت عني أغلى ما أحببته في حياتي..

تم التنسيق مع صاحب البيت لتسليمه مفتاح بيته في اليوم الذي أغادر فيه إلى السويد خلال عدة أيام.

كنت أجلس مع (ماريا) مساءً على شرفة البيت حيث كانت أمي تحب الجلوس.. سألتها: «مع مين بقى بدك تلعبي أوغلان» فبكت وأبكتني.. وكانت تحدثني عن الكثير من الجزئيات التي كانت تحصل بينهما.. كانت صادقة في مشاعرها وعواطفها وأبدت استعدادها أن تذهب معي إلى السويد إذا استطعت تأمين فيزا لها..

بتاريخ ٢٠١٣/٦/٢ وبمساعدة الأصدقاء أحضرت ورقة مصدقة من قسم الشرطة (البوليس) وبلدية الحي بالأغراض التي سأنقلها من دمشق إلى مشتى الحلو، حيث استأجرت شاحنة مخصصة للنقل وأخذت كافة الاغراض التي اشتريتها لتأمين راحة والدتي.. وخلال الطريق توقفنا على عدة حواجز للجيش.. فكان أحد عناصر الحاجز يشاهد بطاقتنا الشخصية بكل أدب واحترام يقول: «الحمد لله على السلامة.. أهلاً وسهلاً» ثم يشاهد الورقة المصدقة من قسم الشرطة والبلدية.. فيقول: «رافقتكم السلامة» كانت هذه الإجراءات ضرورية وهامة جداً للحفاظ على حياة المواطنين بشكل عام وحتى يتم التأكد بأن الأغراض التي أنقلها تعود لي وغير مسروقة.. أو مهربة.

وكانت تلك الحواجز ضرورية أيضاً لمنع تهريب السلاح والمتفجرات من قبل الإرهابيين وكذلك التأكد من الوثائق الشخصية (هوية.. جواز سفر..الخ) حتى لا يستطيع الإرهابيون استخدام وثائق تمكنهم من الهروب والقيام بأعمال التفجير والقتل والخطف.

وعندما وصلنا إلى الحاجز الموجود قرب مفرق القصير.. استوقفنا المسؤول عن الحاجز وقال: «كيف مسافرين بهذا الوقت.. يوجد اشتباك وإطلاق نار باتجاه القصير.. انتظروا قليلاً لأسأل زملائي على الحاجز التالي فإذا كان الطريق آمناً لمروركم فأهلاً وسهلاً.. وإلا ستنتظرون حفاظاً على حياتكم.. فسألته: «خير شو فيه».. أجاب: «ليش ما سمعتي الحمد لله الجيش حرر القصير من الإرهابيين»..

فاتصل أمامنا بالحاجز الآخر ونظر إلينا مبتسماً وقائلاً: «تفضلوا الطريق آمن».

عندما وصلت بيت المشتى وجدت (أبو إبراهيم) وزوجته في انتظاري.. وفي اليوم التالي عدنا ثانية إلى دمشق حيث تبرعت بكافة الأدوات الطبية التي

اشتريتها لإنقاذ والدتي وما أحضرته لها من السويد لصالح مشفى أهلي يهتم بمعالجة المرضى من الأطفال وكبار السن.

كما سافر خالي عائداً عن طريق الجو إلى القامشلي.. وقلت لـ(ماريا) لا تهتمي لن أسافر قبل تأمين سفرك إلى أثيوبيا.. فتم الحجز لها للسفر إلى أثيوبيا على الطائرة الأثيوبية التي تغادر مطار بيروت إلى أثيوبيا مساء ٢٠١٣/٦/٥ وأرسلتها بمفردها مع (أبو رسول) حيث غادرت إلى بلدها بالتاريخ المذكور.

وفي صباح ٢٠١٣/٦/٦ سلمت مفتاح البيت لصاحبه وتوجهت إلى مطار بيروت برفقة (أبو نزيه) وزوجته.. ودعتهما عند بوابة المغادرين.. وعندما أقلعت الطائرة إلى استنبول قلت: «رحمك الله يا أمي.. جئت وعندي أم ورجعت بمرارة اليتم»..

استعرضت خلال الرحلة بين استنبول واستوكهولم تفاصيل رحلتي وقلت في حديث النفس: «رحلت أم النسب والدم إلى حيث ترتاح.. وبقيت الأم الخالدة تعاني الجراح».

كلمة أخيرة

ما دفعني لكتابة هذه الأسطر هو ألمي وحزني على واقع عاشته أمي بالنسب والدم، وواقع تعيشه الأم الخالدة (سورية) فهما خالدتان في قلبي ووجداني توءم بحبل سري واحد غير منفصل.. ارتبطت به ارتباط الروح بالجسد..

توءم ولدا معاً في داخلي مذ أبصرت النور.. رفيق دربي فأصبح عشقي لهما أبدياً سرمدياً فهما بالنسبة لي عنوان كل ماضٍ وحاضر ومستقبل.. من حروفهما الإلهية نبدأ ونتعلم الكلمات والعلوم وأبجديات السلام، وعلى حضنهما نتمنى أن نموت لأن فيهما راحة النفس، فأي قداسة وطهارة أقدس منهما حيث تكون الرحمة بلا حساب، وهما البابان الوحيدان للخلود، فإذا كانت أبواب الجنة تحت أقدام الأمهات والخلود فيها أولى الأبواب... فإن ثانيها بشهداء الوطن الذين عاهدوا الله فصدقوا وكانوا خير حافظين لتراب ومستقبل وحضارة سورية التي تختصر كل المعاني والعناوين إلى المستقبل الواعد بالأمن والسلام.

أخيراً .. أتمنى أن يعذرني قارئ كلماتي إن وجد خطأً أو شعر بالملل فكل حرف كتبته هو وثيقة صدق للأحداث التي جئت على ذكرها..

رحمك الله يا أمي وحماكِ الله يا سورية.

بطاقة شكر

يسرني أن أقول لكافة الأصدقاء الذين أبادلهم المحبة والاحترام إنني لن أنسى حضوركم وزياراتكم لوالدتي في حضوري وغيابي في السنوات التي عاشتها بدمشق.. فكنتم نعم الإخوة ونعم الأصدقاء..

وأخص بالذكر:

الأخت الدكتورة بثينة شعبان وعائلتها.

الأخ سمير وسوف وعائلته.

المحامي نضال النقري وعائلته.

الدكتور حسين أوغلو وعائلته.

الأخ يوسف وسوف وعائلته.

السيدة أم مهاب وعائلتها.

والشكر الكبير لعائلتي: زوجي شابو وابنتيّ يلدا ومليسيا، فلولا وقفتهم ودعمهم لي لما استطعت القيام بما قمت به لوالدتي..

ولن أنسى بقية إخوتي فلهم مني كل محبة واحترام..

وأخص بالذكر أخي الكبير (حنا) الذي كان بمثابة الأب الثاني بعد وفاة والدي.

فهرس

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠١٦م

عدد الطبع ٢٠٠٠ نسخة